تباشير النهضة في العالم الإسلامي

أو

"الشرق الأوسط في التاريخ الحديث"

الدكتور
محمد ضياء الدين الريس



دار الأنصار
بالقاهرة

تباشير النهضة في العالم الإسلامي

أو

"الشرق الأوسط في التاريخ الحديث"

تأليف

الدكتور

محمد ضياء الدين الريس

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم

بجامعة القاهرة

١٤٠١

دار الأنصار

مكتبة . طباعة . نشر . توزيع

٨١ ش البستان . ناصية ش الجمهورية

أمام قسم عابدين ت ٩٣١٥٨١

الطبعة الثالثة

دار الدعوة للطباعة والنشر
٤٣٢ ش الأهرام

781
a in

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن أهمية «الشرق الأوسط» بالنسبة للعالم أهمية بالغة. فقد جعله الله «قلب العالم». وهذه حقيقة جغرافية لاتتغير. وهي أيضاً حقيقة تاريخية: إن هذا الشرق ظل طوال عصور متوالية — وبوجه أخص في العصر الإسلامي — وهو مقر الزعامة ومصدر الحضارة. وهي — من الوجهة الروحية — حقيقة كذلك: لأن من هذا الشرق أشرقت الأديان الكبرى، التي سمت بالإنسانية وغيرت وجه التاريخ: وما حضارة أوروبا في أصلها إلا شعاع من الأضواء التي انبعثت من أفق هذا الشرق. ثم هي بعد هذا كله. حقيقة حاضرة لأن مصير العالم الآن يبدو — إلى مدى بعيد — متوقفاً على مايجري في هذا الشرق من أحداث.

وتعبير «الشرق الأوسط» تعبير حديث. وضع أولاً في أوروبا ولكنه أصبح مقبولاً ومتداولاً. لأنه بجانب كل شيء يعبر عن الحقيقة السابقة. وهي أن هذا الشرق «وسط» العالم: ومدلوله صار

بالجملة مفهوماً وإن كان غير محدد علمياً : إلا أنه من المسلم به ومن الواضح أن جوهر هذا الشرق ، أو المركز الرئيسي فيه ، هو الأقطار العربية : ثم إلى جانبها في الشمال توجد تركيا ، وإلى جوارها في الشرق توجد إيران : وقد يتسع مدلول التعبير فيشمـــل أيضاً أفغانستان وباكستان . فأول ما ينصرف الذهن عند سماع كلمة « الشرق الأوسط » يتجه إلى العالم العربي ، ومعه جزء كبير أيضاً من العالم الإسلامي في آسيا . وهذه الأقطار كلها كونت — لمدد طويلة في العصر الإسلامي — دولة أو مجتمعاً أو عالماً كانت تسوده ثقافة واحدة ، وتحركه روح واحدة ، وتجمع بينه مصلحة مشتركة واحدة .

وقد كان أزهى عصر مر به هذا « الشرق الأوسط » هو العصر الذي سادت فيه « الدولة الإسلامية » وتجلت قوتها وسطعت حضارتها . وقد طبع هذا العصر الشرق الأوسط بطابعه حتى اليـــوم ، فصار الطابع في الأغلب « إسلامياً » ؛ بل إن الفئة القليلة التي بقيت على عقيدتها القديمة قد تأثرت بالروح الإسلامية وعاشت في بيئة إسلامية وجنت ثمار حضارة الإسلام . فصحيح إذن تاريخياً وعلمياً أن يقال عن هذا الشرق إنه « الشرق الأوسط الإسلامي » . فإذا أريد تخصيص الأجزاء العربية قلنا : « الشرق الأوسط العربي » . والإسلام — قبل كل شيء — هو الذي أوجد الدولة العربية : وهو الذي صنع التاريخ العربي : وهو الذي خلق الحضارة العربية ، التي لم تقتصر على

العنصر العربى ، بل ساهم فيها ، بأوفر نصيب ، الأجناس الأخرى التى دخلت فى الإسلام : من فارسية وتركية وهندية وغيرها : فصار مدلولها أعم وصارت « حضارة إسلامية » . فالإسلام هو روح حياة الشرق الأوسط : وهو الذى لا بد أن يلجأ إليه ويعتمد على مبادئه ، إذا أريد تجديد حياة هذا الشرق وقوته ، وبعث ذاتيته وطابعه ، وجعله مرة أخرى ذا رسالة خاصة سامية إلى العالم .

*

ولقد ظل هذا الشرق فى قوته ، بل فى مكان السيادة ، حقباً من الدهر . ثم تطورت به الأمور ، وعدت عليه عوادى الزمن ؛ فتحولت قوته إلى ضعف واعتراه التفكك : وبالجملة صار إلى ضد ما كان عليه من قبل . وبذا غدا فريسة سهلة للمعتدين والطامعين والمستغلين : وبدأ فى حياته إذن دور هو أقسى ما مر به : هو دور محنة وبلاء واختبار ، كانت غايته أن فقد الشرق حريته وأغارت عليه الجنود الأجنبية وحكمه أعداؤه ! ويمكن تحديد بدء هذا الدور من الضعف بنحو قرنين ، قبل الزمن الحاضر .

وقد كان السبب فى هذا التطور عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ، ينسب بعضها إلى الشرق الأوسط وبعضها إلى البلاد الأوروبية : وأيضا دخول الإنسانية فى طور جديد من التقدم عملت أوروبا على إيجاده فأفادت من نتائجه : ولم يتنبه الشرق إليه

فى حينه فبقى فى جموده ، فتخلف وسبقت أمم أوروبا . وظلت المسافة تتسع بين العالمين .

فإذا كانت دراسة تاريخ الشرق الأوسط فى كل عصوره واجبة — وهى أوجب ما يكون بالنسبة إلى العصر الإسلامى الذى كون روحه وخلق ذاتيته — فهى كذلك لا تقل وجوبا بالنسبة إلى عصره الأخير أو الحديث . بل إن العصر الحديث هو الذى له صلة قريبة أو مباشرة بالأحوال الحاضرة : فله من الوجهة العملية أهمية كبرى . ومعرفته تعين على تقدير الأحوال الجارية التقدير الحق ، وأن يكون عنها الحكم الصحيح . ومن أجل هذا أو لمثله يعنون فى أوروبا كل العناية بدراسة تاريخهم الحديث .

غير أن دراسة التاريخ الحديث للشرق الإسلامى أو العربى لم تبدأ إلا قريباً ؛ ولا يزال ينبغى أن توجه وتبذل جهود كثيرة لدراسته كما وجهت لدراسة عصور أخرى . فلابد مثلا أن يدرس تاريخ الدولة العثمانية بمثل التفصيل والتعمق الذى يدرس به تاريخ الدولة العباسية أو الأموية ، وكذلك تاريخ الأقطار العربية ، التى كانت مرتبطة ومحكومة بها . فهذا أقرب إلينا ولا شك من دراسة عصر « المماليك » — مثلا .

وقد كان الشعور بهذه الحاجة هو الذى دفعنا فى « قسم التاريخ الإسلامى »

بكلية دار العلوم إلى أن نقرر دراسة التاريخ الحديث للشرق الأوسط.

وكان من حسن حظى أن عهد إلى ببدء هذه الدراسة ، فكان من نتائج ذلك أن أصدرت فى عام ١٩٥٠ كتابى الذى أسميته : « تاريخ الشرق العربى والخلافة العثمانية » . وكان رائداً فى هذا المجال . وقد استعرضت فيه تاريخ الشرق الأوسط ، منذ حوالى منتصف القرن الثامن عشر إلى أواسط القرن التاسع عشر . وقد سد الكتاب بعض الفراغ الذى كنا نحس به : ومنذ صدوره ينتفع به الطلاب خاصة والقراء عامة . وكنت فى مقدمته قد وعدت بأن أواصل دراسة تاريخ الشرق حتى العصر الحاضر ، فيصـــدر بذلك جزء ثان . لكن انصراف جهدى إلى إصدار كتب أخرى لم يمكنى من إنجاز ذلك فى وقته . ثم أتيحت لى الفرصة للوفاء بالوعد ، حين رغبت إلى إحدى المجلات الكبرى أن أمدها ببعض الموضوعات التاريخية ، فكتبت الفصول التالية . وابتكرت فيها نوعا جديداً يمكن أن يسمى : « المقالة التاريخية » : وهى التى تقدم حقائق التاريخ عن موضوع معين ، فى أسلوب أدبى : فتكون مقالة علمية أدبية ، وبعرض خاص لا يكون أساسه سرد الأحداث مجردة ، ولكن غايته الرئيسية توضيح الظروف والعوامل والنتائج : أو هو بحث تحليلى يقصد منه شرح الأحداث وبيان الروابط بينها . وحرصت على أن تكون الفصول كلها فى تاريخ الشرق الاسلامى فى عصر واحد : هو تاريخه الحديث منذ أواخر القرن الثامن عشر . إلى قريب من الوقت الحاضر .

فمجموع هذه الفصول يكون إذن عرضاً أو صورة عامة للتاريخ السياسى لهذا الشرق ، وبعض جوانب أخرى ، فى خلال القرن السابق ، وحتى منتصف القرن الحالى . فجاء إذن مكملا للتاريخ الذى بدأته فى الكتاب الأول .

وقد جعلت كلامنهما كتاباً مستقلا : فالأول خاص « بدور الانتقال إلى العصر الحديث » ، والثانى اخترت له هـذا الاسم : « الشرق الأوسط فى التاريخ الحديث » . وهذاالعنوان يدل على أنه ليس تاريخاً مستوفياً للأحداث ، ولكنه يعنى بأهم التطورات ونتائجها فى حياة هذا الشرق . فهو فى الواقع سيرة أو تاريخ لتطور الشرق الأوسط فى العصر الحديث : ولا سيما من الناحية السياسية . ونورد فيما يلى مجملا للموضوعات التى تناولها الكتاب بالبحث :

* * *

كتبنا ، أولا ، فصلا للمقارنة بين تاريخى الشرق والغرب : لنبين أن تفوق الغرب لا يرجع لأسباب ذاتية أو دائمة ، ولكنه ظاهرة طارئة حديثة ، لأسباب معينة وجدت : وأن هذه الأسباب حين توجد فى الشرق توجد النهضة والتقدم : بل إنها لا ترجع لأكثر من قرنين أو ثلاثة. ثم عينا الصورة الحقيقية للحملة الفرنسية — التى لم تكن أكثر من محاولة استعمارية — خلافاً لما كان يشاع عنها من دعاية . وشرحنا بعد ذلك الأسباب التى أدت إلى ثورة شعب مصر ضد الحكم العثمانى المباشر : وكانت ثورة دستورية ظهرت فيها إرادة الأمة . وكفى تسجيل هذا المبدأ . وإن كانت النتيجة

ثم تحقق حينئذ كل الآمال ، لأن محمد على الذى انتخب — كما بينا فى الفصل اللاحق — لم يكن أكثر من طالب ملك ، من طراز الحكام العثمانيين : وإن كان قد انتفع بتقدم العصر الحديث . ولقد أثبت الفصل الذى تلا ذلك أن الحرب التى شنها محمد على على السلطان كانت ضرراً محضاً ، أدى إلى إضعاف الشرق الأوسط ، والتمهيد للاستعمار الذى بدأته فرنسا فى « الجزائر » . وتلا هذه الحرب عهد من التدخل الأجنبى ، وازدياد مطامع الغرب فى الشرق . ثم بدأ بعد ذلك عهد اليقظة الفكرية والسياسية، الذى قاده جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده والزعيم أحمد عرابى ، الذين تكلمنا عنهم وعن آثارهم فى الفصول التالية .

وفى أوائل القرن العشرين مر الشرق الأوسط بدور انتقال ، وتغيرت النظم : وظهرت القومية العربية . فبينا انتقال الشرق العربى عن حاله الأولى إلى أوضاعه الحديثة ، وقد وصفنا كفاحه المجيد ضد عدوان الاستعمار ، والثورات الوطنية التى قام بها . وهذا تطور خطير فى تاريخ الشرق الأوسط . وانتهت حينئذ الدولة العثمانية . ثم كان ختام الفصول وصف الكارثة التى هى أكبر كارثة منى بها الشرق العربى فى تاريخه الحديث ، وهى احتلال الصهيونية لفلسطين بمؤامرة من المستعمرين . والواقع أن هذا الاعتداء يعيد لنا ذكرى مأساة الصليبيين . وإن أكبر واجب على الشرق العربى أن يجتهد ليحرر أرضه من هذا العدوان . ويذود عن نفسه هذا الخطر .

فإلى كل معنى بدراسة التاريخ الإسلامى — من الطلاب أوالقراء عامة — نقدم إذن هذه الفصول التاريخية ، راجين أن تحقق الغرض الذى قصدناه منها . ونأمل أن تستثير الاهتمام بالاستزادة من قراءة هذا التاريخ فى المراجع المطولة . كما نرجو أن تدعو العقول فى نفس الوقت للتفكير فى أحوال هذا الشرق ، حاضره ومستقبله . وأن تحفز الهمم أيضاً إلى العزم والعمل على بذل كل جهد لتحقيق نهضة الشرق الاسلامى ، ورفع شأنه وإعادة مجده .

والله ولى التوفيق ؟

القاهرة : الطبعة الأولى ١٩٥٩
الطبعة الثانية ١٩٦٥

محمد ضياء الدين الريس

في التاريخ المقارن :

بين الشرق والغـــرب

أو

بين العالم الإسلامى وانجلترا

هذه مقدمة لدراسة التاريخ الحديث . وهى دراسة مقارنة لتاريخى الشرق والغرب . ونعنى بالشرق العالم الإسلامى . واخترت إنجلترا كنموذج تمثل غيرها من دول الغرب ، أو أوربا بصفة عامة . وأمريكا ما هى إلا فرع لانجلترا وأوربا .

أسئلة : —

لم تكن « إنجلترا » هى أكثر الدول الغربية صلة بالعالم الإسلامى فى التاريخ القديم أو الوسيط . وليست هى أيضا — من حيث الموقع الجغرافى — أقرب تلك الدول إليه . ففرنسا — مثلا — أو إيطاليا أو أسبانيا كانت صلاتها أوثق بالعالم الإسلامى ، مدى دهور طويلة : وطالما كانت بينها وبينه مبادلات فى نواحى الاقتصاد أو الثقافة أو السياسة ، أو فى ميادين الحرب . وهى كذلك أقرب إلى

بلاد الشرق الأوسط ، القريب أو البعيد — من إنجلترا . ومع ذلك فالذى وقع بالفعل — وهى الحقيقة الكبيرة التى يسجلها مؤرخ العالم الإسلامى الحديث — أن الدولة — أى من بين سائر الدول الغربية — التى صارت لها أشد صلات بالبلاد الإسلامية وأهلها : والتى ظلت مدى عهد طويل — أى حتى منتصف القرن الحالى على الأقل[١] — لها أثر كبير أو أكبر الأثر فى توجيه سياسة تلك البلاد : بل كان لها وحدها القول الفصل فى تقرير مصير بعضها : ولا تزال إلى اليوم لها نفوذها القوى فى عدد من الأقطار الاسلامية — هذه الدولة هى « إنجلترا » أو بريطانيا:

تلك الدولة التى تعيش فى جزيرة نائية منفردة فى مياه بحر الشمال فى منطقة تقع إلى الشمال الغربى من أوروبا، لا يفصل بينها وبين القطب الشمالى نفسه إلا أمواه المحيطات! فكيف تأتى لها أن تبلغ هذه المكانة كيف أمكن أن تتكون هذه العلاقات بينها وبين العالم الاسلامى؟ وكيف صار لها هذا النفوذ القوى الذى أمكن بواسطته أن تتحكم فى

---

(١) منذ منتصف القرن الحالى — العشرين — نشاهد أن أمريكا (الولايات المتحدة) أخذت تشترك مع إنجلترا فى سياستها ؛ وقد يؤدى ذلك إلى أن ترثها فى نفوذها فى مناطق معينة . ولكن إنجلترا لا يزال لها توجيه كبير فى السياسة . وأمريكا — على كل حال — تاريخياً — هى الفرع أو البنت الكبرى لانجلترا . وتاريخها — فى الناحية الدولية — هو استمرار لتاريخ إنجلترا ، وهو امتداد للاتجاه « الامبريالى » أو « الاستعمارى » ، وإن اتخذ النفوذ أو التدخل صوراً جديدة .

مصائر الشعوب فى تلك البلاد ؟ ثم ما مستقبل العلاقات بين الدول الاستعمارية والعالم الإسلامى ؟ .

كل هذه أسئلة تحتاج إلى أن يجاب عنها . لكن الإجابات الصحيحة عنها لا تكون إلا عن طريق ذكر الحقائق التاريخية . التى كانت بمثابة الأسباب الطبيعية أو المقدمات لكل ما حدث من تطورات . ومن أجل ذلك سنعمد الآن إلى عرض أهم الحقائق التاريخية التى كان لكل منها أثر ظاهر فى وجود تلك التطورات : بحيث نعطى عنها صورة عامة تؤدى إلى فكرة واضحة ، دون دخول فى التفاصيل أو إفاضة فى شرح الحوادث .

مقدمة

انجلترا فى العصور الوسطى :

كانت « إنجلترا » — فى الوقت الذى أشرقت فيه شمس الاسلام وأخذ نورها يمتد إلى آفاق مترامية فى أنحاء العالم — أى فى خلال النصف الأول من القرن « السابع » الميلادى — كانت عبارة عن جزيرة شبه مجهولة ، منعزلة عن العالم المتحضر. ظلت تنزح إليها منذ عهد قريب القبائل « الجرمانية » — الأنجلو سكسونية — التى كانت تقطن فى شمال أوربا ، وذلك هربا من زحف جموع « الهون » أو « المغول » ، أو سعيا وراء الرزق . وكانت حالتها السياسية فوضى — وظلت كذلك طوال القرنين السابع والثامن — فهى مقسمة إلى مقاطعات كل مقاطعة تكون مملكة ، والحروب مستمرة بينها . وهى فى حالة اقتصادية متأخرة ؛ فمناطق واسعة من أراضيها غير مزرعة تغطيها الغابات : وليست لها تجارة تذكر ، ولا يعرف أهلها الصناعة . وبالجملة يعيش سكانها فى حالة قريبة من الهمجية أو الوحشية .

ولم تكن لها صلة بالعالم الخارجى إلا بمجرد وفود بعض رجال الدين ، من قساوسة أو رهبان ، يرسلهم « البابوات » فى رومه أو

بعض الأديرة لنشر الدين المسيحى فى ربوع الجزيرة . وكان تقدم المسيحية فى بادىء الأمر بطيئاً ؛ ثم كان كل ما فهمه الذين اعتنقوا هذا الدين الجديد — الذى كان موطنه الأول هو الشرق الأوسط — هو مجرد إقامة بعض المراسم ، والاحتفاظ ببعض الشعائر . ولكن هؤلاء المبعوثين ، على كل حال ، كانوا ينقلون طرفا من الحضارة التى أخذت تعرف فى بلاد جنوب أوربا ، وهى الواقعة على حدود العالم الإسلامى ، المتأثرة بما يجرى فيه : وكانوا بهذا النقل أو الإقتباس — على ضآلته — يساعدون على نقل السكان « الإنجليز » من حالة البربرية والهمجية إلى حالة يمكن أن تؤدى — ولو بعد قرون طويلة إلى مايوصف بأنه « حضارة » .

* * *

وفى خلال عهود طويلة بعد ذلك — إلى مابعد نهاية القرن العاشر الميلادى : الرابع الهجرى — بينما كانت تلك العملية تسير ببطء ، ولم تؤد إلا إلى نتائج محدودة ، وعلى حين كان العالم الإسلامى قد وصل — نتيجة لجهوده المتواصلة التى يبذلها — إلى قمة المجد والسيادة : وأسفرت جهوده المعنوية والمادية عن حضارة منقطعة النظير ، لم يكن لها مثيل فى تاريخ العالم فى أى عصر من عصوره السالفة ، إذ شملت كل النواحى العمرانية والثقافية ، مما نتج عنه تقدم فى العلوم والفنون والآداب — كما هو معروف فى تاريخ هذه الحضارة فى

عصور الدولتين الأموية والعباسية — بينما كل هذا كان يحدث ، كانت « إنجلترا » إذ ذاك لا تزال هذا البلد المتأخر ، الفقير فى الموارد ، المنعزل فى بعض مناطق العالم التى كادت أن تكون مجهولة : يعيش على الفتات الذى تقدمه له بعض الشعوب الساكنة إلى الجنوب ، وهذه الشعوب تلتقط هذا الفتات بدورها من موائد العالم الإسلامى ، الزاخرة بألوان شهية شتى من ثمار تلك الحضارة التى وصفناها . ولم يقتصر الأمر على هذا الحد ، فإن هذا البلد — أى إنجلترا — قد منى فى خلال تلك القرون بكوارث متلاحقة ، فقد غزى مرات عديدة بجموع مغيرة وفدت من بلاد النرويج والدانمرك أفقدته استقلاله ، وأصبح « الإنجليز » أمة محتلة خاضعة لنير الأجانب . وسامهم هؤلاء السادة الحاكمون لهم سوء العذاب .

وكان آخر هذه الغزوات احتلال « وليم النورماندى » ، الذى لقب بـ « الفاتح » — لبلادهم فى تاريخ لا ينساه « الإنجليز » سنة ١٠٦٦ م (وكانت الدولة والحضارة الإسلامية إذ ذاك فى غاية مجدها : فى القرن الخامس الهجرى) — غزاهم على رأس « النورمانديين » ؛ وهم قوم كانوا يسكنون مقاطعة « نورمانديا » فى شمال فرنسا ، وأصلهم من بلاد « النرويج » : فهم من الجنس الشمالى لكن حضارتهم فرنسية — صورة منقولة من حضارة البحر الأبيض المتوسط — احتل « وليم » بلادهم ومعه « البارونات » الفرنسيون ، واستولى على أراضى إنجلترا كلها ، فقسمها بين قواد جيشه وأتباعه . وأصبحت الجزيرة البريطانية

شبه مقاطعة «مستعمرة» ملحقة بأملاك وليم والنورمانديين فى فرنسا وصارت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية، والطبقة «الأرستقراطية» مكونة من الفرنسيين، وهم الحكام والولاة الآمرون الناهون، المتمتعون بكل خيرات البلاد. أما الإنجليز، فما كان أشبههم — مدى قرون ثلاثة: إلى القرن الرابع عشر — بحالة «الفلاحين» فى ظل «الباشوات» الاتراك — كما سيظهرون فى الشرق فيما بعد — : كانوا محرومين فقراء، مبعدين عن الحياة العامة، يكدون ويشقون من أجل متعة «اللوردات» الذين كانوا من أصل فرنسى، ويخضعون لقوانين ظالمة وأكثرهم كان يكون تلك الطبقة الدنيا، طبقة «الأرقاء» فى نظام الإقطاع: واللغة الإنجليزية كانت لغة محتقرة لا يتكلم بها إلا فى الريف فهى لغة أهل القرى، لا تصلح لعلم أو أدب أو لشئون المجتمع.

هذه كانت حال الإنجليز بصفة عامة. وهذه حقائق مقطوع بها يعرفها كل من درس تاريخ إنجلترا؛ ويذكرها المؤرخون البريطانيون أنفسهم فى كتاباتهم لتاريخ بلادهم.

* * *

نحو العصر الحديث:

وقد ظلت أحوالهم هكذا — مع تغير يقتضيه مرور الزمن — إلى مطالع عهد النهضة. وفى تلك الأثناء، لما بدأ يضمحل النفوذ الفرنسى أخذوا يشعرون بوجودهم كمملكة مستقلة: وأخذ الرجل الانجليزى

الذى كان محتقرا ، مضطهدا من « سيده » الفرنسى ، يصعد على سلم الدرجات الاجتماعية ، ويشغل الوظائف : وبدأت اللغة الإنجليزية — بعد أن اقترضت أكثر مادتها من اللغتين اللاتينية والفرنسية — تظهر إلى الوجود ، وتغادر الريف إلى المدن . ويعترف بها كلغة رسمية ثانوية فى الديوان ودور التعليم ، ولغة — بعد أن تغذت بالمادة من غيرها — يمكن أن تستعمل فى الشعر والأدب : وبدت فى إنجلترا — كغيرها من البلاد الأوربية — بعض ظواهر التقدم ، أو الانتقال من درك « العصور الوسطى » .

ولكن هذا التطور ، أو بدء الانتقال من تلك العصور ، لم يحدث — أولا — إلا نتيجة للحروب الصليبية ، والهزة العنيفة التى سرت فى أنحاء أوربا كلها ، نتيجة لاتصالها ببلاد الشرق الاسلامى واطلاعها على بعض جوانب حضارته . حيث كان من أهم نتائج تلك الحروب تحرير طبقات « أرقاء الأرض » التى كانت تكون السواد الأعظم للشعوب الأوربية ، وذلك على أثر تحطم النظام الاقطاعى ، ونشاط حركة التجارة وبدء توفر النقد ، وإتساع أفق المواطن الأوربى بعد أن كان ضيقا جامداً يعين حدوده التعصب . إذ اطلع على آفاق فسيحة للحضارة ومختلف ضروب التقدم الانسانى فى بلاد الشرق الاسلامى . كما كانت هناك إلى جانب ذلك عوامل أخرى ، تعمل على إيجاد هذا التطور . وأهمها انتقال الحضارة والثقافة من الأندلس الإسلامية وصقليه إلى أوربا . وكانت إنجلترا دائما فى كل هذه الأحوال تتبع أوربا فى كل مايحدث

لها ، وتفيد من كل ما تفيده القارة ، وتسير وراءها سير الظل وراء الشمس . وقد اشتركت أيضاً فى الحروب الصليبية ، وبدت فيها كل هذه الظواهر .

* * *

فى الشرق والغرب :

كانت هذه هى حال إنجلترا : أى أنها ظلت ، برغم هذه التغيرات — وبعد أن كان العالم الاسلامى قد قضى أدهراً طويلة وهو فى مكان السيادة وبلغ أوج الحضارة ، وصارت ثمرات نشاطه الفكرى تملأ مكتبات بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغيرها ، وهى ثمرات علوم متنوعة من فلسفة وأدب وطب وعلوم تجريبية طبيعة وكيمياء وفلك وقانون ، إلى غير ذلك من العلوم — وكان قد شهد عصر الخلافتين الأموية فالعباسية إلى نهايتها ، إذ انتهت بعد أن انقضت خمسة قرون طويلة — وكان ذلك فى عام ١٢٥٨ من التاريخ الميلادى — ثم بعد فترة أخذت تتكون خلافة أو دولة جديدة هى الدولة العثمانية ، التى ستكون أقوى دولة فى أوربا مدة طويلة أخرى — بعد هذا كله ، إلى بداية ما يسمى عهد النهضة فى أوربا — أى فى مطالع القرن السادس عشر — الذى بدأت تدخل أوربا فيه فى دور جديد : أى منذ أربعة قرون ونصف فقط — وهى مدة ليست بالطويلة بالنسبة إلى التاريخ البشرى العام — إلى ذاك الوقت كانت « إنجلترا » لاتزال أيضاً تعتبر دولة « صغيرة » ، وقد فقدت جل ما كان لملوكها من أملاك فى فرنسا .

وخسر أولئك كل مازعموا من دعاوى بعد تلك الحرب التى يقال لها «حرب المائة سنه»، والتى جرت فى ذيولها حرباً أخرى أهلية فى داخل إنجلترا، هى التى سميت: حرب «الوردتين» بين فريقين من البيت المالك يتنازعان على العرش، وقد مزقت تلك الحرب الحياة السياسية فى إنجلترا شر ممزق، وجعلت حياتها الاجتماعية والاقتصادية مضطربة غاية الاضطراب.

كان ذلك كله فى خلال القرن السابق لعصر النهضة. فجاءت إنجلترا فى أوائل القرن السادس عشر وهى دولة قليلة الشأن فى الحياة الأوربية، لا ثقل لها فى ميزان السياسة الدولية، ومنيت ببعض الهزائم فى «اسكتلنده» — ولم تكن تلك المقاطعة قد ضمت إليها — وعلى أرض القارة الأوربية أمام جيوش فرنسا والامبراطورية النمساوية الألمانية؛ وكانت مواردها محدودة. ولا تزال فى الغالب مملكة «زراعية» تعيش على ماتنبته الأرض، وعلى ماتحصل عليه من أصواف من القطعان السائمة فى مراعيها. ولم يكن لها أسطول بعد — لا حربى ولا تجارى — إذ كانت مراكز المال والاقتصاد فى الأراضى المنخفضة أو إيطاليا أو فرنسا. وليس بها إلا الصناعات البدائية اليدوية وكثير من الأيدى العاملة بها من المستوردين من هولندة أو ألمانيا ومن المضطهدين المهاجرين من القارة بسبب معتقداتهم الدينية: كما كانت متخلفة عن الدول الأوربية فى الجنوب، من حيث التيقظ للوعى الجديد الذى صار يتمثل فكرياً فى حركة «الإحياء» لتراث الإغريق

والرومان » ، وروحيا فى حركة « الإصلاح الدينى » : إذ أن كلا من الحركتين كان ناشئا فى أوربا نفسها : ولم تكن « إنجلترا » إلا تلميذة أخذت — بعد وقت متأخر — تتلقى نتائج العلوم التى كانت تتقدم باطراد فى أوربا . ولم يكن عدد سكانها إذ ذاك يزيد على مليونين ونصف إلا قليلا .

* * *

هذه الدولة التى كانت ، منذ أربعة قرون ونصف فقط ، فى هذه الحالة ، التى صورناها بإجمال : ضعيفة ، متأخرة ، شبه منعزلة ، فقيرة تخشى من أعدائها ولا يخاف أعداؤها منها ؛ وكان العالم الإسلامى قد مضى عليه إلى ذاك الوقت منذ بعثة النبى محمد عليه الصلاة والسلام — رسول الإسلام ومؤسس دولته — قد مضى عليه مايقرب من ألف عام ومازال متمتعا بقوته معتزا بجاهه ، غنيا بموارده ، محتفظا ليس فقط «باستقلاله» ولكن بسيادته وسطوته — هذه الدولة كيف تأتى لها إذن — كما وضعنا السؤال فى أول البحث — أن تتغير مكانتها ويصير لها هذا النفوذ فى أنحاء العالم الإسلامى ، بل يصل الأمر بها فى بعض الحالات أن تكون هى المتحكمة فى مصير بعض شعوبه المملية عليه سياسته ، المعينة له اتجاهه ؟ ماالذى حدث ؟ماالذى غير الجدود وبدل الأوضاع ؟ ما الذى قلب ميزان العالم ؟

كل هذه الأسئلة لابد لها من جواب . وسنحاول أن نجيب عنها فى الفصل التالى .

— ٢ —

منذ عصر النهضة

تتبعنا فى الفصل السابق تاريخ « إنجلترا » إلى مطالع القرن السادس عشر : وذكرنا أنها إلى ذلك العهد كانت لا تزال دولة صغيرة، محدودة الموارد، تعتمد فى شئون كثيرة على أوربا . وإلى ذلك نضيف الآن أنها لم تكن تملك خارج المياه المحيطة بها ، غير ثغر صغير هو ثغر « كاليه » فى شمال فرنسا ، الذى كانت ستفقده أيضاً بعد وقت غير طويل .

* * *

غير أنه فى خلال القرن المذكور حدثت تغيرات كثيرة فى حياة أوربا والعالم ، ثم فى حياة إنجلترا . فقد أخذت تظهر آثار حركتى « الإحياء » ، و « الإصلاح الدينى » . والأولى هى اهتمام الأوربيين بدراسة كتب الإغريق والرومان : والأخرى هى المطالبة بأن يكون للفرد حق قراءة الكتب المقدسة ، والحد من سلطان الكنيسة التى كانت تحجر على حرية الفكر والضمير . وهاتان الحركتان إذا كانتا قد بدأتا حقاً عهداً جديداً فى حياة أوربا ، فهما فى الواقع — وكما يظهر عند المقارنة — لم تفعلا إلا أنهما قربتا أوربا فى هاتين الناحيتين من مبادىء الإسلام . فالمسلمون قد قرأوا آثار القدماء ودرسوا

كتب اليونان منذ حركة النهضة والترجمة فى العصر العباسى ، بل لم تعرف أوربا « أرسطو » إلا عن طريقهم : والإسلام قد حرر عقل الفرد وضميره من سلطان الهيئات المستغلة ، واعترف له بحق الاجتهاد : بل قرر أن الإيمان لا يصلح إلا على أساسه .

ولكن كان من نتائج هاتين الحركتين أن تكون فى أوربا « الوعى الجديد » الذى أخذ منذ ذلك الوقت ينمو ويزداد ، وكان الأساس لكل ماتلاه من حركات النهوض والتقدم . وانضمت إليه فى ذات الوقت عوامل أخرى كانت — من الوجهة العملية — أكثر أهمية : وكانت هى ذات الأثر المباشر فى تحول أوربا من عصور التفكك والضعف والفقر إلى العصر الحديث ، الذى أخذت تمتلك فيه أسباب القوة وتحرز وسائل الغنى،وتستأثر بالجاه والسلطان .

وفى مقدمة تلك العوامل أولا نشاط حركة الكشف الجغرافى ، والتوفيق إلى العثور على « العالم الجديد » أو القارة الأمريكية . بما تحتوى من موارد غنية لا حصر لها وأراض شاسعة:وارتياد البحار والمحيطات . ومعرفة صلات القارات بعضها ببعض : واكتشاف الطريق من أوربا إلى الهند ، فالشرق الأقصى — عن طريق رأس الرجاء الصالح . وعامل ثان : هو تكوين دول إقليمية قوية منظمة تنظيما حديثاً ، تعتبر أن قوتها تستمد من قوة الشعوب:وتعمل دائبة عن وعى . ووفقاً لمناهج مدروسة نظامية ، لرفع شأن هذه الشعوب ،

وتوفير كل أسباب القوة والرخاء لها — وإن كان توزيع الثروة في الدور الأول لم يكن متساويا بين الطبقات — فوجود هذه الحكومات المنظمة ذات المبادىء، والتي جندت نفسها لخدمة مصالح أقوامها، والعثور على هذه الكنوز المطمورة التي كانت مجهولة، في العالم الجديد وفي جميع أنحاء العالم، مع الوعي العقلي الذي نشأ نتيجة للتحرر من أوهام الكنيسة، ثم ماسيتحقق من التقدم العلمي والصناعي الذي سنتحدث عنه بعد قليل — كل هذا دعا إلى التنافس بين تلك الدول، وأدى إلى ازدياد النشاط الاقتصادي والعمراني؛ وبالجملة هو الذي أوجد « أوربا الحديثة ».

* * *

انتفعت إنجلترا بنتائج كل هذه الحركات، وما لبثت أن اشتركت — بعد قليل — في هذا النشاط؛ وإن كان لم يكن لها فضل كبير في إيجاد الأسباب التي أدت إليها. ووجهتها هذه الوجهة أسرة « التيودور » المالكة التي كانت تحكمها في خلال القرن المذكور « السادس عشر »: وكانت حريصة كل الحرص على خدمة مصالحها والنهوض بها كدولة قوية. فأورثها « هنري السابع » حكومة مستقرة غنية، وبنى لها « هنري الثامن » أول أسطول لها — وسيكون الأسطول أقوى سلاح في يدها في القرون التالية — وشجعت الملكة « اليصابات » حركات المغامرين والقراصنة؛ وكان هدفهم الاعتداء على سفن الدول

الأخرى التي سبقتهم إلى الاكتشاف والاستعمار، كأسبانيا وهولندة والبرتغال. ثم تأسست شركة «الشرق» للتجارة، وفي أواخر عهدها في عام ١٦٠٠ تأسست «شركة الهند الشرقية» التي سيكون لها تاريخ حافل، والتي كانت طليعة استعمار القارة الهندية بأكملها.

في العالم الإسلامي:

ولكن العالم الاسلامي كان إلى ذلك العهد لاتزال تمثله دول، بل امبراطوريات ظاهرة القوة: فالدولة العثمانية في الشرقين الأدنى والأوسط: والدولة الفارسية الصفوية في إيران، والامبراطورية المغولية في الهند. ويقول المؤرخون الأوربيون أنفسهم إن اسم السلطان «سليمان القانوني» كان أضخم اسم في أوربا في القرن السادس عشر. وكان الجيش العثماني الإسلامي أقوى جيش في القارة كلها بل في العالم! كان قوة رهيبة تنظر إليه أوربا وجلة مذعورة: إذ كان دوى انتصاراته المتتالية — ولا سيما منذ اقتحم «محمد الفاتح» القسطنطينية وفتحها، وقضى بذلك على الامبراطورية البيزنطية — لايزال يرن في آذانها. وقد وقف الجيش أيضاً في عهد السلطان سليمان (عام ١٥٢٩) على أسوار «فينا»، وهدد بفتحها: وارتجت أوربا كلها لذلك الحادث، واسرعت إلى نجدتها — مع الشتاء —

خوف أن تلحق بأختها « القسطنطينية » .

ومما سجله التاريخ أن « فرانسوا الأول » ملك فرنسا التمس من السلطان العثمانى أن يمنحه بعض « ضمانات » تحمى أفراد رعيته من التجار — الذين كانوا لا يستطيعون عبور حدود الدولة العلية — وهذه الضمانات هى التى تطورت فيما بعد ، إذ تغيرت الأحوال ، إلى أن صارت « امتيازات » . وكتبت الملكة « اليصابات » إلى السلطان فى عهدها عدة رسائل تتقرب إليه : ومما ادعته أنها قالت إن دين دولتها « أى البروتستنتى » أقرب إلى الإسلام من الدين « الكاثوليكى » الذى تتبعه فرنسا منافستها فى التجارة ! وكان للدولة العثمانية أيضاً أسطول قوى فى البحر الأبيض المتوسط أرهب أوربا وقتاً طويلا : كما أن سلطانها امتد فى أنحاء ولايات البلقان حتى شمل الجنوب الشرقى من أوربا كله . وكانت الدولتان الفارسية والهندية قويتين أيضاً فى حدودهما ومحيطيهما ؛ تمتلكان موارد كثيرة ، ولهما جيوش منظمة وأساطيل . والأخيرة منهما تحكم قارة الهند المترامية الأطراف ، مع أن عدد سكانها من الهندوكيين وغيرهم يزيد على أربعة أضعاف عدد السكان من المسلمين .

كل هذا فى وقت لا يعتبر بعيداً فى نظر التاريخ : أى فى خلال القرن السادس عشر . والقرن المذكور فى اعتبار المؤرخين — هو

القرن الأول من العصر الحديث . فالعالم الاسلامى فى مطلع العصر الحديث كان لا يزال عملاقا هائلا ، مخوف القوة ، تمتد المساحة المطوية بين ذراعيه من شمال البلقان ومن المحيط الأطلسى ، إلى جبال التبت وسهوب آسيا : بل أبعد من ذلك . ويتمثل فى تلك الامبراطوريات الثلاث : وتبدو الدول الأوربية إلى جانبه وحدات صغيرة لم تتيقظ إلا منذ عهد قريب . وهى حديثة النعمة : تفكر فى مرضاته والتقرب إليه : ولا تستطيع عبور حدوده إلا بإذن . وإذن صادر عن تعطف وتنازل !

فى القرن الثامن عشر :

وقد بقى هذا العالم محتفظاً بمركزه ونفوذه طوال القرن السابع عشر أيضاً : وحتى منتصف القرن التالى : وهو الثامن عشر . فإلى ذاك الوقت ، أى منذ قرنين فقط من الزمان . وهى فترة قصيرة فى نظر التاريخ لا تزيد على أعمار بضعة أجيال . كان التوازن لا يزال محفوظاً بين الشرق والغرب : بل كانت كفة الشرق لا تزال تتذبذب نحو الرجحان . إذ كانت الامبراطورية العثمانية ما فتئت قادرة على أن تناضل روسيا — روسيا الحديثة — التى نظمها بطرس الأكبر — وتنزل بها هزائم فادحة . كما حدث حين أجبرتها على عقد معاهدة « بلغراد » عام ١٧٣٩ : وكانت شروط المعاهدة فى صالح

الدولة العلية . وظلت تركيا تحكم ولايات البلقان ، حتى بعد هذا العهد بوقت طويل .

* * *

ولكن منذ ذلك الوقت حدث تطور بالغ الأثر . فأخذ ميزان القوى يتأرجح : ثم مالت كفة القوة والغلبة نحو الغرب . وأخذت المسافة بين العالمين تتسع ، وصار الغرب يزداد قوة ودول الشرق تزداد ضعفاً وانحلالا ! .

كان النصف الثانى من القرن الثامن عشر هو بدء التحول أو نقطة الافتراق . وكان لابد من حدوث ذلك ؛ كان لابد أن يمر الشرق بأوقات عصيبة . ولا بد أن يجتاز محنة : محنة قاسية عنيفة، تتقاضاه جهوده ودماءه ، وترهقه بالآلام الممضة ، وتملأ فصول حياته بالمآسى ! !

فإنه إذا كان الشرق الإسلامى قد بقى إلى ذلك الوقت وهو متماسك الأجزاء ، محتفظ بمظهر قوته ؛ فإنما قد بقى بقوة الدفع فقط ، هذه القوة التى ظلت تدفعه أكثر من ألف عام ، وكانت تتجدد ما بين حين وآخر بآثار قوى إصلاحية تظهر عن عهد إلى عهد . ولكن فى خلال هذه القرون الأخيرة من حكم الدولة العثمانية — وكذلك الدولة المماثلة لها فى الهند — كان الشرق قد فقد عوامل القوة والحيوية ، وأصبح جسما أو هيكلا ضخما بدون روح . وذلك لأن روحه كانت هى الإسلام ؛ وهو قد أخذ منذ وقت طويل يبتعد عن

روح الإسلام ويخالف مبادئه؛ بل إن حياته الاجتماعية ونظم الحكم فيه ، والقوانين والسياسات التى تنفذها حكوماته ، كانت تحدياً سافراً للإسلام نفسه .

فالحكم قائم على القوة والاغتصاب ، لا على الشورى . ووسائله الاستبداد والعسف ، لا الحرية والاختيار . وغاية الحكم إسعاد طبقة معينة لا تحقيق مصالح الأمة . وطرق الحكم الرشوة والفساد واستغلال النفوذ ، لا العدالة ولا المساواة . والأرض إقطاع : وانقسمت الأمة إلى طبقات . والولايات والمناصب تباع وتشرى بطريق المزاد . والجيوش أصبحت مأجورة مرتزقة ، لا يحرك حماسها وطنية ولا دين . والأمة مهملة لا يفكر أحد فى توفير وسائل المعيشة لها ، ولا ينظر إليها إلا على أنها السائمة الحلوب التى تدر الخير لسادتها ، إلى أن جاء وقت نضب فيه المعين وجف الضرع ، من شدة الظلم والطغيان والاستغلال . ووقف العلم عند حد لا يعدوه منذ قرون ؛ حتى صار ألفاظا وقشوراً . وبالجملة تحول الاسلام إلى مجرد عقائد فردية ، بعد أن كان نظاماً للمجتمع وأساساً للدولة ، ودستوراً للتشريع ، وحافزاً إلى الرقى والازدياد من المعرفة ، ورافعاً للقوة المعنوية فى الفرد والجماعة لبلوغ غايات القوة والمجد .

فهكذا تقوض أساس الحياة الاجتماعية فى ظل هذه الدول الجوفاء : فى ظل الحكم التركى الإقطاعى ، سواء فى آسيا الصغرى

أو الهند . وفقد الشرق رسالته ، وساد جبانه الركود ، وغفل عن سنن الله فى خلقه . وإذ أصبحت فيه حكومات بلا شعوب صار من السهل أن تقع هذه الحكومات ، واحدة بعد الأخرى ، فريسة لأول طامع أوربى ينقض عليها ، يريد استغلالها أو التهامها !

ومن هنا وجدت الظروف المناسبة للاستعمار ؛ وبدأ عهد الاستعمار الذى لانزال نعانى آثاره إلى اليوم .

* * *

هذا ، بينما فى الغرب كانت أوربا ، ومعها إنجلترا ، قد أخذت تجنى ثمار تلك النهضة التى وصفناها آنفا ؛ وكانت تلك النهضة فى بدئها — كما ألمعنا إلى ذلك من قبل — قبسا من نهضة البلاد الإسلامية إبان عصورها الزاهرة، كذلك اهتدت الأمم الأوربية ، بالتجارب وبالعقل والعلم، إلى بعض مبادئ الفطرة السليمة التى دعا إليها الإسلام فتكونت لها إذن عوامل القوة . فوجدت فيها الدول المنظمة التى تعمل لتحقيق مصالح الشعوب — وإن كانت فكرتها ظلت قومية لا عالمية أو إنسانية ، وكان تحيزها أيضا إلى طبقات معينة فى داخل القومية — وصار الحكم فيها فنا يقوم على خطط مرسومة :وبدأت الدعوة تنتشر وتقوى من أجل العدالة والمساواة — ولكن فى حدود الوطن الواحد — وأخذ التشريع الاجتماعى يهدف إلى حماية الحقوق وكفالة الكرامة الانسانية. واتجهت الجهود كلها إلى الإنتاج

والعمران والعمل على زيادة الثروة. وزخرت الحياة الأوربية بالنشاط في مختلف ميادين الصناعة والتجارة ، فضلا عن الزراعة .

* * *

الثورة الصناعية :

ثم توجت هذه الجهود كلها بحدوث ما عرف فى التاريخ باسم « الثورة الصناعية » .

وهذه « الثورة الصناعية » . التي بدأت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، هى التى ضمنت لأوربا التفـــوق : وهى التى كفلت لحركة الاستعمار النجاح . وهى التى قلبت ميزان القوى بين الغرب والشرق .

هذه الثورة الصناعية عبارة عن مجموعة الاختراعات التى اكتشفت منذ هذا الوقت ، وإلى نحو قرن بعد ذلك ، فى عالم الصناعة . ومنها اكتشاف القوة البخارية : وطرق استخدامها ، وتحسن صنع الآلات وازدياد تنوعها ، ومعرفة استغلال المناجم ، وتقدم الوسائل المستعملة فى صناعة النسيج والتعدين والسلاح والبناء وغيرها : ونشوء الصناعات الثقيلة . ونمو الإنتاج على نطاق كبير . وما أدى إليه ذلك من إيجاد وسائل جديدة للنقل وسرعة المواصلات باختراع القاطرات والسفن البخارية ، التى أخذت تربط الأقطار البعيدة بعضها ببعض ، ونحو ذلك .

ثم اكتشفت بعد ذلك القوة الكهربائية ثم غيرها ؛ ووجدت ثورة صناعية ثانية ، فثالثة .

كانت إنجلترا أسبق الدول إلى الانتفاع بنتائج تلك الثورة : وبدأت فيها الحركة الصناعية فازداد رخاؤها — بعد فترة انتقال واضطراب . وصارت إنجلترا أو بريطانيا فى أثناء القرن التاسع عشر أغنى الدول الأوربية وأقواها . ولذا فإنها تمكنت من أن تتفوق على الجميع فى الاستعمار ؛ ولا سيما أنها كانت منفردة بنفسها محصنة وراء البحار ، تعيش فى أمان واستقرار . بعيدة عن مشاكل القارة الأوربية وأخطارها ، إلا حيث تشترك فيها لتضرب دول القارة بعضها ببعض ، لتحفظ « التوازن » بينها ؛ وتجنى هى من وراء ذلك المغانم الكبرى .

* * *

بدء الاستعمار :

كانت «إنجلترا» قد ذهبت إلى «الهند» أولا للتجارة. فى إثر البرتغاليين والفرنسيين . ثم أخذت منذ منتصف القرن الثامن عشر تقلد فرنسا فى طرقها الاستعمارية ؛ وتمكنت بعد ذلك من التغلب عليها والقضاء على نفوذها ، وحلت محلها . وتحولت « شركة الهند الشرقية »

إلى جيش استعماري قوي يستخدم كل الوسائل،حتى ما يجافى مبادىء الأخلاق والعدالة ، لكي يستغل الشعوب الهندية . وجاءت نتائج الانقلاب الصناعي فسلحت الاستعمار بسلاح جديد بتار . أخذت بريطانيا العظمى تستعمله بلا هوادة ، وبدون شفقة أو رحمة .

بذا بدأ عهد استعمارها بحق : وأخذت تلك الدولة التي كانت فقيرة محصورة فى جزيرتها تملك امبراطورية شاسعة الأطراف ، كانت سبب رخائها وأساس قوتها .

وهنا فى القارة الهندية احتكت إنجلترا لأول مرة ببعض الشعوب الإسلامية ، فى إقليمى البنغال والبنجاب (اللذين سيكونان فى المستقبل: الباكستان الشرقية والغربية — على الترتيب) . وهكذا أخذت تتسلل إلى العالم الإسلامى من الباب الخلفى ؛ وتثبت أقدامها فى تلك النقط الضعيفة البعيدة . ثم تطورت علاقاتها بعد ذلك مع الهند ؛ وأخذت تفكر أيضاً فى علاقات جديدة مع بلاد الشرق الأوسط الواقعة على الطريق إلى الهند ، والتى كانت تؤلف الأجزاء الهامة للدولة العلية . وهى القلب النابض للعالم الإسلامى . ومن ثم بدأ الدور الخطير للاستعمار . وهو ما سنتحدث عنه فى الفصل التالى .

الاستعمار

في الهند :

استولت « إنجلترا » على البنجاب (الباكستان الغربية الآن) في عام ١٨٤٩ . وكان هذا ختام الدور الذى بدأ منذ حوالى منتصف القرن الثامن عشر ، لوضع يد إنجلترا على شبه القارة الهندية بأكملها . ثم بعد التغلب على الثورة التى اندلعت نيرانها في عام ١٨٥٨ — وكانت نوعاً من المقاومة الوطنية والدينية للاستعمار — قررت إنجلترا إلغاء « شركة الهند الشرقية » بعد أن أدت مهمتها، وضمت الهند إلى أملاكها. وفى عام ١٨٧٦ أعلن رئيس وزرائها « دزرائيلى » الهند امبراطورية، ونصب ملكة إنجلترا « امبراطورة » عليها .

كان استيلاء إنجلترا على الهند القاعدة أو الدعامة التى شيدت عليها إنجلترا صرح استعمارها . وقد تمكنت ، بفضل فرض سيطرتها على شبه القارة الغنية المترامية الأطراف ، واستغلالها لشعوبها المتفرقة وأمرائها الإقطاعيين — ولم تكن تجمعهم وحدة سياسية أو اجتماعية — تمكنت من أن تصبح دولة استعمارية قوية :

ووجدت فى بلاد الهند أسواقاً واسعة لتصريف منتجاتها: وتضخمت رءوس أموالها عن طريق التجارة مع الهند .

لذا كان من أول واجبات حكوماتها المتعاقبة المحافظة على هذا الكنز الذى تكاد موارده لا تفنى . وأصبح من القواعد الكبرى الأساسية للسياسة البريطانية أن تعمل دائماً على أن تظل طرق المواصلات إلى الهند مفتوحة آمنة .

* * *

فى الشرق الأوسط :

ثم تطور التفكير فى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر — وذلك نتيجة ضعف البلاد التى كانت تقع على هذا الطريق ، ونشاط حركة الاستعمار ، وتحقق نتائج التقدم الصناعى الذى جعل إنجلترا وغيرها من الدول الغربية تشعر بقوتها — تطور إلى ضرورة الاستيلاء على هذه البلاد نفسها .

* * *

وهذه البلاد — وهى التى عرفها الأوربيون باسم « الشرق الأوسط » والتى تجمع أهم الأقطار الإسلامية — كانت كلها تابعة للدولة العلية : أى العثمانية . ولما كانت هذه الدولة — فى الوقت الذى أخذت فيه الدول الأوربية تمتلك أسباب القوة ، الأسباب التى عددناها

سابقاً — قد وصلت هى إلى نهاية الضعف ، حتى صارت تدعى فى المجامع الدولية بـ « الرجل المريض » ! فقد جنت هذه التبعية على البلاد شر جناية ، وأصبحت ضعيفة مثلا للجمود والتأخر ، غير قادرة على الدفاع عن نفسها . وحينئذ لم تكن هناك أية عقبة — لولا أن كان هناك التنافس بين الدول الطامعة نفسها ، أو عدم ملاءمة الظروف الدولية أحياناً — أمام أية دولة مستعمرة تريد أن تنفذ إلى أى منها وتبسط عليها سلطانها . وإذن فقد جاء دورها ! ولم تكن إنجلترا — حينما تهيأت لها الأحوال — غافلة ولا وانية عن انتهاز هذه الفرصة .

وكما حدث فى الهند ، كانت فرنسا هى البادئة بالاستعمار أو محاولته فى الشرق الأوسط . ثم جاءت إنجلترا ، وقد دلتها خصيمتها على الطريق — بعد وقت قريب أو بعيد — تقفو إثر خطواتها : ثم تعمل على أن تزاحمها ، لتشاركها فيه أو تنحيها عنه .

الحملة الفرنسية :

فقد كانت « الحملة الفرنسية » — التى قام بها نابليون على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١) التجربة الأولى للاستعمار الغربى فى الشرق الأوسط .

وكان من نتائجها أنها نبهت إنجلترا إلى فوائد استعمار هذا الجزء من العالم ، وإلى خطورة موقعه من الناحية الحربية ؛ وبينت ضعف

الامبراطورية العثمانية ، الواهنة المفككة الأوصال ، التي كانت تدعي أنها حامية هذا الجزء . فبعد فشل هذه الحملة — لأسباب قومية ودولية ، من بينها هبة الروح المصرية الإسلامية الكامنة ، لمقاومة الاعتداء الأجنبي — على الرغم مما كانت تحمله من أثقال وما تعانيه من أدواء الحكم الاستبدادي الإقطاعي الغاشم — وذلك إلى جانب مساعدة الظروف الدولية — بعد هذا بدأ تاريخ طويل من التنافس الاستعماري بين الدولتين : إنجلترا وفرنسا : كان هدفه محاولة الاستيلاء على أملاك الدولة العثمانية ؛ فإن لم يمكن فبسط النفوذ على الأقل . ومجموع أدوار هذا النزاع هو الذي يكون تاريخ الشرق الأوسط في خلال القرن التاسع عشر . ويعرف — إذا ضمت إليه أيضاً علاقات الدولة العلية مع روسيا والبلقان فوق علاقاتها بهاتين الدولتين — يعرف باسم « المسألة الشرقية » .

* * *

كسبت فرنسا الجولة الأولى ؛ إذ نجحت في أن ضمت « محمد علي » إلى صفها ، وجعلت منه أداة لتنفيذ أغراضها الاستعمارية أو التمهيد لها لتكون وريثته بعد موته . وقد كان نفوذها هو السائد في مصر : وكان رجالها هم مستشاريه : وعملت على أن يكون لها التأثير الأقوى في الحياة المصرية وفي الشرق . فأذن لها الوالي بأن ترسل بعثاتها التبشيرية : فوفدت هذه البعثات إلى مصر ثم إلى سوريا . وهي - أي

فرنسا — هى التى أوحت له بالنزاع بينه وبين سلطان الآستانة لينشغل هذا عنها : إذ أنها كانت قد هاجمت « الجزائر » سنة ١٨٣٠ ، واستطاعت أن تضع قدمها فيها — وكانت هذه محاولتها الثانية لاستعمار الشرق الأوسط — وأيضاً لتجنى الفوائد من الحرب التى تنشب فى داخل البلاد الإسلامية فى الشرق . وكان آخر ما كسبته ما استطاع « ديلسبس » أن يحققه من مشروع فتح « قناة السويس » ، فى عهد الوالى « سعيد باشا » ، الذى منحه كل ما طلب وفوق ما تمنى ، من أراضى مصر وأموالها وعمالها ، دون مقابل .

ولكن إنجلترا تدخلت — أولا — لتفسد على فرنسا أغراضها وذلك فى نهاية حرب « محمد على » ، فأشرفت على عقد « معاهدة لندن » سنة ١٨٤٠ ، وأملت هى شروطها ، وكانت هذه الشروط ضد فرنسا ومصالحها . ثم عادت إلى التدخل — ثانية — بعد أن تم فتح « قناة السويس » سنة ١٨٦٩ . وكان هذا التدخل هو أخطر الأعمال التى أقدم عليها الاستعمار : فترتبت عليه شر النتائج ، وجاءت فى إثره الكوارث لمصر والشرق . سعت إنجلترا أولا لشراء أسهم قناة السويس : فتم لها ذلك فى تلك الصفقة المشهورة التى عقدها معها الوالى « إسماعيل باشا » ، والتى يثنى الإنجليز بسببها على وزيرهم اليهودى « دزرائيلى » لبراعته فى عقدها . ثم أخذت إنجلترا تتدخل ، كدائنة فى شئون مصر الداخلية ، حتى تمكنت أن تعين وزيرا للمالية أحد

رجالها ؛ ثم استطاعت فى أوائل عهد توفيق أن تستولى على القصر ؛ ويكون « قنصلها » هو المستشار الأول للخديوى . وظلت ترتقب الفرصة حتى تتمكن من أن تضرب ضربتها الأخيرة ، بأن تحتل « مصر » !

* * *

ذروة الاستعمار :

وجاء احتلال مصر فى عام ١٨٨٢ ؛ فكان أكبر كارثة مني بها الشرق والعالم الإسلامى ! وكان مما مهد له خيانة الشراكسة والأتراك الذين كانوا لايزالون يسيطرون على الجيش ولا يزالون فى الحكم ؛ واتفاق سلطان « الدولة العلية » و والى مصر مع إنجلترا ضد حركة الجيش ، التى كان يتزعمها « أحمد عرابى » ومن معه من زعماء مصر الوطنيين . وما هذه إلا مأساة متعددة الفصول يطول شر[illegible] .
وكانت فرنسا فى العام السابق ١٨٨١ قد سارعت فاحتلت [illegible] إلى جانب « الجزائر » التى كانت احتلتها من قبل . ومن ذلك الو[illegible] [illegible]باب العدوان على سائر بلاد الشرق: فامتدت أنظار إنجلترا إلى جنوب مصر ، وطمعت فى الاستيلاء على السودان . وبعد أن قاومتها القوة الوطنية هناك بزعامة المهدى ثم خلفائه ، تمكنت من ذلك بمعونة جنود مصر (١٨٨٣ — ١٨٩٨) . وتطلعت ألمانيا أيضا إلى الشرق ،

وأخذت تتنازع مع فرنسا على « مراكش » : فحدثت أزمة دولية عام ١٩٠٦ . وكانت إنجلترا قد عقدت قبل ذلك بعامين ١٩٠٤ الاتفاق الودى مع فرنسا ، على أن تطلق يد إنجلترا فى مصر وتؤيد إنجلترا فرنسا فى احتلالها لمراكش . فبتأييد إنجلترا وغيرها من الدول ، دخلت فرنسا « مراكش » وفرضت عليها حمايتها سنة ١٩١٢ . وكانت إيطاليا فى العام السابق ١٩١١ قد وثبت على طرابلس لتحتل ليبيا. وثارت ولايات البلقان فى عام ١٩١٢ فانتزعت من الدولة التركية نفسها كل ما كان لها فى بلادها . ثم بعد الحرب العالمية الأولى وضعت إنجلترا يدها على العراق وفلسطين . وخلقت إمارة شرق « الأردن » تابعة لها . وكانت قد أعلنت حمايتها على مصر من قبل . واستأثرت فرنسا بسوريا ولبنان . بل احتلت هذه الدول « الأستانة » نفسها : وشجعت اليونان على غزو الأناضول فى آسيا الصغرى ؛ وكاد يقضى على تركيا نهائيا لولا أن قامت قومة رجل واحد فدافعت عن حياتها بقيادة مصطفى كمال .

* * *

كانت هذه هى الذروة التى وصل إليها الاستعمار . وهذه هى قصة المحنة التى ابتلى بها العالم الإسلامى ، منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

وكان المسئول عن هذه المحنة القاسية التى كلفته ثمناً غالياً ، واقتضته كثيراً من جهوده ودمائه : بل كادت تودى به — هم القادة الخونة ،

والحكام المستبدون ، والباشوات الإقطاعيون ، والسلاطين المستهترون ، والجنود المأجورون ، والنظام الفاسد نفسه الذى كانت تتمثل فيه كل هذه المعائب ، والذى لم يكن متفقا مع روح العصر ، والذى نشأ عنه فشو الجهل، وإهمال المرافق ،وتسيير أمور الحكومة بالرشوة — إلى غير ذلك من المفاسد :

المقاومة والاصلاح :

وقد قامت حركات إصلاح كثيرة متعاقبة فى أنحاء الشرق ، لمقاومة هذا الضعف ، وتخفيف بعض شروره .

فنبتت الحركة الوهابية فى بلاد العرب ؛ ثم الحركة السنوسية فى ليبيا : فثورة المهدى فى السودان . وظهر المصلح العظيم « جمال الدين الأفغانى » وتلميذه الروحى وصديقه « الإمام محمد عبده » ،داعيين إلى إحياء الروح الإسلامية لإنقاذ الشرق .

وقام « أحمد عرابى » البطل المصرى بثورة مع الجيش ليقاوم استبداد الحكام الأتراك والشراكسة ، ومؤامرة أعداء البلاد عليها . وفى أوائل القرن العشرين ظهرت حركة « مصطفى كامل » ودعوته الوطنية الخالصة القوية فى مصر .

وفى تركيا نفسها تكونت جمعية « تركيا الفتاة » وزعيمها « أحمد مدحت باشا — المجاهد الدستورى الكبير — لنضع حدا لاستبداد

السلاطين الطغاة وحاشياتهم الآثمة ؛ ومازالت هذه الجمعية حتى أثمرت « جمعية الاتحاد والترقى » التى ثلث عرش « عبد الحميد » وأنزلته من عليائه ، وخلقت من تركيا دولة جديدة .

* * *

فكل هذه الحركات والثورات تدل على أن العالم الإسلامى — على الرغم من المحنة العنيفة القاسية التى امتحن بها — بقيت روحه حية ، وكان فيه منبع للقوة الكامنة. وذلك لأن الشعوب المظلومة المضطهدة المحرومة فيه — على خلاف حكامها — ظلت مستمسكة بمبادىء دينها ، محتفظة بروح الإسلام ، متطلعة إلى المثل العليا التى يدعو إليها؛ تتشوق إليها فى حرقة ولهفة ؛ وتشجع كل مصلح . وهى تنتظر اليوم الذى تستطيع فيه أن تتحرك وتفرض إرادتها ، وتعمل على أن تحقق هذه المثل ؛ وتلقى زمامها لمن يؤمن بها ويسعى إلى أن يجعل هذه المثل دستور الحياة .

وقد ظهرت نتائج هذه الجهود جلية واضحة بعد الحرب العالمية الأولى ؛ ثم الحرب العالمية الثانية . فأخذت كل دولة تسعى إلى نيل استقلالها ، وطرد العدو المغتصب من أراضيها . ثم قام رجال فى كل منها بنهضات إصلاحية ، فى نواحى التعليم والاقتصاد والتعمير .

كل هذا أشار إلى حقائق لم يعد يشك فيها أحد : وهى أن عهد الاستعمار قد بدأ فى الزوال؛ وأن التقدم المادى والصناعى الذى مكن

لدول الغرب من العدوان لم يعد مقصوراً على تلك البلاد : وأن أقطار العالم الإسلامى خطت وتخطو خطوات واسعة فى سبيل التقدم .

* * *

الحاضر والمستقبل :

فلا شك أن الشرق الأوسط ، والعالم الإسلامى بصفة عامة . بدأ — نتيجة للعوامل السابقة ، ونتيجة أيضاً للقوة الكامنة فيه — بدأ يدخل فى دور جديد . وكلما انتشر فيه التعليم وفقاً للمناهج الصحيحة . وكلما ازداد نشاطه فى ميادين العمران ونما إنتاجه ، وكلما طبقت فيه خطط الإصلاح ، وسعى نحو تحقيق المثل العليا — كلما قوى الأمل فى وصوله إلى الأهداف التى ينشدها : أهداف الاستقلال والحرية والاتحاد والتقدم . وبذلك تعلو مكانته ويقوى نفوذه فى المجتمع الدولى . وهذا يحتم على الدول الغربية التى جعلت أساس علاقاتها مع الشرق الاستعمار — يحتم عليها أن تبدأ فى وضع أسس جديدة للعلاقات : فتكون علاقاتها مع الشرق العربى والإسلامى علاقة المبادلة الاقتصادية فقط دون استغلال أو إجبار بالقوة : وعلاقة التفاهم السياسى مع صون الكرامة وعلى قدم المساواة : وعلاقة الود فى حدود المبادىء الإنسانية . وهذا يجب أن تعيه أيضاً الدول التى بدأت تفكر فى الاستعمار بدورها — فى أية صورة — أو فى الحلول محل الدول الاستعمارية السابقة .

وإنه لمما يشاهد ، على كل حال ، أن الخطط — وربما المقاصد

الاستعمارية أيضاً — قد طرأ عليها تطور فى السنين القلائل الأخيرة؛ وأخذت إنجلترا، وما يماثلها من الدول، تغير فى أساليبها، وتضع أسساً لسياسات جديدة. كما أن «إنجلترا» لم تعد الدولة المستعمرة الأولى بل أخذت تخلى مكانها، شيئاً فشيئاً، لأمريكا: أو هذه تنافسها لأنها صارت هى الأقوى. وظهرت قوة ضخمة أيضاً تقابل هذه القوى وهى «روسيا»: التى طالما كان لها شأن — وأى شأن — فى «المسألة الشرقية» فى عهود القياصرة؛ والتى ازداد اهتمامهـــا فى الأعوام الأخيرة بمسائل الشرق الأوسط، والبلاد الإسلامية عامة.

فهذا إذن أيضا دور جديد للدول الأوروبية عامة، ودور جديد تدخله العلاقات بينها وبين العالم الإسلامى والعربى.

ويكفى المؤرخ الآن أن يسجل بدء هذا الدور: لأن التطورات التى ستظهر فيه لا تزال رهن المستقبل. وهاهى ذى الأحداث تترى والعالم لا يكاد يفرغ من مشكلة دولية حتى يعود لأخرى، بسبب مناورات السياسة وأغراضها فى الشرق الأوسط.

فالنتيجة التى تستخلص من كل ذلك هى أن تطوراً قد ظهر وتحقق فى كل من الجانبين الشرقى والغربى. وأن العالم العربى والإسلامى لا شك الآن فى دور نهضة؛ وقد قوى وعيه وازدادت ثقته بنفسه: وأنه يتطلع لآفاق بعيدة. وأن الدول الغربية قد أخذت أيضا تدرك ذلك وأخذت تفهم أنه غداً من المستحيل أن تعود إلى نفس الخطط القديمة

أو ترجع عقرب الزمن إلى الوراء .

فمن واجب هذه الدول الغربية إذن ، كلها — بل هذه هي مصلحتها الحقيقية — أن تعمل على أن تضع علاقات جديدة لها بالدول العربية والإسلامية ، بدلا من العلاقات السابقة . وإن هذه العلاقات — إذا أريد لها ان تكون باقية، وأن تكون ثمارها نافعة — لا بد أن تكون مبنية على التعاون ، والعدالة ، والاعتراف بالحقوق ، والاحترام المتبادل ، وعلى مشاعر الود والإخاء في نطاق المبادىء الإنسانية .

فهل للدول الأوربية أن تتطور مع العصر : وتتدارك الزمن قبل الفوات ؟ وهل لها أن تختار هذا الطريق — الذي هو الطريق الوحيد في نفس الوقت — لحفظ المصالح ولضمان السلام العالمي !؟.

أو

الحملة الفرنسية على مصر

كانت « الحملة الفرنسية » على مصر تصور على أنها بدء عهد نهضة لمصر ؛ وأنها إنما جاءت لتنشر المدنية والنور فى مصر والشرق . ففى ما يلى ننظر إليها نظرة جديدة ؛ ونصورها التصوير الحق ، كما يتفق مع حقائق التاريخ .

كانت « الحملة الفرنسية » أول تجربة للاستعمار الغربى فى بلاد الشرق العربى أو الأوسط ، فى العصر الحديث .

وقد وفدت إلى مصر وعلى رأسها « نابليون » القائد الحربى الشهير — بعد أن كتب لنفسه صفحات خالدة فى ميادين الحرب بإيطاليا ، حيث هزم هنالك جيوش الامبراطورية النمسوية ، وأذل كبرياء تلك الدولة العتيدة . وكان من قبل قد نجح فى القضاء على زعماء الثورة الفرنسية . فكان يرجو بقدومه إلى مصر — وهى فى جبهة العالم الإسلامى ، ومفتاح الطريق إلى الهند والشرقين الأوسط والأدنى — أن يكسب من الانتصارات الرائعة ما يضيفه إلى صحائف

مجده : وما يجعله يظهر فى نظر العالم كأنه يعيد سيرة «يوليوس قيصر» أو «الإسكندر الاكبر» ، أو غيرهما من الغزاة الفاتحين .

ولكن «نابليون» سرعان ما خاب ظنه : إذ وجد فى مصر عاملا لم يدخل له فى أى حساب : إذ قابل الروح الإسلامية الوطنية والأمة المصرية التى تمثل تلك الروح . فقد كان شعب مصر — على الرغم مما كان يعانيه من أرزاء الفقر ، وإهمال الدولة لشئونه فى جميع النواحى ، وتأخر مستواه الثقافى والاجتماعى — لا تزال روحه المعنوية عالية ، ولا يزال يعيش فى جو من الاستقلال : ويشعر بكرامته ويتذوق الحرية ويقدر قيمتها . وكان ذلك كله مستمداً من المثل الإسلامية التى كان يؤمن ويعتز بها ، ومبادىء الإسلام السامية التى يستمسك بها ، ويحاول جاهداً — بالرغم من الصعاب والعقاب — أن يحققها .

فكانت نتيجة ذلك أن حبطت أعمال نابليون ، وباءت حملته بالفشل . ولم يستطع هو أن يبقى فى مصر أكثر من عام ، أيقن بعده أنه إذا لبث بعد ذلك فسيكون هذا البلد — الذى علق عليه من قبل أكبر الآمال — سيكون قبراً له : فعاد سراً إلى فرنسا . ولم تستطع حملته أن تبقى بعده إلا بقاء مزعزعا ، تهاجمها ثورات الشعب من آن لآخر ، وهى أشبه بأن تكون محصورة . حتى أرغمت على الجلاء بعد عامين ؛ وعادت إلى مصر حريتها واستقلالها . وكانت العوامل الدولية قد

جاءت لمساعدة الشعب المصرى فى ثورته المجيدة .

* * *

ذلك أن « نابليون » — أو « بونابرته » الكبير ، كما كان يدعوه أفراد الشعب المصرى فى ذلك الوقت — وصل على رأس « حملته » إلى الشواطىء المصرية يوم أول يولية سنة ١٧٩٨ . فوقف أهالى الإسكندرية فى وجهه وقفة باسلة، ودافعوا عن استقلالهم — بالرغم من أنه لم تكن لديهم معدات للقتال — دفاع المستميت ! حتى إن « مينو » أحد ضباط نابليون كتب إليه فى خطابه ، يقول : « إن الأهالى دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم » ! لكن نابليون زعم عند وصوله أنه ما جاء إلا ليحارب المماليك ، وقال فى منشوره الذى وزعه غداة وصوله إلى الإسكندرية : « ... قولوا للمفترين : إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين... وإنى — أكثر من المماليك — أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم .. ! و « أن الفرنساوية هم أيضاً ... مسلمون مخلصون !!! » .. إلى آخر هذه المزاعم ، أو أكاذيب النفاق الجريئة !

ولكنه لم يمكث فى مصر إلا قليلا ، حتى تبين أنه جاء ليحارب المصريين أيضاً . وكانت كل أعماله تدل على ذلك .

كان من الأوامر الأولى التى أصدرها « أن كل قرية م تقو على

العساكر الفرنساوية تحرق بالنار ! » . وفى نفس الوقت ترك جنوده يعيثون فى الأرض فساداً ، ويعتدون على الأهالى الوادعين . وكان أول عمل له بعد حضوره إلى القاهرة هو تعيين « برطلمى » الرومى — الذى كانت العامة تدعوه تفكها ، أوتهكما : « فرط الرمان » — عينه نائباً لمحافظ القاهرة ، فكان هو الحاكم الفعلى لأنه معين من قبل السلطات الفرنسية ومحل ثقتهم . وكان هذا — كما وصفه «الجبرتى» — « من أسافل الأروام » : سيء الخلق مشهوراً بالقسوة والفجور : فكان تسليط هذا الأجنبي الوغد على أهل القاهرة من شر ما فعله « بونابرته » للتنكيل بالمصريين ، الذين أعلن أنه إنما جاء ليخلصهم من يد الظالمين .

و « برطلمى » هذا أول « حكمدار » للعاصمة يعينه الاستعمار من هذا الصنف الذى شهدت القاهرة من أضرابه كثيراً : وقاست من أعمالهم وأعمال تابعيهم ما ظلت تعانى آثاره إلى عهد قريب .

ولم يمض على نابليون فى القاهرة بضعة أيام ، حتى جمع الديوان وطلب منه فرض ضريبة أسماها « سلفة » على تجار العاصمة وأرباب الحرف بها ، مقدارها خمسمائة ألف ريال فقط . وكان قبل ذلك قد فرض على أهل الثغر غرامة حربية كبيرة ثم زادها إلى الضعف . ولم يكن هذا إلا القطر الذى يسبق انهمار الغيث: فبعد ذلك توالى طلب الضرائب والسلف وتعددت مقاديرها،واختلفت مناسباتها ، وفرضت

على أهل الريف كما فرضت على المدن . ولم ينج من ذلك حتى النساء : فقد أجبرت السيدة « نفيسة » المرادية — وكانت من شهيرات النساء فى ذلك العصر وذات مكانة رفيعة فى المجتمع — على أن تدفع ٤٠٠,٠٠٠ ريال ؛ وأرغم غيرها من النساء على أن يفتدين أنفسهن بمبالغ أخرى .

وكانت البيوت تهاجم وتفتش باستمرار ، بحجة البحث عن دفائن وخبايا أو إحراز أسلحة . وسلط الفرنسيون على الناس لهذا الغرض ولجمع الضرائب نصارى الشوام والأروام ، وبعض الصيارفة من القبط الذين رضوا أن يتعاونوا معهم ، تساعدهم الجنود المسلحة . فكانوا أول من أثار النعرة الدينية ، وغرس بذور الخلاف بين أبناء الوطن الواحد !

ثم لما أعيت الفرنسيين الحيلة فى جمع المال أنشأوا ما أسموه « محكمة القضايا » أو « التسجيل » ؛ فجعلوا عدد قضاتها أو أعضائها اثنى عشر . وكانت مهمة هذه المحكمة — ولم تكن فى الحقيقة أكثر من لجنة أو إدارة — أن تلزم الناس بتسجيل ممتلكاتهم ! وأن يقدم كل واحد الحجة التى تثبت ملكيته . فمن وجد الحجة وجب عليه أن يدفع رسوم القيد ، ثم رسوم التثبيت . ومن لم يجد — وكان هؤلاء أغلب الناس — أصبح للحكومة الحق فى أن تصادر أملاكه وتضع يدها عليها .

وقرر « نابليون » أيضا أن ينعقد فى يوم ٥ أكتوبر من ذلك العام ما أطلق عليه اسم « الديوان العام » . وهو مجلس استدعى إليه أعضاء من الأقاليم ، ولم يكن المراد منه أن يكون — كما قد يدعى من لم يفهم أغراض الحملة — نظاما « برلمانيا » أو شوريا . وإنما كان الغرض الحقيقى إعداد الرأى العام لفرض ضرائب جديدة ، وإيجاد أداة لتحصيلها . فبعد أن قرأ خطبة الافتتاح القاضى « ملطى القبطى » طلب انتخاب رئيس للديوان ، فتم انتخاب الشيخ « عبد الله الشرقاوى » بالأغلبية : ولكنها كانت رئاسة صورية . وظل المجلس — بتوجيه ممثلى السلطات — يتناقش فى مسائل تشريعية وقضائية ، وأخيرا أصدر قراره الخطير بفرض ضرائب عقارية على جميع الأملاك ؛ ثم قسمت الأملاك إلى مراتب : عليا ، ووسطى ، ودنيا . واتخذت الاجراءات : وعين المهندسون الذين سيقومون بمعاينة المنازل وربط الضرائب عليها ، وكاد يتم تحقيق كل ذلك — لو لا أن فوجىء الفرنسيون بقيام ثورة خطيرة .

* * *

أدت هذه المظالم كلها — مضافة إلى مظالم وأسباب أخرى سنشير إليها بعد قليل — إلى انفجار ثورة وطنية خطيرة بالقاهرة فى يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ — الموافق ١٠ من جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ — فكانت هذه الثورة إعلانا للسخط العام على الحكم

الأجنبي ، وتعبيراً عن الشعور القومى ، وإيذانا لنابليون بفشل سياسته وقرب نهايته .

وقد كان من بين الأسباب الأخرى الاستيلاء على الأوقاف ؛ وقطع الرواتب عن مستحقيها ؛ والاعتداء على الحرية الشخصية . وانتهاك حرمات المنازل ، وتجريد العاصمة من الأسلحة ، وتعريضها للهجوم باقتلاع أبواب الحارات والدروب ، واستبداد « برطلمى » الظالم .

كما كان فى مقدمة الأسباب سياسة القمع والإرهاب ؛ إذ أصدر نابليون تعليماته لرجاله فى الأقاليم بالتنكيل بالزعماء الوطنيين،وإخماد كل معارضة . وأمر هو فى القاهرة بإعدام السيد « محمد كريم » حاكم الإسكندرية السابق الذى دافع عنها دفاع الأبطال : حتى شهد له الفرنسيون أنفسهم بالشهامة والشجاعة : فلم تقبل فيه شفاعة ! ونفذ فيه حكم الإعدام فى يوم ٦ سبتمبر ؛ إذ صعدوا به إلى القلعة « وكتفوه وربطوه مشبوحاً » — كما يقول الجبرتى — « وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلونه ؛ثم قطعوا رأسه ، وطافوا به! » كما قتل كثير غيره .

على أن السبب الأول والأخير للثورة كان هو الأنفة من الرضا بحكم الغاصب ، والشعور بالكرامة الوطنية . وهذا الشعور موجود منذ قدوم الحملة إلى البلاد : ظهر فى هبة الإسكندرية للدفاع عن نفسها

دون أى تدبير سابق ، كما ظهر فى احتشاد أهل القاهرة عند ساحل « بولاق » للاشتراك فى المعركة ، التى كان متوقعا أن تحدث هناك ، كما ظهر فى المقاومة المستمرة التى كانت تواجه بها الحملة ، أنى رحلت أو أقامت . وإذا كانت موقعة « إمبابة » قد انتهت بين نابليون و « المماليك » : فإنه كان عليه أن يعد نفسه لخوض معارك عديدة تنشب بينه وبين الأهالى العزل من السلاح : فحدثت مواقع فى المنصورة والجمالية وفى رشيد وطنطا ودمنهور ، وفى قرى صغيرة كسنباط والشعراء ؛ وفى كل مدينة من مدن الوجه القبلى ! وكانت الاضطرابات تنتشر من مديرية إلى أخرى : وظهر زعماء المقاومة فى كل مكان . ولقد قال أحد كبار مهندسى الحملة : « بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فإنهم لم يستقر لهم قرار فى البلاد ؛ وكان مركزهم فيها مزعزعا ، ومحفوفا بالمتاعب ، ولم يترك الأهالى وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها . وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة » .

* * *

وكان هذا الشعور الوطنى نتيجة الروح الدينية القوية ، التى كانت من أظهر مميزات هذا العهد ، إذ أن المسلم ، ودينه يغرس فى نفسه معانى العزة والكرامة ، يأبى أن يذل لغير الله ، أو يخضع لحكم الأجنبى !

وقد نظر المصريون أول ما نظروا لقائد الحملة وجنوده على أنهم أبناء أولئك « الفرنسيس » ، الذين حاولوا أن يغزوا مصر أيام الحروب الصليبية ، فباءوا بالفشل ، وأدت إحدى حملاتهم إلى أسر مليكهم « لويس التاسع » وسجنه فى دار ابن لقمان ! ولم تتغير هذه النظرة فى جوهرها أثناء مقام الحملة ، بالرغم من اختلاف الأحوال فى مصر عما كانت فى ذلك العهد ، فظلوا يناوئون بكل الوسائل — وإن كانت ناقصة — حتى استطاعوا — مثل أسلافهم — أن يخرجوا الغاصب ،ولو بعد حين ، ويجلوه عن بلادهم .

وكانت ثورة القاهرة إحدى الثورات التى انبعثت عن كل هذه المشاعر ،كما كانت كل الثورات التى تلت بعد ذلك .

اسعرت نيرانها فى الأحياء الوطنية ، كالحسينية والجمالية والغورية ، وكان مركزها العام « الجامع الأزهر » — ندوة مصر النيابية الكبرى فى ذلك الوقت — الذى اتخذ الثوار منه معقلهم الحصين ، وسدوا كل الطرق الموصلة إليه بالمتاريس . وقد بدأت الحركة فى فجر ذلك اليوم بمظاهرة كبيرة توجهت إلى « بيت القاضى » لتعلن الاحتجاج على فرض الضرائب الجديدة وغير ذلك من المظالم ولم تنقلب إلى ثورة دموية إلا حينما حضرت القوات الفرنسية ، واعتدى « برطلمى » على الأهالى بإطلاق الرصاص . فهاجت الجموع

المحتشدة، ونشبت معركة عنيفة بينها وبين فرسان الفرنسيين، أسفرت عن قتل الجنرال « ديبوى » قومندان القاهرة .

ثم انتشرت الثورة فى جميع أنحاء العاصمة : وهاجم الأهلون معسكرات الفرنسيين وحاولوا الاستيلاء عليها . وقتل من الفريقين عدد كبير . كما قتل فى اليوم الثانى « الكولونيل سلكوسكى » ياور نابليون ، فى إحدى المعارك . وأوشك أن يفلت الزمام من يد القيادة الفرنسية ! فلم ينقذ الموقف إلا أن أمر نابليون بنقل المدافع تحت جنح الظلام : ونصبها على تلال المقطم المشرفة على مراكز الثورة ، فظلت تضرب بها ساعات متواصلة ، وأرادوا — بصفة خاصة — هدم الجامع الأزهر الذى كانت الجموع محتشدة فيه : ولكن الله أراد أن لا يمس بسوء . فبهذه الطريقة وحدها استطاعوا أن يسيطروا على الحالة ، وتحت حماية المدافع نفذت الجنود إلى الأحياء الوطنية التى عجزت عن اقتحامها من قبل : ودخلوا إلى الجامع الأزهر وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا فيه « وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع . ! » ثم لما هدأت الحال عمدوا إلى الانتقام من أهل القاهرة بدون تفريق ، وبصورة وحشية تدل على مبلغ ما وصل إليه هؤلاء الفاتحون من الحضارة والمدنية ، التى زعموا أنهم جاءوا لينقلوها إلى مصر !؟.

فقتل من أهل القاهرة — باعترافهم — ما يزيد على أربعة آلاف !! وقبضوا على كثيرين ، وأعدموهم سراً بالقلعة ، وبدون محاكمة . وبينهم عدد كبير من النساء ! وبحثوا عن زعماء الثورة ، فاتهموا خمسة من العلماء . وبعد أن حبسوهم أكثر من عشرة أيام وأجروا معهم محاكمة صورية ، حكموا عليهم بالإعدام : فنفذوا هذا الحكم فى يوم ٤ نوفمبر ١٧٩٨ . ويصف « الجبرتى » حادث استشهادهم فيقول : « وذهبوا بهم إلى بيت قائمقام بدرب الجماميز ... فلما وصلوا بهم هناك جردوهم من ثيابهم وصعدوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح ؛ فأخرجوهم وقتلوهم بالبنادق ؛ وألقوهم من السور خلف القلعة : وتغيب حالهم عن أكثر الناس أياماً » .

فهؤلاء هم شهداء الوطنية الأول ؛ وهذه هى أسماؤهم : الشيخ سليمان الجوسقى ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ إسماعيل البراوى . وكانوا جميعاً من شباب مدرسى الأزهر .

* * *

فهذه هى الثورة الوطنية الأولى التى دلت على حيوية المصريين ونزعتهم القوية إلى الاستقلال . واستعدادهم للتضحية بالأرواح والأموال . ولم يستطع الفرنسيون بعد ذلك أن يحكموهم إلا بالقلاع التى بنوها على التلال ، وسموها بأسماء قتلاهم فى هذه المعارك ، ولم يجسر

أى جندى أن يسير فى شوارع العاصمة إلا مسلحاً . وعرف نابليون أنه أمام شعب لا يقهر : وقد وطد العزم على مكافحته وإخراجه : ولكن بقى أن تساعده العوامل الدولية والظروف الخارجية .

فحين وجدت هذه العوامل تحقق الجلاء : وغادر آخر جندى فرنسى أرض مصر فى خلال شهر سبتمبر عام ١٨٠١ : أى بعد ثلاث سنوات — وما أقصرها — من قدوم « بونابرت » ؛ وظهر كأن الحملة لم تكن إلا سحابة صيف فى سماء مصر ، ثم تقشعت !

شعب يقرر مصيره :

أو

الثورة الدستورية بزعامة السيد عمر مكرم

ظفرت مصر بالجلاء : وغادر آخر جندى فرنسى أرض مصر فى خلال شهر سبتمبر من عام ١٨٠١ .

وكان المأمول أن مصر ، بعد أن كافحت هذا الكفاح المجيد فى سبيل كسب حريتها ، وبعد أن واجهت النار والحديد طوال ثلاث سنوات. واصلت فيها المقاومة ، ولم يهدأ لها بال أو يقر لها قرار ما دام هناك جنود من الأجانب يدنسون أرضها : فكانت تلك السنوات محنة قاسية كشفت عن حديد إرادتها، وصادق إيمانها، ومبادرتها إلى التضامن والوقوف صفاً واحداً لا ثغرة فيه فى أوقات الشدة والخطر : حتى انتهت المحنة بفوز مبين — كان المأمول ، بعد هذا كله ، أن مصر ستفتتح صفحة جديدة من حياتها ، وتهنأ بعهد جديد من الاستقرار : تنمحى فيه متاعبها ، وتنتظم أمورها . ويتحقق كثير من آمالها .

ولكن الدولة العثمانية — وكانت مصر مثل سائر البلاد العربية

لا تزال تعترف بالتبعية لتلك الدولة وتشترك معها فى نظمها السياسية والحربية باسم الخلافة — التى لم تعد إلا خلافة اسمية ، وهى أبعد ما تكون عن نظام الحكم الصالح الذى رسم معالمه الإسلام — كانت تلك الدولة جامدة لا تساير قوانين التطور .

وعلى الرغم من أنه ظهر عجزها عن الدفاع عن الأقطار المنضوية تحت لوائها ، كما تجلى ذلك إبان الحملة الفرنسية ، فإنه بمجرد أن تمكنت مصر من اجتياز تلك المحنة بفضل جهاد أبنائها ، ومعاونة العوامل الدولية — إذ كانت بعض الدول الأوربية قد وحدت جهودها لمناهضة سياسة فرنسا الاستعمارية فى عهد نابليون — بمجرد أن تحقق ذلك، إذا بهذه الدولة العتيقة تعود إلى استئناف سياستها القديمة التى طالما أن منها المصريون ، وبذلوا المحاولات تلو الأخرى للتخلص منها ، أو لتخفيف بعض شرورها : كأن الزمن لم يتقدم خطوة واحدة ، وكأن مصر لم تقاس من العذاب صنوفاً ، وتبذل من التضحيات ألواناً : وكأن لم يقع من الأحداث ما كان ينذر بأن العالم ينتقل من طور إلى طور !

كان أهل مصر ينتظرون أن تصغى الدوله لمشورتهم ، أو على الأقل أن تعين لهم والياً صالحاً ، أو تخفف عنهم عبء الضرائب ، أو تعمل على رفع المظالم المتعددة الأنواع التى كانت تثقل كاهلهم . وكان قد تكون فى البلاد وعى جديد بدأت تدل عليه آثاره منذ قيام على بك الكبير بمحاولة جريئة لإعلان استقلال البلاد عن

الأستانة ؛ ثم اشتد وقوى نتيجة لظلم ابراهيم ومراد بك ؛ ثم تحول إلى قوة وطنية يرهب بأسها فى عهد وجود الحملة الفرنسية . فكان هذا الوعى يتطلع إلى عهد جديد تغلب فيه إرادة البلاد ويعترف بقوميتها وتكون الرعاية الأولى فيه لمصالحها .

ما كان أبعد الفرق بين هذا الوعى وبين عقلية الحكام الذين كانوا يقررون مصائرها ، وهم مقيمون بالأستانة : ما بين باشوات وإقطاعيين وأغوات ، ورؤساء وجاقات ، وجند انكشاريين، وغيرهم. كانت الهوة سحيقة والمدى بعيداً .

* * *

ولقد ظلت مصر — خلال السنوات الأربع التى تلت جلاء الفرنسيين — مسرحا للصراع بين قوى مختلفة متضاربة : فهناك العثمانيون ، والجنود الانكشارية ، والجنود الأرناءود « الألبان » والمماليك ، والدسائس الاستعمارية ، ثم أضيف إليهم أخيرا جموع « الدلاة » أو الدالاتية » أى الأكراد؛ فكان هؤلاء الجنود يسرحون ويمرحون فى ربوع البلاد ، لا هم لهم إلا السلب والنهب ، والاستيلاء على أقوات الناس ، وفرض الضرائب والاعتداء على الحريات . فكانت الحال فوضى مطلقة ، وظهر الولاة ، ومن ورائهم الدولة ، عاجزين عن أن يفعلوا شيئا لتغيير الحال ، أو لم يكونوا فى الحقيقة يريدون أن يفعلوا شيئا .

عينت الدولة فى عام ١٨٠١ والياً على مصر : « محمد باشا خسرو » — وكان مملوكا سابقاً للقبطان حسين باشا — فمكث فى الولاية نحو عامين إلى عام ١٨٠٣ . وفى عهده تمثلت كل مساوىء الحكم العثمانى . وعاد إلى إرهاق الناس بالضرائب : وانتهى أمره بأن ثار عليه الجند من انكشارية وأرنؤود بقيادة « طاهر باشا » ، لتأخره فى دفع رواتبهم ، وأحرقوا قصره بالأزبكية ، واضطروه إلى الفرار . فتولى « طاهر باشا » الحكم ستة وعشرين يوماً ، اغتاله فى آخرها جنديان من الإنكشارية .

حينئذ خلفه فى زعامة «الأرنؤود» نائبه « محمد على » — وهو من جنسهم — وسعى « محمد على » إلى أن تحالف مع زعيمى المماليك : « إبراهيم بك » و « البرديسى » ، ليستعين بهما ضد قوة الإنكشارية التى كانت خطراً على جنده . وبعد أن حقق هذا التحالف أغراضه وأخرج الإنكشارية من البلاد، غدر محمد على بحليفيه وأرغمهما على الفرار . ولكنه لم يجرؤ على مناوءة الدولة العلية وإعلان عصيانه جهاراً ، لأن مثل هذه المحاولة كان لا بد أن تبوء بالفشل . فعينت الدولة حينئذ « أحمد خورشيد باشا » الذى حاكما للاسكندرية من قبل وعرف عنه الظلم والقسوة ، ولم يستطع محمد على إلا أن يقر له بالولاء ويخضع لأمره ، وكان تعيين هذا الوالى عام ١٨٠٤، وفى عهده تتابعت المظالم واضطربت الأمور .

هذه هي الحوادث الرئيسية التي انتهت بقيام تلك الثورة ، التي تحدى فيها الشعب سلطان الخلافة ، وأعلن الحرب على الوالى الذى عينته ، وأعلن عزمه على أنه يريد أن يقرر مصيره بنفسه . وكانت هناك قوة تدفع الشعب ، ناشئة عن ذلك الوعي الذى تحدثنا عنه — ولو أنها كانت قوة غامضة ولم تظهر أمامها الأهداف واضحة محدودة — قوة تدفعه إلى أن يبنى لنفسه مستقبلا جديداً ، ويضع الأسس لحياة جديدة تعود بها مصر دولة حديثة راقية ، وتبرز شخصيتها وتظهر إرادتها . وكانت الأسباب العامة التى أدت إلى الثورة هى تلك التى وصفناها : أى ما كانت تعانيه البلاد من حالة الفوضى ، وعدم الاستقرار ، وتمادى الدولة العلية فى تجاهل رغبتها وإهمال شئونها .

* * *

وقد لبثت مصر فترة بعد فوزها بجلاء الفرنسيين ، وكأنما كانت تستجم قواها وتجدد حيويتها ، فتركت تلك الجيوش الطارئة تتصارع فيما بينها ، ويوهن بعضها من قوة بعض ، حتى إذا حانت الساعة وبلغ الظلم مداه وثبت إلى الميدان لتضع حدا لهذا التصارع بين القوى ، وتشعرهم أنها القوة التى يجب أن تبقى وحدها ، وهى التى يجب أن تقرر مصير الوطن .

أما الأسباب المباشرة فكانت الكوارث التى حلت بالبلاد من جراء استخدام جند جديد ، أربى عددهم على ثلاثة آلاف ؛ هم جند

« الدالاتية » الذين جلبهم الوالى العثمانى الأخير « أحمد خورشيد باشا » وكان يريد أن يعيد بهم نفوذ العثمانيين ، ويقضى على قوة الأرنؤود وزعيمهم محمد على ، ويطيل أمد حكمه حتى يستولى على ما يشاء من الأموال والضرائب التى تمتد إليها مطامعه .

حضر هؤلاء الجنود وهم غير نظاميين : وأطلق لهم الوالى العنان ليجبوا الأموال التى وعدهم بها بأيديهم : فتفرقوا فى أنحاء العاصمة وغزوا بلدانا أخرى فى الأقاليم : وهم ينهبون ويخربون ، ويشاركون الناس فى مساكنهم وأقواتهم ، ولا يراعون حرمة : بل انتهى بهم الأمر إلى الاعتداء على الأعراض ! والناس يجأرون بالشكوى ويتقدمون إلى الوالى بطلب الضرب على أيديهم : ولكنه لا يصغى لطلبهم وكأنه يحرضهم على المضى فى عدوانهم : فبلغ السخط حينئذ بالشعب مداه وانفجرت الثورة !

بدأت الثورة فى يوم أول صفر من عام ١٢٢٠ هـ . (وهو الموافق أول مايو سنة ١٨٠٥) فى حى « مصر القديمة » ، إذ كان معسكر الجنود الدالاتية بها . وتوجهت الجموع إلى « الجامع الأزهر » — وكان قلب العاصمة النابض فى ذلك الوقت ، وبمثابة « برلمان الشعب » — فشكوا إلى العلماء ما يعانون ؛ وكان العلماء إذ ذاك زعماء الأمة — إذ كانوا يعبرون عن روحها ، ويتكلمون بلسانها ، ويتجاوبون مع شعورها : وكانوا أقوياء فى الحق معتصمين بالله ، لا يخافون فى الله

لومة لائم — لذلك كان الحكام والأمراء يهابونهم ، ويأتمرون بأمرهم . وكم لهم من أفضال على مصر فى عهود الظلم والظلام ؛ فطالما دافعوا عن الشعب ورفعوا عنه المظالم . وكان على رأس العلماء فى ذلك الوقت السيد عمر مكرم النقيب — العالم الثائر المجاهد — والشيخ محمد السادات الذى اضطهده الفرنسيون وقذفوا به فى السجن هو وأهله ، وكانوا يضربونه بالعصى فى السجن صباحا ومساء، والشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ محمد الأمير ، وغيرهم .

فانضم العلماء إلى الشعب ، وقادوا الثورة وأضربوا عن الدروس وكان ذلك إيذاناً بأن أغلق التجار حوانيتهم ، وأخذ الناس يستعدون لجمع الأسلحة . وانتشر الإضراب فى المدينة ، وبقيت الحال هكذا نحو اثنى عشر يوماً . وفى اليوم الأخير ذهب العلماء إلى « بيت القاضى » وازدحمت ردهاته وأفنيته بالناس، حتى قدر عدد الحاضرين فيه بنحو أربعين ألفاً ؛ وكان من بين الهتافات التى ينادون بها : « شرع الله بيننا وبين الباشا الظالم ! » ؛ « حسبنا الله ونعم الوكيل »! وأيضا : « يا رب يا متجلى أهلك العثملى !! » . وكان هذا الهتاف الأخير يبين روح الشعب ويدل على اتجاهه .

* * *

وحرر العلماء وثيقة تاريخية بمطالب الشعب ، أرسلوها إلى الوالى ذكروا فيها اعتداء طوائف العسكر على الحريات ، وإيذاءهم للناس ،

والمظالم والضرائب . ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة ، وغير ذلك. وطلبوا الجواب فى اليوم التالى. ورفضوا أن يذهبوا إليه حينما أرسل يترضاهم ، آملا أن يخدعهم . فلما لم يحضر الجواب فى الموعد الذى ضربوه ،اجتمعوا مرة أخرى فى «بيت القاضى »، وتداولوا فى الأمر. ثم قرروا خلعه ؛ وأن يولوا غيره بمحض اختيارهم ومشيئتهم ، وبإرادة الشعب الذى كانوا يمثلونه وينطقون باسمه .

كان اختيارهم قد وقع على «محمد على » ، زعيم قوة الأرنؤود : إذ أنه كان قد تقرب إليهم ، وظهر أمامهم بمظهر الرجل الذى يمكن أن يوثق به ، والذى يتعهد بأن يطيع أوامرهم ويعمل على تنفيذ رغباتهم ، ويتعاون معهم على تحقيق البرنامج الإصلاحى الذى كانوا يفكرون فيه ويتوقون إلى تحقيقه . وكانوا فى حاجة — على كل حال — لأن يعتمدوا على قوة حربية ، يستطيعوا أن يشهروها فى وجه القوى التابعة للوالى ، وتسندهم إذا اختارت الدولة أن تتحدى إرادتهم . فبدت قوة « الأرنؤود » — وعلى رأسها محمد على — كأنها القوة الصالحة الوحيدة التى يمكن أن يعقد معها الشعب تحالفا .

ولكن محمد على — كما كانت الأيام ستظهر فيما بعد — لم يكن أكثر من ممثل بارع ، قد أتقن دوره كل الإتقان : فكان يتفق معهم وهو ينوى إلا الغدر: وكان لا يقصد أن يتخذ من ثقة الشعب إلا أداة

توصله إلى نيل مطامعه وأغراضه الذاتية . على أن قادة الشعب لا يستحقون أن يوجه إليهم لوم ، على وضع ثقتهم هذه فيمن لم يكن أهلا لها : فهم ليسوا أول ولا آخر من خدع : والناس لا يطلعون على النيات والسرائر . ثم كانت هناك علة أخرى : وهى أن القوم فى ذلك الزمان كانوا يعتمدون على كلمة الشرف . وكانوا لا يزالون يقدرون قانون الشرف . إذ كانت الأخلاق الدينية لا تزال قاعدة المجتمع . ولكن محمد على أتى بفكرة جديدة وقانون لم تكن تعرفه الديار ، وهى فكرة الوصول إلى تحقيق المآرب الذاتية بطريق الغدر والختل : كان القانون الذى جاء به هو قانون أن الغاية تبرر الوسيلة : أى وسيلة كانت ولو كانت منافية للشرف . فكان أول من اتبع السياسة التى يسمونها « المكيافيلية » فى هذه البلاد . وهى السياسة التى لا تتقيد بقوانين الدين أو الأخلاق . وقد عين « الجبرتى » هذه الصفة ، بالذات ، على أنها أبرز صفاته . وضرب الأمثلة العديدة على غدره بكل من حالفه حتى أنه لم يتورع عن أن يخون « البرديسى » — بعد أن شرب كل منهما من دم الآخر ، دليلا على الأخوة الدائمة وضمانا للوفاء !

☆

أما ما حدث فى ذلك اليوم — وهو يوم تاريخى : أو يوم فاصل فى حياة البلاد — فإن العلماء ، وقد اجتمعوا به فى داره ليعقدوا معه

الحلف ويبايعوه ، قالوا له فيما قالوا : « إننا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ، ولا بد من عزله من الولاية . وإنا نرتضى أن تكون والياً علينا ، بشروطنا : لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ! — وكان كل من سمع أقواله وتصريحاته للعلماء يتوسم فيه ذلك أيضاً . ثم — كما يقول مؤرخ العصر — : « أحضروا له كركا وعليه قفطان : وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى ، فألبساه له . وذلك وقت العصر : ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة » !

فهكذا تمت الثورة الدستورية الأولى فى تاريخ مصر الحديث (عام ١٨٠٥) . إذ أن الشعب قد قرر خلع واليه الظالم — وهو « أحمد خورشيد باشا » ، المعين من قبل السلطان — دون أن ينتظر حتى يعرف مشيئة الدولة — وعين بدلا منه شخصاً آخر . هو « محمد على » ، الذى ظن فيه الخير حينذاك . وقد امتنع الوالى من تنفيذ القرار ، وقال : إنه لا يعزل بأمر الفلاحين : أى المصريين : وتحصن بالقلعة وانضم إليه جنده . لكن الشعب حاصره وقام بثورة مسلحة ضده . وقاد الثورة زعيمان من رجال الشعب ، هما « حجاج الخضرى » و« إسماعيل جوده » : وكانا يعملان تحت إمرة « السيد عمر مكرم » الذى ينبغى أن يعتبر بحق زعيم مصر الوطنى الأول . وما زال الحصار

مضروباً ، والشعب مستمراً فى جهاده ، حتى جاء خطاب من الآستانة يقر مافعله الشعب . ويبين سبب الإقرار بقوله : « حيث رضى بذلك العلماء والرعية » . فعندئذ لم يجد الوالى المخلوع بداً — بعد أن استمر فى إصراره وعناده شهراً آخر — لم يجد بدا من أن ينزل من قلعته ، ويغادر مصر !

وليس هناك ما هو أدل على الروح التى كانت تدفع تلك الثورة ، والتى وجهتها ، من إجابة السيد عمر مكرم لأحد زعماء الأرنؤود الذين كانوا معضدين للوالى . فقد اعترض هذا الرجل المؤيد للوالى ، قائلا :

« كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ؛ وقد قال الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ؟ .

فأجابه السيد عمر مكرم : « أولو الأمر هم : العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل . وهذا رجل ظالم . وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة .. حتى الخليفة والسلطان ، إذا سار فيهم بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه » !

وبمثل ذلك أجابه الشيخ السادات أيضاً .

فهكذا كان العلماء الذين يفهمون روح الإسلام ، والذين كانوا يعملون لإقامة شريعة الله العادلة فى الأرض .

ولقد نجحت الثورة : ووضعت آمالها فى «محمد على» — وإن كان هو لم يرع العهد ، ولم يحقق آمال الشعب فيه .

وعلى كل ، فاذا كانت مصر قد أفادت من عهده خيراً ، من أى وجه ، فإنما الفضل فى ذلك يرجع إلى الذين ولوه . وهم على كل حال قد خلصوا الشعب من الحكم العثمانى : ووضعوا الأسس لمصر المستقلة. ولو كان هذا الرجل قد وحد قوته مع الشعب ، لكانت مصر قد أصبحت فى عداد الدول الكبيرة فى مطالع القرن التاسع عشر . ولكنه سعى وراء مجده الشخصى ، واغتر بالبريق الخادع ، وضحى بالشعب فى سبيل الوصول إلى مآربه .

وكذلك فعل خلفاؤه وأحفاده . ولقد قام الشعب بثورة أخرى فى عهد البطل أحمد عرابى ليخلع حفيداً له ، ولكن الاستعمار تدخل وقضى أن يستمر حكم الاستبداد والفساد .

غزوة استعمارية أخرى :

أو

انتصار الشعب فى «رشيد»

كان هذا أول لقاء بين الشعب المصرى والإنجليز . وقد سجل الشعب فى هذا اللقاء صفحة خالدة تضاف إلى صحائف أمجاده ، ينبغى أن يعيها كل مصرى ، ويذكرها التاريخ بالفخر والإعجاب .

لم يكن الشعب يعرف الإنجليز قبل ذلك ، إلا حين حضروا فى العام الأخير للحملة الفرنسية (عام ١٨٠١) ، كحلفاء للدولة العلية ليتعاونوا معها فى إخراج الفرنسيين من مصر . وكان المنتظر ، بعد أن تم إجلاء الفرنسيين — بل الذى كان يجب أن يحدث — أن يحزم الإنجليز أمتعتهم ويغادروا البلاد فى إثرهم . ولكن كعادتهم ماطلوا فى التنفيذ ؛ وما فتئوا يتلكأون وينتحلون الأعذار ، حتى أجبرتهم العوامل الداخلية والخارجية على الرحيل ، فجلوا عن البلاد فى عام ١٨٠٣ .

غير أنهم لم يرحلوا حتى كانوا قد خلقوا أسبابا ، يستطيعون أن يعتمدوا عليها ، فى تبرير عودتهم . فقد انتهزوا فرصة الجو السياسى

المضطرب ، وأخذوا فى أثناء مقامهم يلقون شباكهم ليصطادوا فى الماء العكر : فدخلوا فى مساومات مع « المماليك » ونصبوا من أنفسهم حماة متطوعين للدفاع عنهم.

وانتهت هذه المساومات إلى عقد مؤامرة بينهم وبين كبير زعماء المماليك وأقوى شخصية بينهم ؛ وهو محمد بك الألفى . قوامها العمل على إعادة دولة المماليك ، التى انهارت دعائمها منذ أحداث الحملة الفرنسية — على أن تكون خاضعة لنفوذ البريطانيين ومشمولة برعايتهم . ولتنفيذ هذه المؤامرة أو حبك خططها ، اصطحبوا معهم فى عودتهم هذا المغامر الأفاق ؛ الذى كان يطمح إلى أن يعتلى عرش مصر ؛ وهو « الألفى » بك (وقد كان فى الأصل مملوكا لمراد بك ، اشتراه بألف إردب من القمح ، ولذلك سمى باسمه) — أخذوه معهم إلى انجلترا ليتموا معه المفاوضة : فمكث هناك سنة وبضعة أشهر ؛ ثم عاد فى ربيع عام ١٨٠٤ ليبدأ فى تنفيذ الخطة .

* * *

كانت هذه أول مؤامرة استعمارية تدبرها انجلترا لاحتلال مصر . ولم يكن تنفيذها فى ذلك الوقت ـ وفى الظروف التى سادت البلاد ـ بالأمر السهل . فقد كانت إنجلترا تعلم « أولا » كيف دافع المصريون عن استقلالهم وحريتهم فى عهد وجود الحملة الفرنسية . وكانت لا تزال تدعى « ثانيا » أنها صديقة لتركيا . إلى جانب ذلك كان « البرديسى »

ينافس « الألفى » : فالماليك منقسمون على أنفسهم . ثم إن الشعب قد رأى أن يقطع الطريق على المؤامرات والدسائس؛ فتقدم ليشرف على تصريف شئونه بنفسه ، فانتخب فى عام ١٨٠٥ — وذلك على إثر ثورته الدستورية التى قام بها — انتخب حاكما جديدا ، قصد أن لا يصغى إلا إلى مشورته ، ولا يخضع إلا لإرادته ، ويكون مستقلا عن نفوذ العثمانيين والمماليك ووكلاء الاستعمار . وكان الحاكم الذى انتخبه الشعب هو « محمد على » .

لذلك لم تنجح المحاولة الأولى التى قام بها « الألفى » وحماته الإنجليز فى عام ١٨٠٦ ، إذ استطاعوا أن يحملوا أحد وزراء « الباب العالى » — وهو « خسرو باشا » — وكان مملوكا أيضاً — يحملوه بالرشوة والخداع على أن يرسل أسطولا ، يريد أن ينقض به قرار الأمة . فحضر — تنفيذاً لذلك — القبطان صالح باشا على رأس قوة بحرية ، فى يوليه من ذاك العام ؛ ومعه أوامر جديدة بتعيين من يدعى « موسى باشا » بدلا من « محمد على » الذى اختاره زعماء الشعب إذ ذاك : ومعه أيضاً إعلان بالعفو عن « المماليك » ووعد بإعادتهم إلى ما كانوا عليه ، قبل انتقاض الأمور وتغير الأحوال . ولكن الشعب أبى أن يخضع للتهديد . وكتب زعماؤه إلى الدولة يخبرونها بأنهم مصرون على الاستمساك بقرارهم . وحاول « الألفى » أن يستولى على « دمنهور » (١٨٠٦) ليتخذها قاعدة حربية له ؛ فقاومه أهلوها مقاومة عنيفة باسلة وردوه عنها !

ومن هنا فشلت المحاولة الاستعمارية الأولى : وتمكن الشعب من أن يظل قابضاً على ناصية الأمور . ثم أراد الله أن يحبط كيد الإنجليز والخائنين ، فتوفى « الألفى » فجأة ، فى يناير من عام ١٨٠٧ .

* * *

بيد أن الأحوال الدولية كانت قد تغيرت ؛ ودب الشقاق بين إنجلترا وبين تركيا لرفض تركيا الانضمام إليها فى حربها ضد « نابليون » — الذى خرج منتصراً على التحالف الدولى عقب موقعة « استرلتز » الشهيرة (١٨٠٥) — ثم استفحل الشقاق ، فاعتبرت إنجلترا تركيا عدواً لها .

ومن أجل ذلك وللأسباب السابقة ، عزمت إنجلترا — ولم يكن خبر وفاة الألفى قد بلغها — أن تقوم بمحاولة أخرى . فانتهزت تلك الفرصة ، وصممت على أن تنفذ بنفسها الخطة التى سبق أن رسمتها . وكان قوام هذه الخطة إعادة تمثيل الدور الذى قام به نابليون من قبل : وهو غزو مصر بحملة حربية قوية ووضعها تحت يدها : ثم تحويلها إلى مستعمرة تابعة لها ، تستحوذ على خيراتها ، وتجعلها قاعدة هجومية دفاعية لها فى الشرق الأوسط ، وتحمى باستيلائها عليها خطوط مواصلاتها إلى إمبراطوريتها التى أنشأتها فى الهند ، ومصالحها فى الشرق الأقصى . فبدأت بإعلان الحرب على « تركيا » . وحينئذ أرسلت أسطولا بقيادة الأميرال « دكورث » لمهاجمة القسطنطينية ، فى فبراير

سنة ١٨٠٧ . ولكن تركيا دافعت عن نفسها دفاعا قويا : فرد الأسطول على أعقابه مهزوما .

ثم ثنت — (أى إنجلترا) — بأن أعدت حملة كبيرة ، برية وبحرية ؛ وأرسلتها فى الشهر الذى بعده (مارس) إلى « مصر » .

* * *

فهذا هو تفصيل الأسباب ، التى أدت إلى إرسال إنجلترا حملتها هذه (فى مارس ١٨٠٧) لمحاولة احتلال البلاد .

ومنها يتبين أنها كانت محاولة خطيرة أرادت بها تلك الدولة أن تعتدى على كيان البلاد وحريتها . وبها ثبت أنها ما كانت تحركت لمناصرة الدولة العلية ضد « بونابرت » — حينما غزا مصر — إلا حسداً وحقداً ، لأن فرنسا سبقتها فى أعمال العدوان . وأن صداقتها لتركيا لم تكن إلا خادعة ؛ وأنها لم تفكر طوال الوقت إلا فى مصالحها ؛ وأنها — حين تريد — لا تعبأ بقانون دولى ولا حقوق مشروعة ولا مبادىء إنسانية .

ولو قدر لهذه المحاولة أن تنجح فى ذلك الوقت لتغير تاريخ مصر والشرق . ولمنيت مصر بأرزاء الاحتلال سبعين عاما أخر : ولأصابها من الكوارث ما لا يمكن للذهن أن يحيط به . ولكنها أنقذت من هذا كله بفضل فريق من أبنائها ، بل بفضل بسالة أهل

« رشيد » والبحيرة ، الذين كانوا فى مقدمة الجبهة ، والذين وقعت ديارهم فى خط الدفاع الأول عن الوطن بأكمله فأبلوا أحسن البلاء ، ودافعوا خير دفاع : وكتبوا صفحة خالدة فى تاريخ مصر ، تشهد بصدق الوطنية ، ورسوخ الإيمان وعلو الهمة .

وصلت « الحملة الإنجليزية » بقيادة الجنرال « فريزر » إلى الإسكندرية ، حوالى منتصف مارس . وأرسلت إثر وصولها مكاتبات إلى المماليك — من أتباع الألفى وغيرهم — ولكنهم ترددوا فى قبول الدعوة . وحين علم الضباط والجنود و « الكشاف » الأجانب — من أرنؤود ودلاة وأتراك ، وغيرهم — بوصول الحملة ، سارعوا إلى الفرار واستعدوا له . وسلم محافظ الإسكندرية التركى — وكان اسمه « أمين أغا » — للقوة المعتدية ، إذ رشوه بالهدايا والأموال . وكان « محمد على » غائبا فى الصعيد : فتلكأ فى العودة ، وفضل أن ينتظر تطور الأحوال ، من بعيد ، بالرغم من خطورة الأمر !

وبعد دخول الإنجليز الإسكندرية فى يوم ٢١ منه ، صار الطريق مفتوحا أمامهم إلى القاهرة . وكانت خطتهم أن يستولوا على الثغور أولا بمعاونة الأسطول . فبعد أن وطدوا مركزهم أخذوا فى الزحف إلى « رشيد » — وكان فى ذلك الوقت أهم ثغر بعد الإسكندرية ، لأنه يقع على الطريق النيلى إلى العاصمة ، فى وقت لم تكن فيه مواصلات حديدية . ووصل الجيش الزاحف تحت قيادة الجنرال

« فريزر » إلى أسوار رشيد فى ٣٠ مارس . وأخذ يتأهب للاستيلاء عليها فى صبيحة اليوم التالى .

* * *

وأصبح مستقبل البلد كله معلقا على ما كان سيسفر عنه ذاك اليوم التـالى .

كانت قوة المقاومة يتألف معظمها من الأهالى . فقد كان عدد الحامية قليلا . وأحكمت الخطة . وكان على رأس المجاهدين السيد « حسن كريت » — كبير علماء رشيد ونقيب الأشراف فيها — كما كان يؤيده ، ويرسل إليه الأمداد والذخائر من القاهرة ، السيد « عمر مكرم » — نقيب الأشراف بالعاصمة ، وزعيم مصر الأول — الذى سهر على الدفاع عن مصر ، كما سهر عليه أبان غزو الحملة الفرنسية . وإذ تقدم الإنجليز فلم يلقوا مقاومة خارج الأسوار ، صمموا على اقتحام المدينة . ولكنهم لم يدروا أن المدينة كانت فخا أو قبرا ، ستتردى فيه جثثهم وتتراكم أشلاؤهم . فإن الأهلين كانوا لهم بالمرصاد : وانطلقت سيول الرصاص من كل بيت ، وقلعة ، وأكمة ، ونافذه . وانقض عليهم الفدائيون من كل صوب ، بكل ما أمكن أن تقع عليه أيديهم من سلاح . فكانت ملحمة رائعة . وانقضى اليوم المشهود فكان الإنجليز بين قتيل ومدبر ! وهكذا كان انتصار الحق على الباطل

والعدل على العدوان ، والوطنية على القرصنة والهمجية ، واحتراف الاعتداء على القوانين !

دارت موقعة رشيد فى ٣١ مارس سنة١٨٠٧.وكانت اللقاءالأول بين الشعب المصرى والإنجليز ، فألقى الشعب عليهم درساً قاسياً .

* * *

وإنا نورد هنا بعض ما دونه « الجبرتى » فى مذكراته — وكان مؤرخاً معاصراً لتلك الأحداث :

قال : —

«وفى تاسعه»—أى من المحرم(سنة١٢٢٢هـ) وردت مكاتبات مع السعاة من ثغر الإسكندرية ..وفيها الإخباربورودمراكبالإنجليز..

ولما انقضت الأربعة وعشرون ساعة التى جعلها الإنجليز أجلا بينهم وبين أهل الإسكندرية—وهم فى الممانعة — ضربوا عليهم بالقنابر والمدافع الهائلة من البحر ؛ فهدموا جانباً من البرج الكبير ، وكذلك الأبراج الصغار والسور . وفيه (سابع عشره) وردت الأخبار الصحيحة بأخذ الإسكندرية واستيلاء الإنجليزعليها ، يوم الخميس تاسع الشهر، ودخلوها وملكوا الأبراج يوم الأحد .

ثم قال :

« وفى يوم الجمعةرابع عشرينهوردت أخبارمن ثغر رشيديذكرون

بأن طائفة من الإنكليز وصلت إلى رشيد فى صبح يوم الثلاثاء عشرينه، ودخلوا إلى البلد . وكان أهل البلدة ومن معهم من العساكر متنبهين ومستعدين ، بالأزقة والعطف وطيقان البيوت . فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية . فألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان ، فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم . وذبحوا منهم جملة كبيرة وأسروا الباقين ! وفر طائفة إلى ناحية دمنهور .

وكان « كاشفها » عندما بلغه ما حصل برشيد اطمأن خاطره ، ورجع وطلع بمن معه إلى البر ، فصادف تلك الشرذمة فقتل بعضهم وأخذ ما بقى منهم أسرى . وأرسلوا السعاة إلى مصر بالبشارة فضربوا المدافع وعملوا شنكا ، وخلع كتخدا بك على السعاة الواصلين .

« فلما كان يوم الأحد سادس عشرينه أشيع وصول رءوس القتلى، ومن معهم من الأسرى، إلى بولاق . فهرع الناس بالذهاب للفرجة . ووصل الكثير منهم إلى ساحل بولاق . وركب أيضاً كبار العسكر ومعهم طوائفهم لملاقاتهم فطلعوا بهم إلى البر . فأتوا بهم من خارج مصر ، ودخلوا بهم من باب النصر ؛ وشقوا بهم من وسط المدينة . وفيهم « فسيال » كبير ، وآخر كبير فى السن ، وهما راكبان على حمارين ؛ والبقية مشاة فى وسط العسكر . ورءوس القتلى معهم على نبابيت ... ولم يزالوا سائرين بهم إلى بركة الأزبكية . وضربوا عند وصولهم شنكا ومدافع . وقال أيضاً . « وفيه نبه السيد عمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح،

والتأهب للجهاد فى الإنكليز حتى مجاورى الأزهر، وأمرهم بترك حضور الدروس : وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك إلقاء الدروس .

و « فيه وصل عابدين بك ... من ناحية قبلى . وأشيع وصول الباشا (يقصد محمد على) بعد يومين ا » .

« وفى يوم الاثنين وصل أيضاً جملة من الرءوس والأسرى إلى إلى بولاق . فطلعوا بهم على الرسم المذكور . وعدتهم مائة رأس وإحدى وعشرون رأساً ، وثلاثة عشر أسيراً . وفيهم جرحى . . . وشقوا بهم من وسط المدينة آخر النهار » .

« وفى يوم الثلاثاء حصلت جمعية ببيت القاضى ، وحضر حسن باشا وعمر بك ... والسيد عمر النقيب ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ الأمير وباقى المشايخ . فتكلموا فى شأن حادثة الإنكليز والاستعداد لحربهم وقتالهم وطردهم : فإنهم أعداء الدين والملة . . وفى ذلك اليوم حضر شخصان من السعاة ، وأخبرا بالنصر على الإنكليز وهزيمتهم .. وذلك أنه اجتمع الجم الكثير من أهالى بلاد البحيرة وغيرها وأهالى رشيد ، ومن معهم من المتطوعة والعساكر وأهل دمنهور . . وكان بين الفريقين مقتلة كبيرة . وأسروا من الإنكليز طائفة وقطعوا منهم عدة رءوس . فخلع الباشا على الساعين . وفى إثر ذلك وصل أيضاً شخصان من الأتراك بمكاتبات بتحقيق ذلك الخبر .. وأن الإنجليز انجلوا عن متاريس رشيد وأبى منضور والحماد . ولم تزل المقاتلون من أهل القرى من خلفهم إلى أن توسطوا البرية . وغنموا جبخاناتهم وأسلحتهم ومدافعهم

ومهراسين عظيمين : وذكروا أنه واصل خلفهم أسرى ورءوس قتلى كثيرة فى عدة مراكب !

وهكذا ظل الجبرتى يسجل وصول الأسرى :

« وفى يوم الجمعة.. حضروا بأسرى وعدتهم تسعة عشر شخصاً وعدة رءوس : فمروا بهم من وسط الشارع الأعظم . وأما الرءوس فمروا بها من طريق باب الشعرية : وعدتها نيف وثلاثون رأساً موضوعة على نبابيت . رشقوها بوسط بركة الأزبكية مع الرءوس الأولى ، صفين على يمين السالك . .

وفى يوم السبت وصل أيضاً تسعة أشخاص أسرى من الإنكليز : وفيهم فسيال .

فى يوم الأحد وصل أيضاً نيف وستون : فمروا بهم على طريق باب النصر وسط المدينة ، وهرع الناس للتفرج عليهم . وبعد الظهر أيضاً مروا بثلاثة وعشرين أسيراً وثمانية رءوس . وبعد العصر بثلاثة وعشرين رأساً ، وأربعة وأربعين أسيراً ، من ناحية باب الشعرية . وطلعوا بالجميع إلى القلعة .

« وفى يوم الأربعاء وصل إلى ساحل بولاق مراكب وفيها أسرى وقتلى وجرحى ؛ فطلعوا بهم إلى البر وساروا بهم على طريق باب النصر .. الخ

وهكذا ظل الجبرتى يسجل ورود مواكب النصر .

* * *

هكذا تم انتصار شعب مصر على المغيرين المعتدين ؛ وكانت الروح المعنوية عالية جداً . وهذه صفحات مجد وفخار . وإن هذه الموقعة الخالدة كانت إحدى نقط التحول فى تاريخنا ؛ لأنها جعلت الإنكليز لا يفكرون بعدها فى تكرار المحاولة ، إلا بعد أن تغير العصر ، وبعد أن جاء التقدم الصناعى ليسلحهم بأسلحة جديدة .

وهذه الموقعة على كل حال قد أخرت الكارثة ثلاثة أرباع القرن ؛ وسجلت ما لا يمكن أن تمحوه الأحداث ، من انتصار مصر الوطنية المجاهدة . وقد انهارت قوة الإنجليز المعنوية بعد ذلك ؛ فما زالوا تنزل بهم الهزائم فى مصر ، حتى جلوا تماماً عن البلاد بعد بضعة أشهر .

وإنا ينبغى أن نحتفل كل عام بذكرى تلك الملحمة الفريدة ، لنحيي ذكرى الأبطال الذى دافعوا عن البلاد فى ذلك الوقت ؛ ونستلهم تلك الروح القومية الفذة .

رجل بوسس أسرة :

محمـــد علي
أو
الجندى المغامر

من لم يؤمن بالحظ فليؤمن به في قصة هذا الفتى المغامر ، الذى نروى سيرة حياته الآن :

وكانت ظروف الدولة العثمانية — تلك الامبراطورية المتداعية الواهنة التى لم يشهدالشرق الإسلامى حكما أسوأ من حكمها — كانت تسمح بنجاح مثل هذه المغامرة .

كان أبوه « إبراهيم أغا » — وهو من أصل ألبانى « أرنؤودى » — خفير طرق فى « قوله » . (وهى ثغر صغير على شاطىء إقليم الروملى : شمالى بلاد اليونان الآن) . ونشأ هو شاباً فقيراً ، يتراوح أمره بين التبطل والعمل . فاشتغل وقتا بتجارة التبغ (الدخان) ووضع نفسه فى خدمة جباة الضرائب ، حينا آخر . ولما ضاقت فى وجهه سبل الرزق — وكان قد قضى ثلاثين عاما من حياته فى هذا

الموطن الصغير — عول على أن يبدأ بمغامرة جربها من قبله كثير من بنى جنسه وغيرهم؛ فبدلوا من العسر يسرا، ومن الذل عزا، ومن البؤس نعمة ؛ بل واتت الفرص بعضهم فأمكن أن يصل إلى مرتبة الإمارة أو الملك !

* * *

وليست سيرة « المماليك » فى التاريخ عنا ببعيدة . فقد كان أحدهم يجلب من أى قطر ناء ؛ ويباع بثمن بخس دراهم معدودة ؛ فإذا به بعد حين — وبعد أن يتقلب فى عدة أطوار — يصبح قائد كتيبة أو واليا أو سلطانا ! وكانت مصر دائما فى نظر الطامحين من طلاب المجد أرض الآمال والأحلام .

وكانت حال هذا المغامر الجديد — « محمد على » — أحسن من أولئك : فهو لم يجلب إليها كرقيق : ولكنه — فى ظروفه ومقدمه والطريق التى سلكها — تشبه حاله حال كثير من المغامرين الذى سبقوه ولعب كل منهم دورا ، ذا أهمية كبيرة أو صغيرة ، فى تاريخ مصر . فقد سبقه فى خلال نصف قرن (إبراهيم جاويش) و (رضوان كتخدا) و (على بك الكبير) و (محمد بك أبو الذهب) و (إبراهيم) و (مراد) : وغيرهم . كانوا جميعا موالى : فصاروا أمراء وسادة ! وبقى الأخير حاكما نحو ربع قرن . ولكن « محمد على » جاء بعدهم فى ظروف أسعد، وأكثر ملاءمة لنجاح هذا الدور الذى بعثت الأقدار

به — لخير أو لشر — ليؤديه ، : وأتيحت له فرص لم تتح لأى منهم من قبل .

* * *

كانت « الحملة الفرنسية » بدء هذا التاريخ كله . فهى التى أوجدت الأسباب ، وهيأت الظروف ، وأعدت المسرح . وإذا كان قد قيل فى تاريخ أوربا إن نابليون كان وليد الثورة الفرنسية ، فإن يمكن أن يقال — بالنسبة إلى تاريخ مصر — إن محمد على كان النتيجة الأخيرة للحملة الفرنسية ، أو وارثها الأوحد .

بعد عام من مقدم «الحملة» — ١٧٩٩ — سيرت الدولة العلية — وكانت قد أعلنت الحرب على «بونابرت» — جيشا، جمعته من كل فج! تحت قيادة « أغا » الإنكشارية ، لإخراج الفرنسيين من مصر . ووصل « محمد على » — جنديا عاديا فى فرقة الأرنؤود — مع هذا الجيش ، لأول مرة، إلى مصر ، ونزلوا بشواطىء « أبى قير » . وما كاد هذا الجيش — أو الخليط غير المدرب — يواجه نابليون ، حتى ولى مدبرا ولم يعقب! وأسرع من بقى على قيد الحياة لائذا بالسفن الراسية فى مياه الخليج! . وكان من بين الفارين محمد على الذى أشرف على الغرق لولا أن انتشله أحد رجال البحرية الإنجليزية .

ولكنه عاد ، مرة أخرى ، وكان ذلك بعد عامين (١٨٠١) ، مع فرقة جديدة أرسلتها الدولة — عاد فى هذه المرة ليبقى ، وليحالفه

الحظ دهرا طويلا : وليجنى ثمرات الأحداث والتطورات السياسية التى وقعت فى مصر منذ مقدم « الحملة » وإلى ما بعد إجلائها . وقد تم إجلاؤها بالفعل فى خريف ذلك العام . ولم تكن « الحملة الفرنسية » إلا بمثابة إعصار أو عاصفة هوجاء اجتاحت البلاد لفترة من الزمن ولكنها لم تنجل حتى كانت قد زلزلت أوتاد العهد القديم : وقوضت أركان النظم القائمة : فتركت الجو مهيأ ، والأرض ممهدة ، لإقامة بناء جديد ، وتشييد أنظمة أخرى .

*

ومهما قيل فى آثار الحملة : فإن من كبرى النتائج التى أسفرت عنها أنها حطمت القوة السياسية والاقتصادية « للمماليك » ، بعد أن قضت على قوتهم الحربية . وقد كانت لهم السيادة مدى عهود طويلة . فنتج عن ذلك أن مرت البلاد عقب الجلاء بفترة انتقال دامت نحو أربع سنوات (١٨٠١ — ١٨٠٥) عاشت خلالها فى حال أشبه بالفوضى إذ أخذت القوى المختلفة تتصارع فيما بينها ، من أجل احتلال مكان السيادة الذى أخلاه المماليك . فوجد الطامحون والمغامرون — ومن بينهم محمد على — فى ذلك الجو المضطرب المجال الفسيح لتحقيق ما يطمحون إليه . وكان محمد على قد تدرج فى المناصب الحربية ، وشاء له الحظ أن يخلف « طاهر باشا » قائد الأرنؤود ، الذى اغتاله جنديان من الانكشارية بعد أن وصل (أى طاهر باشا) إلى مرتبة الزعامة فى البلاد .

وكان من الممكن أن يستمر هذا الصراع بين القوى المتنازعة إلى مالا نهاية ؛ وأن تظل مصر مسرحا للمساجلات والمناورات . ولكن الشعب ضاق ذرعا بهذه الحالة ؛ وصمم على أن يضع حدا للفوضى ؛ فقام حينئذ بثورته الدستورية التي حمل لواءها العلماء والعمال في سنة ١٨٠٥ ، وقرر الزعماء خلع (الباشا) التركي — ممثل الباب العالي — ثم طاردوه حتى أجبروه على مغادرة البلاد . ولاحت حينئذ الفرصة السانحة لمحمد على « قائد الأرنؤود » — وهو يخب في السياسة ويضع — فأسرع إلى انتهازها . وكانت الدولة العثمانية تريد به وبقوته شرا : فتقدم زعماء الثورة في مسوح الراهب ! وعقد معهم حلفا مقدسا على أن يكون هو المنفذ لسياستهم والمطيع لأوامرهم ، وأن يحكم بالعدل . وكان الزعماء في هذا الظرف بحاجة أيضا إلى قوة حربية ، يستندون إليها في تحديهم لإرادة « الدولة » . وكان أن تمت المبايعة لمحمد على : هذا الجندي المغامر ، الذي هاجر من « قوله » منذ ست سنوات ، ثم وصل على غارب الموجة الشعبية إلى أكبر منصب في البلاد !

وظن الجميع أن عهدا جديدا قد أشرق في حياة مصر ، تكون دعامتاه الحرية والعدالة ، وتراعى فيه مصالح الأمة، وتخرج البلاد فيه من ظلمات العصور الوسطى والإقطاع إلى أضواء العصر الحديث. فماذا كانت نتيجة تلك الأحداث . وماذا حقق محمد على من هذه الآمال ؟؟

* * *

هذه هى سيرة الرجل الذى كون أسرة وأنشأ دولة ، وبدأ حقبة فى تاريخ مصر . أما بالنسبة لأعماله فلنذكر حكم التاريخ العام عليها — وذلك من وجهة نظر الوطنية المصرية .

إن خلاصة الحقائق التى يمكن أن تسجل عن حكم هذا الرجل هى أنه جاء إلى مصر ، كما جاء إليها كل من سبقه من المغامرين الذين وفدوا عليها ، من طلاب المجد والمال والشهرة ، وبقيت نظرته إليها هى نفس نظرة المهاجر الأجنبي أو الغريب ، الذى لا يربطه بالبلد الذى نزح إليه رابط غير اعتبار المصلحة الشخصية . وكذلك بقيت نظرة خلفائه من بعده .

جاء إلى مصر « عثمانيا » ؛ وقد قضى من حياته ثلاثين عاما فى بيئة عثمانية تم فيها تكوينه ؛ فظل طول حياته عثمانيا — وإن كان قد وجد فى عصر جديد . والخصائص التى كانت تميز الطبيعة العثمانية هى الشره ، والأثرة المفرطة ، والحرص ، والقسوة ، والغدر .

ولقد رحل إلى مصر « أجنبيا » ، وظل كذلك « أجنبيا » . ولم تتغير هذه الطبيعة فى ذريته ، حتى بعد قرن ونصف .

والحقيقة أن الدولة العثمانية إذا كانت قد انقرضت وزال عهدها حتى فى بلادها ، فإنها لم يبق لها أثر إلا فى مصر .

وحقا قد قام محمد على بكثير من الإصلاحات المادية ، فحفر القنوات وأقام بعض القناطر وأخصب الأرض ؛ كما أنه بدأ بإيجاد صلة بين

مصر والمدنية الحديثة . فهذه أمور لا ينكرها التاريخ ؛ وإن كان أثرها قد بولغ فيه كثيراً ، لأن آثارها لم تظهر إلا بعد مدة طويلة ، وكان الفضل فيها أيضا لحيوية الشعب المصرى نفسه ، الذى له ميزة حسن الاستعداد لقبول أسباب التقدم ، وسرعة إدراك طبيعتها والأخذ بها. على أن اتصال مصر بأوربا — بحكم موقعها الجغرافى — كان لابد على كل حال أن يتم ، عاجلا أو آجلا ، كما حدث مثل هذا الاتصال مع سائر أقطار الشرق الأوسط . وربما إذا كان حدث الاتصال فى وقت متأخر أنه كان يتم فى ظروف أحسن ، وتحت توجيه أرشد ، بحيث تحفظ الطبيعة المصرية ، ولا يهدد الأثر الأوربى بأن ينال من الروح العربية والإسلامية .

على أنه إذا ذكرت الإصلاحات المادية ، فيما يتعلق بالأرض والإنتاج؛ فإنه يمكن أن تذكر أيضا مثل هذه الأعمال بالنسبة إلى الإنجليز وكرومر، المستعمرين، الذين جاءوا بعد محمد على بمرور الوقت. ولكن الحقيقة التى ينبغى أن تقرر، من وجهة نظر الوطنية والقومية ، هى أن حرية الشعب وكرامته لا تقوم بمال . كما أن السؤال الذى ينبغى أن يوجه هو: ولمن كان سيعود خير هذه الأرض بعد ما تخصب؟. لقد كان محمد على يتصرف فى مصر كلها كأنها مزرعته الخاصة ؛ وكان هو المالك الوحيد والمزارع الوحيد والتاجر الوحيد .

ولقد قرر الأستاذ «كروتشلى» — مؤرخ مصر الاقتصادى

للعصر الحديث — أن القرى فى مصر هجرها الرجال فى عهد محمد على ؛ فلم يبق بها غير النساء والأطفال والشيوخ ، فراراً من السخرة والتجنيد وفداحة الضرائب . كما تبين مما ذكر من إحصائيات أن عدد السكان فى معظم عهده لم يزد إلا زيادة ضئيلة . ومن الحقــائق المعروفة فى التاريخ أن ستة آلاف من أهل الشرقية قد هاجروا إلى سوريا — على شدة حب المصرى لوطنه — هربا من نفس المظالم ! ولا يختلف المؤرخون فى أن شقاء الفلاح المصرى فى عهد محمد على — وكذلك يسرى نفس الحكم على عهد أبنائه — كان كبيراً ، بل فوق مايطاق .

* * *

أما من جهة العلاقات بالخارج ، فإن مجمل مايلاحظ أن والى مصر قد زج بمصر فى حروب متوالية ، لم تكن لها فيها مصلحة مباشرة — فضلا عن أنها كلفتها جهوداً طائلة ؛ فكانت هناك أولا حرب « الوهابيين » (١٨١١ — ١٨١٨) وكانت ضد حركة دينية إصلاحية فى بلاد العرب : ثم الحرب فى اليونان (١٨٢٣ — ١٨٢٨) وكانت لمقاومة شعب ينشد استقلاله . وفيها فقد أسطول مصر . وبعد أن ساعد محمد على الدولة العلية بهذه الحروب ، فقواها ودفع عنها بعض الأخطار ، أعلن الحرب ضد الدولة العلية نفسها : فكانت حرب الشام (١٨٣١ — ١٨٤١) . فكان هذا تضارباً وتناقضا فى السياسة الخارجية . وسنتكلم عن نتائج هذه الحرب فى مقال تال .

ثم ماذا أفادت مصر من كل هذه الحروب ؟ لم تفد إلا أنها ضحت بالأموال والرجال ؛ وأثقل كاهلها بالضرائب ؛ وفقدت حريتها . وكانت الثمرة الوحيدة من كل هذه الجهود هي تثبيت مركز أسرة « محمد على » . ثم خرجت من كل تلك التجارب القاسية ضعيفة منهوكة القوى . فكان عليها أن تنتظر حتى يأذن الله فيقيض لها من ينهض من أبنائها ، فيعيد إليها الحياة من جديد .

* * *

كان هذا هو عصر الدولة العثمانية أو « الرجل المريض » ، والجنود المجلوبين ، والمغامرين الأفاقين ، والإقطاع والاستغلال ـ وإن العصر الحديث أصبح لا يحتمل بقاء شيء من هذا ولا آثاره .

١ — النزاع بين « الوالى » و « السلطان » أو حرب الشـــام

كانت نتائج الحرب التى دارت رحاها بين « الوالى » محمـــد على و « السلطان » محمود الثانى ، والتى شغلت كلا الجانبين عشر سنوات (١٨٣١ — ٤١) — كانت شراً بالنسبة إلى الفريقين ، وأيضاً بالنسبة إلى مستقبل « الشرق الأوسط » .

فإن تلك الحرب لم تكن فى الحقيقة غير « حرب أهلية » بين فرعين من أسرة ، أو دولة واحدة : حرب داخل « بيت الشرق الأوسط » .

فكان لابد أن يصحبها وأن يعقبها من النتائج الضارة ما يصحب أو ما يترتب على كل حرب أهلية . وفى مقدمة الشرور التى تنتج عن مثل تلك الحرب أنها تؤدى إلى ضعف كلا الطرفين ، وتنتهى بأن توهن قوى المجموع أو العائلة ، التى ينتميان إليها : فتزعزع مركز هذه

الوحدة بالنسبة إلى ما يحيط بها من أعداء، يقفون متربصين بها. وكان هذا هو الذى حدث بالنسبة إلى كل من تركيا ومصر، والكتلة الإسلامية فى الشرق الأوسط. فكانت خسائر الطرفين والوحدة بأسرها، فى الرجال والعتاد والأموال، شيئاً كبيراً.

* * *

كان فى مقدمة هذه الخسائر أن الحرب أضاعت على الفريقين الفرصة الثمينة التى كانا قد شرعا فى اغتنامها؛ وهى فرصة تجديد قوى دولتيهما، والقيام بتنفيذ كثير من المشاريع الإصلاحية التى كانت لازمة لحفظ كيانهما وتقدمهما.

فإن السلطان «محمود» — وذلك من جهة — كان معروفاً عنه أنه كان متشبعاً بالرغبة فى الإصلاح. ولكنه ما كاد ينجح فى إزالة العقبة الكبرى التى كانت تعترض طريق كل عمل إصلاحى، وذلك بالقضاء على «الإنكشارية» سنة ١٨٢٦، حتى فاجأته روسيا بإعلان الحرب عليه (عام ١٨٢٨): وكان فى نفس الوقت مشتبكا فى حرب طويلة منذ سنة ١٨٢١ مع اليونان؛ ووقفت أكثر الدول الغربية فى صف اليونان: فلم تنته هذه المشكلة إلا فى عام ١٨٣٠ بتقرير انفصال هذه الولاية عنها نهائياً. وفى هذا الوقت ١٨٣٠ بالذات، بدأ النزاع بينه وبين محمد على؛ وعزم محمد على على شن الحرب العنيفة ضده، التى كان ميدانها الشام وجنوب آسيا الصغرى، فاستمرت هذه الحرب

كما ذكرنا نحو عشر سنوات . فلم يعط السلطان إذن أى وقت لإنشاء جيش جديد قوى ، معد بالأسلحة الحديثة — كما كان يأمل — أو لتنظيم موارده المالية التى كانت ستعينه على إتمام هذا العمل ، أو السير فى تنفيذ الإصلاحات التى كان يهدف إليها .

وفى هذه الأثناء جاءت فرنسا فانتهزت فرصة انشغال الدولة ، فأرسلت جيشاً قوياً ليحتل « الجزائر » ؛ وذلك فى عام ١٨٣٠. وكان لهذا الاعتداء مغزى كبير ؛ لأنه كان الخطوة الأولى — بعد التجربة الفرنسية على مصر التى لم تنجح — كان الخطوة الأولى فى الاستعمار ، أو هو كان أول احتلال لدولة عربية إسلامية ، تابعة للدولة العثمانية. فكان هذا هو الفصل الأول من سجل الكوارث ، التى كان سينزلها العدوان الأوربى على أقطار الشرق الأوسط . ولم تستطع الدولة العثمانية أن تفعل شيئاً ، بسبب الحرب التى أعلنها عليها محمد على فى العام التالى (١٨٣١) . وكانت هذه الحرب بإيعاز أو تشجيع من فرنسا ليخلو لها الجو ، حتى تتمكن من تأسيس الامبراطورية التى اعتزمت تأسيسها فى شمال إفريقية . بل إن فرنسا رغبت أولا إلى محمد على أن يشترك معها فى غزو «الجزائر» ؛ ومن الثابت أنه رحب بهذه الفكرة وكاد أن يشترك معها ، لولا أن حذرته إنجلترا من هذه المغامرة .

كذلك — من الجهة الأخرى — من الواضح أنه لو كان « محمد على » قد وجه جهوده التى وقفها على مواصلة الحرب، وأيضاً الأموال

التى أنفقها فى هذا السبيل — لو كان وجه تلك الجهود والأموال لتزيد من رخاء الشعب ، وينفذ الإصلاحات الداخلية التى كان الوطن فى أشد الحاجة إليها ، لكانت آثار جهوده أبقى ، ولعادت على البلاد بأعظم الفوائد . ولكن الجهود كلها فى الناحيتين قد بددت فى نزاع دموى ، اقترن باضطراب وقلق ا ولم يؤد فى النهاية إلى ما كان ينتظر منه من نتائج . بل فقد محمد على معظم جيشه عند انسحابه من الشام وخسر أكثر معداته . وضاعت جهوده عبثاً ، إذ أجبر على التخلى عن كل البلاد التى فتحها : عن سوريا وفلسطين وبلاد العرب وكريد .

وخرجت مصر — كما خرجت تركيا — مضعضعة حربيا وماليا . فأنقص عدد جيش مصر — كما نصت معاهدة لندن — وأغلقت مصانعها ، وعادت — ثانية — ولاية تابعة للدولة العثمانية ، تدفع الخراج للباب العالى — وإن كان الحكم بقى وراثيا فى أسرة محمد على . وهذه النتيجة الأخيرة — وهى الثمرة الوحيدة التى جناها — كان من الممكن أن يصل إليها بدون حرب ، بل إنها كانت الأمر الواقع : والدولة العثمانية كانت تحترم الواقع . وما كان يستطاع تغيير ذاك الواقع ما دامت حكومة مصر قوية .

* * *

ثم إن تلك الحرب — إذا نظر إليها من الوجهة القانونية والدولية — يمكن أن تصور بأنها لم تكن أكثر من حركة عصيان : عصيان «وال»

على السلطان ، الذى منه يستمد سلطته الشرعية . فإن محمد على كان قد اكتسب مركزه نتيجة مبايعة زعماء الشعب له ، الذين طلبوا من السلطان أن يوافق على قرارهم هذا الذى اتخذوه ، فأجاب السلطان مطلبهم . ولكن محمد على أقصى بعد ذلك أولئك الزعماء ، وقضى على الإرادة الشعبية ؛ فكأنه بذلك فسخ عقد المبايعة . ولم يعد هناك سند شرعى لبقائه إلا موافقة السلطان. فكان إشهار السيف إذن فى وجهه حركة عصيان من تابع على مولاه .

ولم تكن للحرب أغراض غير ذاتية، أو عامة ، كمبادىء دستورية أو اجتماعية — مثلا — نهض محمد على ليثبتها أو يحققها ؛ بل كان الغرض الأول هو تحقيق الملك أو طمع الاستيلاء .

فقد طلب محمد على أولا من السلطان أن يعطيه ولاية « عكا » ، وذلك فى نظير المساعدات التى قدمها له أثناء حرب اليونان . ولكن السلطان اكتفى بأن منحه ولاية « كريد » . فإذ فشلت المساومة أعلن إذن على السلطان الحرب !

وتثبت الشواهد التاريخية أنه كان يتطلع إلى الاستيلاء على الشام أو لبنان ، ويعمل لذلك منذ وقت طويل : ولم يكن اتفاقه السرى مع الأمير بشير الشهابى — أمير لبنان — إلا خطوة فى هذا السبيل .

فهذه الحرب فى الشام كانت إذن عدوانا على أملاك الدولة ، ولم يكن قد بدا من «السلطان» ما يستدل منه على أن مركز محمد على صار

مهددا ، أو ما يجعل الحرب أمرا محتوما ، أو يبرر نشوبها . ولكن المأزق الذى كان فيه السلطان فى ذلك الوقت — وهو خارج من حرب ضروس بينه وبين روسيا واليونان والدول ، وقد انتزع منه إقليم كبير « اليونان » ، واضطربت أحوال الدولة المالية والعسكرية — هذه المحنة وجد فيها « محمد على » الفرصة التى قد لا تعود ؛ والتى أغرته بأن يهاجم السلطان ، قبل أن ينظم أموره ويستعيد قوته .

على أن المهاجمة كانت — فوق ذلك — تناقضا مع المسلك الذى اتبعه هو نفسه منذ تولى ولاية مصر . فإنه قد قضى نحو عشرين عاما قبل هذه الحرب (١٨١١ — ١٨٣١) وهو يدافع عن السلطان ، ويذود عن الدولة الأخطار . ومن أجل هذا سخر موارد مصر فى الحرب ضد الوهابيين ، ثم الحرب فى بلاد اليونان . فإذا كان أمضى أكثر سنى ولايته يعمل لتقوية الدولة وتثبيت دعائمها ، فكيف يعود بعد ذلك لمهاجمتها ويسعى لإضعافها أو تحطيمها ؟ !

ومما يعلل لذلك أن محمد على لم يكن خياليا أو مثاليا ، لم يكن هناك مبدأ نظرى يوحى إليه بأعماله ، ويسعى هو إلى تحقيقه : كأن يفكر فى وحدة إسلامية ، أو مصلحة الأمة الإسلامية — مثلا — ! بل كان رجلا عمليا واقعيا ! وأغراضه مادية ذاتية . وكانت الغاية العامة التى تحكم سياسته وتدعوه إلى العمل هى تحقيق ما كان يطمح إليه ، وهو يتخلص فى إنشاء إمبراطورية أو تكوين دولة كبرى ، يحكمها مستقلا عن

الدولة العثمانية ، أو دولة تحل محل هذه الدولة : ثم يورثها لأبنائه من بعده .

* * *

على أنه إذا كان أخفق فى تحقيق هذه الأغراض التى كان يرمى إليها ، فإنما يدل ذلك على أنه لم يحسن بدقة تقدير الأمور ، وأنه لم يكن متفهما للسياسة الدولية حوله على حقيقتها . فإن من الحقائق التى كان ينبغى له أن يدركها أن الدول — ولا سيما إنجلترا — لم تكن لتسمح أبدا بأن يقضى على الدولة العثمانية ، دون أن يكون هناك اتفاق بين الدول ، أو أن تشترك هى فى ذلك .

وظهرت هذه الحقيقة جلية أمام عينيه فى أثناء قيام مشكلة اليونان. فقد أدت الحرب التى نشبت بين تركيا وروسيا إلى فتح باب « المسألة الشرقية » ، وإلى تدخل الدول الكبرى جميعها . وكان من آثار هذا التدخل تحطيم أسطول مصر فى « نافارينو » بتآمر الدول . ثم أجبر هو — أى محمد على — على الانسحاب. فكان من العجيب إذن — أو لعل هذا لا يكون جد مستغرب على رجل كل ميزته الإرادة والذكاء الفطرى — أن لا يدرك محمد على ذلك : وأن لا يدرك أن تحطيم الدولة العثمانية كان ينتج — حتما — أضخم مشكلة دولية فى ذلك الوقت : إذ كيف كان يقرر مصير الأملاك الواسعة التى كانت فى حوزتها؟ وهل كان يمكن أن يتم ذلك بدون تدخل الدول ومساهمتها الفعلية ؟ . لقد أخطأ فى كل ذلك .

والذى يبدو أنه كان معتمدا على فرنسا . وهى التى شجعته على الاندفاع فى تلك المغامرة . ولكن فرنسا — حين جد الجد أو حزب الأمر — لم تقدر على أن تتحدى الدول كلها ، أو لم تقبل أن تضحى بنفسها أو مصالحها الأخرى ، من أجل صديقها الذى علق عليها كل آماله ! فلم يتبين هو تلك الحقائق إلا حين واجهته فى نهاية الأمر فى صورة « تدخل مسلح » ، ممثـــل فى الأساطيل والمدافع ! فأجبرته الدول — التى تزعمتها إنجلترا — على التخلى عن الأراضى التى كان فتحها ؛ وأملت عليه شروط « معاهدة لندن » إملاء (١٨٤٠ — ١٨٤١) . فضاعت بذلك أكثر جهوده ، وتبددت آماله فى تكوين امبراطورية أو القضاء على الدولة . وكان أولى له لو كان عكف على العمل لتقوية مصر ، وتدعيم أركان نهضتها من كل الوجوه ، حتى تصير من أقوى دول البحر الأبيض المتوسط .

* * *

أما نتائج الحرب بالنسبة للدولة العثمانية ، والأقطار المرتبطة بها فكانت أكثر خطورة ، أو ذات أثر أبعد .

فإن السلطان « محمود » — الذى يعده المؤرخون أعظم سلطان لتركيا فى العصر الحديث — شغل بتلك الحرب وما سبقها من حروب — كما قدمنا — فضاعت فرصة الإصلاح فى تركيا إلى الأبد . ثم توفى قبيل نهاية الحرب (فى يونية ١٨٣٩) . فخلفه ابنه السلطان « عبد المجيد » — وكان لا يزال فى السادسة عشرة — وذلك فى ظروف متغيرة

وكان من أكبر الشرور التى نتجت عن الحــــرب أن اختلت اقتصاديات « الدولة » . فإن الحروب المتوالية أرهقت ماليتها . وقد اضطرت عقب تحطيم أسطولها فى « نافارينو » — اضطرت إلى إصدار سندات مالية ذات فوائد : أى بمثابة قرض وطنى ، لتتمكن من إعادة بناء البحرية . فلما فوجئت بحرب « محمد على » ، التى استمرت عدة سنوات ، عجزت عن دفع الفوائد . وظلت تتراكم عليها الديون منذ ذلك الوقت ، مما كان من شأنه أن يؤدى — وقد أدى بالفعل بعد طروء أسباب أخرى — إلى إعلان إفلاسها فى أواسط القرن « التاسع عشر » . وكان هذا من أكبر العوامل التى عاقت الدولة العثمانية عن النهوض : وأدت إلى بقاء ضعفها . إذ أن الممالك إنما تبنى — كما يقول شوقى — « بالعلم والمال » : وأن المال — كما يقول هو ، أيضا :

إذا جفا الدور فانع النازلين بها أو الممالك ، فاندبها كأطلال !

وكانت تلك « الحرب الأهلية » سببا — أيضا — فى أن فتحت الباب على مصراعيه ، للتدخل الأجنبي فى الشئون الداخلية للشرق الأوسط.

فإن محمد على ، بمصادقته لفرنسا وإصغائه لمشورتها — وكان الكولونيل سيف : « سليمان باشا الفرنساوى » هو القائد الأعلى لجيشه ومستشاره الأول — فإنه بذلك قد أثار غيرة الدول — ولا سيما انجلترا : وكان هذا من أهم الأسباب التى جعلت « بالمرستون » وزير خارجية إنجلترا يقف فى وجهه بصلابة . وحين وجد السلطان

نفسه مهدداً بأعظم الأخطار ،بعد هزيمة جيشه فى « قونية » (ديسمبر ١٨٣٢) لجأ إلى أمر عجيب ما كان ليدور بخلد أحد ؛ وهو أنه رمى بنفسه بين أذرع ألد أعدائه — أى روسيا — وذلك حين عرضت عليه حمايتها فقبل : وعقد معها اتفاقية (هنكر اسكله سى) السرية فى (يولية ١٨٣٣) . فكان هذا أكبر إذلال للدولة . ولكنه فى نفس الوقت — من الوجهة الواقعية — كان حركة دبلوماسية بارعة. إذ أن الاتفاقية، حين علمت بها إنجلترا استثارت هذه الدولة على الفور: وجعلتها تتدخل فى أمر العلاقات بين تركيا ومصر ، مشاركة لروسيا فى حمايتها للدولة العثمانيه ،حتى ذهبت إلى حد إعلان الحرب على محمد على فى النهاية ؛ وحاربته بالفعل . ثم كان وضع شروط « معاهدة لندن » ١٨٤١ — التى بها تقرر مصير مصر والدولة العثمانية إلى زمن طويل بعد هذا — كان وضع هـــذه الشروط فى قاعات « وزارة الخارجية البريطانية » !

* * *

ولم ينقطع التدخل بعد ذلك : بل ازداد وتفاقم ، حتى تحول إلى شبه وصاية على الدولة . ثم انتهى — فى خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وما بعد ذلك — إلى احتلال مسلح لأقطار الشرق الأوسط ؛ ومن بينها « مصر » نفسها .

وحتى قبل ذلك ، كانت فرنسا — على كل حال — قد سبقت إلى

احتلال «الجزائر» — ذلك القطر الإسلامى العربى — كما أسلفنا الإشارة إلى ذلك، ثم أخذت توطد أقدامها فى تلك المنطقة : إذ أن الحرب التى شنها حليفها «محمد على» على الدولة قد أسدت إلى فرنسا أجل خدمة. فحين نهض البطل الكبير «الأمير عبد القادر الجزائرى» يقاومها ويدفع عن وطنه وقومه وصمة الاستعمار، لم يجد أى عون يقدم إليه من الدولة، أو من أى قطر إسلامى : بل إن محمد على كان قابلا لأن يشترك مع فرنسا فى هذا العدوان! فظل «الأمير» الجزائرى يجاهد — منفردا — الجحافل الجرارة التى ساقتها إليه فرنسا، مسلحة بأحدث المعدات — يجاهدها أربعة عشر عاما (١٨٣٣ — ١٨٤٧)، حتى ضرب أروع الأمثلة فى البطولة والاستعداد للفداء والتضحية. ولم ينته جهاده إلا فى عام ١٨٤٧ .

ولقد حق القول أنه حين أكلت «الجزائر»، قد أكل شمال إفريقية كله! بل يصح القول بأنه حين أكل «المغرب العربى» أكل الشرق الأوسط أو البلاد العربية معه، أيضاً! فإن الاستعمار «رواية» واحدة، بدىء تمثيل أو أداء الفصل الأول منها فى ذلك الوقت، ثم صار يرفع الستار، من حين لآخر، عن بقية الفصول، حتى القرن الحالى.

* * *

فالحق أن تلك الحرب، أى (الحرب الأهلية)، قد ألحقت بالدولة (العثمانية) أعظم الأضرار. وكان فى مقدمة ذلك أنها أضعفت

وأخيرا ، لو فرض أن محمد علي نجح في القضاء على الدولة العثمانية لما أمكنه أن يقف حينئذ في وجه روسيا والنمسا وإنجلترا . ولانقضت روسيا على الفور فاحتلت بلاد البلقان ، وسبقته إلى الاستيلاء على « القسطنطينية » : ولأخذت إنجلترا ما أرادت من أراضي الدولة : أو لأعلنت عليه الحرب : وما كان ليستطيع أن ينازلها — كما وقع بالفعل حين هددته بالأسطول وسعت إلى إخراجه من الشام : فلم يقدر إلا على أن ينسحب ويتخلى عن كل فتوحاته ، على الرغم منه .

فتحطيم الدولة العثمانية لم يكن يعني إذن في ذلك الوقت إلا أن تحيق الكوارث — قبل الأوان — بالشرق الأوسط ؛ وأن تقع الشعوب ، التي كانت تتكون منها الدولة ، فريسة للاستعمار إذ ذاك ، لأنها لم تكن قد قوت نفسها ، أو بلغت من الرقي درجة تعينها على المقاومة . فالوقت الذي تأخر فيه الاستعمار كسبته تلك الشعوب — العربية — لأنه لما جاءها بعد ذلك كان التعليم قد انتشر فيها ، ونظمت مواردها ، ووصلت روحها المعنوية إلى مستوى سام فكانت قادرة إذن على أن تقاوم الاستعمار ، وأن تخوض — في أمل — معركة الحرية ! .

في أواسط القرن التاسع عشر :

النفوذ الأجنبي ، والمسألة الشرقية

فتحت «الحرب الأهلية» — كما ذكرنا في المقال السابق — للدول الأجنبية باب التدخل في شئون الشرق الأوسط ، والدولة العلية — التي كانت أشبه بحصن مغلق .

وقد أخذ هذا التدخل أشكالا عديدة: سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية . وكان هذا التدخل هو التمهيد لتثبيت النفوذ الاستعماري، ثم للسيطرة بالاحتلال المسلح .

ويمكن تعقب مظاهر هذا التدخل أو النفوذ :

أولا — فيما يتعلق بالدولة العلية وعلاقاتها بدول الغرب .

ثانياً — في الفتن الطائفية والسياسية ، التي نشبت في لبنان .

وثالثاً — في التنافس على الحصول على امتيـــازات أو مكانة خاصة ، في مصر .

١ ـ الدولة العلية والغرب

فأما فيما يتعلق بالدولة العلية : فإنه لما كانت « إنجلترا » صار لها فضل أنها هى التى بادرت بالوقوف إلى جانب « السلطان » ، لتحميه من عدويه : محمد على وروسيا ـ وإن كان دافعها الأول فى الحقيقة هو الدفاع عن مصالحها الذاتية ـ وظلت ثابتة فى موقفها حتى عقدت « معاهدة لندن » ، التى كانت نصراً للدولة العلية وهزيمة كبيرة لمحمد على وفرنسا ـ لما كان شأن إنجلترا كذلك : فإنها كانت أول دولة جنت الفوائد السياسية والاقتصادية لاتصال الغرب بالدولة العثمانية . فقد اكتسبت إنجلترا نفوذاً كبيراً فيها ، وارتفع مقام سفيرها بالأستانة وصارت الدولة تصغى لمشورتها وتجتهد فى أن تنفذ رغباتها .

المعاهدة التجارية ١٨٣٨ :

فكان فى مقدمة ما حصلت عليه أنها عقدت « معاهدة تجارية » مع الدولة العثمانية عام ١٨٣٨ ، كانت لها أهمية اقتصادية كبيرة . فقد منح بها التجار الإنجليز الحق فى دخول أى جزء من أملاك الدولة العثمانية ، وحق الاتصال المباشر بالمنتجين الوطنيين ، لشراء المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية : أو البيع لهم . وقد حرصت إنجلترا على أن تجعل ذلك الاتفاق أحد ملاحق معاهدة لندن التى عقدت

سنة ١٨٤٠ . ومن ثم وجب تطبيق هذا الاتفاق على مصر ، حيث أن مصر التزمت بتنفيذ معاهدة لندن .

وكان من نتائج هذا الوضع الجديد أن ازداد التعامل التجارى بين مصر وإنجلترا . وقضى على احتكار حكومة مصر — أى محمد على — للقطن . ولم يكن هذا الاحتكار فى صالح المزارعين . فأصبحت تجارة القطن منذ ذلك الوقت حرة : فشجع هذا إنتاجه وتصديره وأدى هذا إلى ارتفاع سعره .

* *

خط أو « فرمان التنظيمات » : ١٨٣٩

ولما كانت الدول الأوربية تريد أن تستغل العواطف الدينية والعنصرية ، وترمى إلى أن تتخذ من الأقليات فى الدولة وكلاء لها لتقوى بهم نفوذها ، وتجعلهم واسطة تنفيذ سياساتها ، فقد كانت دائما تضغط على الدولة لاستصدار قوانين جديدة ، بحجة حماية الأقليات ، وتنادى بضرورة إصلاح نظم الدولة .

ولا ريب أن الدولة العثمانية كانت بحاجة إلى كثير من الإصلاح فى نظمها ، ولكن الدول الغربية التى كانت تنادى بذلك كانت تفهم الإصلاح بمعنى واحد ، أو تريد لغاية واحدة فقط ، وهى منح الأقليات (أو الأوربيين ، أو غير المسلمين — بصفة عامة) حريات سياسية

المرسوم أن الدولة تكفل حماية الأرواح والعرض والناموس والمال، وسن نظاما عادلا لجباية الخراج، وللتجنيد، ليبطل المساوىء التى كان معمولا بها . ونص فى النهاية على أن جميع رعايا الدولة — من المسلمين وسائر الملل الأخرى — تتمتع بهذه الحقوق، بدون استثناء ...

التنظيمات الخيرية :

ثم عادت الدول الأوربية — ولا سيما إنجلترا — بواسطة سفيرها بالأستانة : « سير ستراتفورد كاننج » أو « رد كليف » ، الذى كان له أكبر نفوذ فى العاصمة — عادت إلى الضغط على الدولة لتصدر مرسوما آخر . يكون أكثر وضوحا وصراحة فى إعطاء المسيحيين وأهل الملل الأخرى الحقوق والضمانات التى كانوا يتطلعون إليها . فصدر هذا القانون عقب « حرب القرم » فى عام ١٨٥٦ : وجعل جزءا أساسيا من « معاهدة الصلح » التى عقدت فى باريس والتى بها انتهت تلك الحرب .

وقبل أن نبين طبيعة هذه « التنظيمات » ، نرى أنه ينبغى أولا إيضاح الأسباب والظروف ، التى أدت إلى نشوب هذه الحرب « حرب القرم » . لأن إصدار التنظيمات كان متصلا بهذه الظروف . وحرب القرم — بصفة عامة — لم تكن إلا مظهراً عملياً للصراع

أو التنافس الإستعمار الذى كان دائرا بين الدول الكبرى ، والذى كان أسبابه سياسية وإقتصادية ؛ ولكن اختلطت به أو استغلت فيه العواطف الدينية .

* * *

حرب « القرم » ، أو المسألة الشرقية .

فى هذا العصر الذى شابه التعصب ، وتكدر بالفتن الطائفية فى لبنان وغيرها ، كان السبب الظاهرى أو المباشر الذى أثار « حرب القرم » ، مابين عامى : (١٨٥٣ — ١٨٥٦)— كان سبباً دينيا : لكن كان المقصود به فى الحقيقة التوصل إلى أهداف سياسية .

كان هذا السبب هو النزاع بين المسيحيين : « الكاثوليك » الذين كانت تؤيد قضيتهم « فرنسا » — من جهة — وبين المسيحيين : « الأرثوذكس » ، الذين كانت تدافع عن دعاواهم « روسيا » — من الجهة الأخرى . كان النزاع يدور حول امتلاك « مفاتيح البقاع المقدسة » وحق حماية هذه الأماكن فى فلسطين وبخاصة القدس . وامتد النزاع حتى شمل حق حماية المسيحيين ، بصفة عامة ، فى الدولة العثمانية .

فقد اعتمدت « روسيا » على مانالت من اعتراف من الدولة العلية فى نصوص « معاهدة قينارجة » التى عقدت سنة ١٧٧٤ — اعتراف بأن لها حق حماية المسيحيين فى البلقان : وكذلك ماحصلت عليه — أى

روسيا — بمقتضى معاهدة «هنكر سكله سى» التى أبرمت فى عام ١٨٣٣ حيث سلم لها فيها بحق حماية المسيحيين عامة .

هذا ، بينما استندت « فرنسا » إلى الامتيازات التى منحها السلطان سليمان القانونى لملكها « فرانسوا الأول » عام ١٥٣٦ ، والتى كانت جددت بامتيازات أخرى منحت فى عام ١٧٤٠ — استندت إلى ذلك لتؤيد دعواها بأن لها وحدها الحق فى حماية المسيحيين من رعايا الدولة العلية .

وكان كل من قيصر روسيا: وهو «نقولا الأول (١٨٢٥—١٨٥٥) وامبراطور فرنسا : وهو « نابليون الثالث » (١٨٥١ — ١٨٧٠)— كان كل منهما متعصبا : ويرمى إلى أغراض امبراطورية . والأخير كان يريد بصفة خاصة إرضاء الرأى العام الكاثوليكى فى فرنسا .

* * *

كان هذا هو السبب فى الظاهر . ولكن الواقع أن روسيا كانت تريد أن تجد أى ذريعة لفتح باب « المسألة الشرقية » من جديد ، على مصراعيه ، لتتدخل فى شئون الدولة العثمانية ، وتوجد مجالا للمساومات ، أو تعلن الحرب على الدولة لتكون لها الكلمة الفاصلة عند عقد الصلح ، فتنال ما تقصد إليه من مطامع .

كانت أغراض روسيا « القيصرية » هى أن تسلخ ولايات البلقان عن الدولة ، ثم تضمها إليها لتكون تحت حمايتها ، وأن تكون لها

السيطرة على البحر الأسود ومورانيه ؛ وأن تكون لأساطيلها حرية المرور بالمضايق ؛ البوسفور والدردنيل ، بل كان أهم اغراضها أن تستولى على الأستانة ؛ « القسطنطينية » — إذا أمكن ذلك .

وهذه الأغراض هى التى دفعت « إنجلترا » للدخول فى المعترك والوقوف إلى جانب فرنسا ضد روسيا . فإن القواعد الأولى لسياسة إنجلترا أن تمنع روسيا من الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط ، أو من أن تنازعها السيادة على البحار ، أو تهدد طرق المواصلات إلى إمبراطوريتها فى الهند . وقد كانت روسيا فى ذلك الوقت قد حولت « سباستبول » إلى قاعدة بحرية كبيرة ، وبنت أسطولا ضخما ؛ وغدت خطرا يهدد الدولة العثمانية والمصالح بريطانية فى الشرق . كذلك كانت مصالح فرنسا الاستعمارية متفقة مع مصالح بريطانيا .

* * *

كانت هذه إذن هى الأسباب ، التى أدت إلى الحرب التى عرفت بحرب القرم — نسبة إلى شبه الجزيرة فى البحر الأسود .

هذا : وقد كان « القيصر نقولا » (١٨٢٥ — ٥٥) مصرا على العدوان على الدولة ، منذ بان له ضعفها إذ لجأت إليه تطلب حمايته من أحد الولاة التابعين لها ؛ وهو « محمد على » — حين هاجمها وكادت جيوشه أن تصل إلى « البوسفور » . ولما كان تدخل إنجلترا وعقد معاهدة لندن قد فوتا عليه تلك الفرصة ، فلم يتمكن من أن يستغلها حينئذ كما كان يشتهى ، فقد

كان يريد منذ هذا الوقت أن يجد سبيلا لنقض المعاهدة : وذلك بإشراك إنجلترا معه فى مؤامرة ضد الدولة العلية .

ففى عام ١٨٤٤، ثم أيضا فى عام ١٨٥٣، اتصل قيصر روسيا بانجلترا وعرض عليها أن تشترك روسيا وإنجلترا فى اقتسام أملاك الدولة العثمانية ، التى أسماها حينئذ : « الرجـــل المريض » — وهكذا كان يتحدث عنها دائما. وفى هذا العرض أو هذه المؤامرة، جعل «القيصر» مصر وجزيرة كريد من نصيب إنجلترا . ولكن الإنجليز لم يكونوا يثقون فى روسيا، إذ كانوا يدركون أغراضها النهائية . ولم يريدوا أن يتحولوا عن سياستهم التقليدية ، وهى المحافظة على الدولة العليـــة والدفاع عنها ، لكى تظل حاجزا منيعا يقف دائما فى وجه روسيا وزحفها إلى الشرق. وقد كان « بالمرستون » — وزير خارجية إنجلترا ثم رئيس وزرائها — من المتمسكين بهذه السياسة ، بل مستعدا للقتال فى سبيلها .

* * *

كانت « حرب القرم » إذن دورا آخر من أدوار « المسألة الشرقية » ، وهى المسألة التى خلقتها روسيا ودأبت على إثارتها منذ عهد « كاترين الثانية » — وكان ذلك فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر . فلم يكن « نقولا الأول » إلا راميا إلى نفس الأهداف التى كانت تقصد إليها قبله « كاترين » ، فإذ أخفقت مساعيه فى استمالة

إنجلترا أو فرنسا إلى مشاريعه : صمم على البدء فى العدوان بنفسه .

* * *

الحرب : أرسل القيصر — بواسطة سفيره فى الأستانة «منشكوف» — إنذارا إلى «الباب العالى» ، يطلب فيه الاعتراف بحقوق روسيا فى حماية رعايا الدولة المسيحيين ، ومطالب أخرى . فلما رفضت الدولة مطالبه ، سارع بإرسال جيوشه فاحتلت ولايتى (الأفلاق والبغدان) : (أى رومانيا) — فى يوليه سنة ١٨٥٣ . فكان هذا بمثابة إعلان حرب على الدولة .

فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا (فى أكتوبر سنة ١٨٥٣) : ووقف إلى جانبها سفير إنجلترا بالأستانة «لورد ستراتفورد دى ردكليف» ، ووعدها بالمساعدة . وأمرت إنجلترا وفرنسا أساطيلهما بالتوجه إلى «الدردنيل» ؛ حيث لبثا ينتظران تطور الأمور.

ففى (نوفمبر) من نفس العام ، فاجأ الأسطول الروسى أسطولا عثمانيا ، فأغرقه فى ميناء «سينوب» فى البحر الأسود . فاضطرت أساطيل الحليفتين إلى الظهور فى هذا البحر ، مما عدته روسيا إهانة لها : فأصبح الاشتباك فى الحرب وشيك الوقوع . وبعد أن أخفقت المفاوضات السلمية ، التى بدأت بعقد مؤتمر فى (فينا) : وبعد أن رفض القيصر مذكرة للدولتين ، تطلبان فيها إليه أن يتعهد باحترام سلامة الامبراطورية العثمانية ، لم يكن هناك بد من الحرب . فأعلنت كل من

إنجلترا وفرنسا الحرب على روسيا ، فى مارس سنة ١٨٥٤ .

وقد بدأت الحرب فى بلاد البلقان ، لإجبار روسيا على إخلاء الولايتين اللتين احتلتهما . ثم نقل الميدان الرئيسى إلى شبه « جزيرة القرم » — التى منها أخذت الحرب اسمها — لأن مقصد إنجلترا الأول كان هو تحطيم القاعدة البحرية التى أقامتها روسيا فى « سباستبول » والقضاء على الأسطول الروسى .

وقد حدثت مواقع عنيفة بقصد الاستيلاء على هذا الثغر — فى « ألما » و « بلاكلافا » — وذلك فى غضون عام ١٨٥٤ ، ولكن الروس ، بقيادة بطلهم « تودابن » ، دافعوا عنه دفاعا مجيدا . مما اضطر الحلفاء ، إلى قضاء الشتاء فى مواقعهم المكشوفة ، فقاسوا من برد الشتاء القارس ، ومن انتشار الأمراض بينهم ، وسوء التغذية ، آلاما بالغة ؛ وكثرت بينهم الضحايا — إلى جانب مافقدوا فى المواقع من رجال !

ومما يجدر ذكره أن مصر اشتركت أيضا فى تلك الحرب — تلبية لدعوة السلطان « عبد المجيد » — فأرسل عباس باشا الأول (١٨٤٨ — ٥٤) جيشا وأسطولا فى أواخر عام ١٨٥٣ ؛ وقد ودع الحملة بنفسه بخطاب حماسى : واستمرت الحرب إلى عهد خلفه « سعيد باشا » . وقد غرق الأسطول فى البحر الأسود ؛ ولكن الجيش الذى اشترك فى الحرب أبلى بلاء حسنا . وممن أرسل فى هذه البعثة « على مبارك » ، الذى ذهب كأحد مهندسى الحملة .

كذلك فى يناير سنة ١٨٥٥ أرسلت إيطاليا — التى كانت تسعى إلى إتمام وحدتها تحت زعامة «كافور» — أرسلت جيشا لمساعدة الحلفاء، حتى تكون لها مكانة دولية، وتغنم من شروط الصلح.

ثم فى خلال عام ١٨٥٥ نظم الحلفاء أمورهم وعززوا قواتهم، فأخذت الأحوال فى التحسن بالنسبة لهم. وبعد عدة مواقع سقطت «سباستبول» (فى ١٠ سبتمبر ١٨٥٥). وكان القيصر — وهو «نقولا الأول» — قد مات قبل ذلك فى ٢ مارس من نفس العام، وخلفه ابنه الإسكندر الثانى، فحينئذ أصبح الطريق ممهدا للصلح. وانتهت الحرب هكذا بهزيمة روسيا؛ وإن كان الحلفاء تكبدوا أيضا خسائر جسيمة.

معاهدة «باريس» ١٨٥٦ :

وفى باريس، وتحت رعاية الامبراطور «نابليون الثالث»، انعقد مؤتمر الصلح وذلك فى ٢٥ فبراير ١٨٥٦. وتم الاتفاق على شروط «معاهدة باريس».

فكان أهم شروط هذه المعاهدة التى وافق عليها المؤتمر ما يلى:

«أولا»: إعلان حياد البحر الأسود: أى فتكون الملاحة فيه مباحة لتجارة جميع الدول، وتمنع منه السفن الحربيه، سواء أكانت تابعة للدول الواقعة على شواطئه أو لغيرها.

«ثانيا»: لا تنشأ قواعد بحرية على هذا البحر، وتتعهد روسيا بهدم ما بنت من قواعد

«ثالثاً» : تغلق المضايق : (البوسفور والدردنيل) في وجه المراكب الحربية غير العثمانية .

«رابعاً» : حرية الملاحة في نهر الطونة (الدانوب) .

«خامساً» : احترام استقلال الدولة العثمانية ، وسلامة أملاكها .

«سادساً» : اللجوء إلى التحكيم الدولي ، عند حدوث نزاع بين الدولة العثمانية وإحدى الدول .

«سابعاً» : يتعهد السلطان بتحسين أحوال رعاياه من المسيحيين، وبإصدار منشور بذلك . على أن تكون له السيادة التامة على كل رعاياه ، فليس لأية دولة الحق في التدخل بينه وبينهم .

هذا ، وقد أصدرت الدولة العثمانية — فعلاً — المنشور المذكور في المعاهدة ، وهو الذي عرف باسم «التنظيمات الخيرية» ، وهو الذي سنتحدث عنه الآن .

وكانت معاهدة باريس ختاماً لدور من أدوار المسألة الشرقية .

« التنظيمات الخيرية » : ١٨٥٦

ذكرنا من قبل أن الدول — ولا سيما إنجلترا — عادت إلى الضغط على الدولة العلية ، لتصدر «مرسوماً» آخر ، يكون أكثر وضوحاً أو صراحة ، في إعطاء المسيحيين وأهل الملل الأخرى ، من رعايا الدولة ، حقوقاً أو ضمانات خاصة . وقد ظهر لنا أن هذا المرسوم

أصدرته الدولة بمجرد انتهاء حرب القرم،وقبيل انعقاد مؤتمر الصلح ، حتى يكون حجة فى يد إنجلترا ضد روسيا . ثم نص عليه كأحد مواد « معاهدة باريس » .

كان صدور هذا المرسوم — الذى كان أكثر أهمية من القانون السابق الذى أصدرته الدولة فى عام ١٨٣٩ ، وكان له دوى أكبر وترتبت عليه نتائج خطيرة — كان صدوره فى يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٥٦ . وقد كان بمثابة إعلان دستور خاص، للرعايا غير المسلمين من الأوربيين وغيرهم ، جعلهم فى مركز كأنهم يكونون دولة داخل الدولة . وقد عرف باسم « التنظيمات » أو « الإصلاحات » الخيرية أو الجديدة .

بدأت هذه « التنظيمات » بديباجة قرر فيها « السلطان » أن من أهم مقاصده السامية « سعادة أحوال كافة صنوف التبعية (الرعايا) التى أودعها الله إلى يده » . وذكر أن هذا العصر يعد بالنسبة للدولة العلية بدء زمن الخير .

ثم أعلن « المرسوم » أن الإرادة السلطانية صدرت « باتخاذ التدابير الفعالة نحو تأمين كافة التبعية (الرعية)، من أى دين أومذهب كانوا — بدون استثناء — على الروح والمال وحفظ الناموس » . وأكد جميع الضمانات التى منحت فى المرسوم السابق . « خط كلخانة » ، وأمر بإخراجها من حيز القوة إلى حيز الفعل .

ثم نص المرسوم (التنظيمات) على وجوب إبقاء كافة الامتيازات والإعفاءات ، التى منحت فى السنين الأخيرة ، وكذلك التى منحها أجداد السلطان فى العصور السالفة ، للطوائف المسيحية وكافة الملل غير المسلمة ، « الموجودين تحت ظل جناح عاطفتنا السامى ، بممالكنا المحروسة » .

ثم احتوى « المرسوم » بعد ذلك على ذكر التفاصيل والشروط التى بمقتضاها تطبق تلك «الامتيازات» الممنوحة للطوائف فيما يتصل بأنظمتهم الداخلية ، وفى التعليم والقضاء ، وممارسة العبادة . وقرر ، بما أن عوائد كل دين ومذهب موجودة بممالكنا المحروسة، جارية بالحرية فلا يمنع أى شخص من تبعيتنا الملوكية من إجراء رسوم الدين المتمسك به : ولا يؤذى بالنسبة لتمسكه به ، ولا يجبر على تبديل دينه ومذهبه » .

وأقر أيضاً مشروعية إنشاء « المحاكم المختلطة »، التى كانت أنشئت قبل ذلك بعدة سنوات .

وعلى العموم ، فإن « التنظيمات » — إلى جانب هذه الامتيازات التى نصت عليها — ظلت تؤكد فى كل موضع مبدأ المساواة التامة بين الطوائف غير المسلمة وبين المسلمين ، فى مختلف الحقوق المدنية والسياسية ، ومن بينها حق تولى الوظائف، وحق امتلاك العقارات .

وكان من بين نتائج إصدار هذه « التنظيمات » الفتن التى حدثت بعد قليل فى لبنان . وسنتكلم عنها الآن .

٢ — فى لبنان

الفتن الطائفية والسياسية

كانت تلك « التنظيمات » التى أعلنتها الدولة العلية — بضغط من الدول الأوروبية — كانت أحد العوامل التى أدت إلى إثارة الفتن الطائفية فى لبنان ، وكذلك فى جهات أخرى من الدولة .

فإنها ، بدلا من أن تعمل على إدماج العناصر المختلفة بعضها فى بعض ، قد أبرزت الفوارق وأقامت الحواجز بين الطوائف؛ وكأنما أوجدت الأساس لوجود حكومات داخل الحكومة العامة ، كما أنها كانت سببا فى تضخم المطامع ، وأثارت آمالا لم تكن لتتلاءم مع الواقع . ثم من الناحية الأخرى قد أوجدت المبرر لشعور الأغلبية التى تتكون منها الدولة — وهم المسلمون — بالخوف من النتائج التى كانت ستسفر عنها تلك المطامع والآمال ، فدفعهم هذا إلى أن يكونوا يقظين للدفاع عن حقوقهم .

إذ أن هذه « الامتيازات » التى تسلحت بها الأقليات أو الطوائف ، والتى أعطيت لهم نتيجة ضغط الدول المباشر ، كان من شأنها أنها ستجعل مركز الأقليات أحسن وأقوى من مركز الأغلبية نفسها . وإن مساوىء هذه الامتيازات كانت ستظهر فيما بعد : فى مجالات القضاء والاقتصاد والتعليم وغيرها ، وتكون وبالا على الدولة نفسها وعلى الشعوب التابعة لها .

كان هذا أحد العوامل — وهو عامل عام — فى إثارة الفتن فى لبنان وغيرها . أما الأسباب الأولى، أو الأساسية، للفتن الطائفية التى وقعت فى لبنان وسوريا، فى أواسط القرن التاسع عشر ، فترجع إلى شعور الكراهية القديمة وعدم التفاهم — وهما اللذان ينشآن عن انتشار الجهل وضيق الأفق . كما أن بعض الولاة والمتغلبين كان لا يتورع عن إذكاء الكراهية ، وإيجاد أسباب الحقد بين الطوائف ، ليسهل عليه تنفيذ مآربه .

وقد ظهر التنافر بصورة شديدة ، وأثيرت عواطف التعصب الضارة ، بين الفريقين اللذين كان يتألف منهما الوطن الواحد ، وهما : « الموارنة » — وهم الكاثوليك ، والدروز — وهم من المسلمين . وكذلك — بصورة أقل — بين مختلف طوائف المسيحيين : من كاثوليك مخلصين لفرنسا ، وبروتستنت أنجلكانيين تابعين لإنجلترا ، أو برسبتاريين لأمريكا ، ثم أرثوذكس موالين لروسيا .

ظهر التنافر فى أثناء حرب محمد على بالشام ثم فى أعقابها، واستمر بعد ذلك نحو ربع قرن .

ذلك أن محمد على دخل أولا الشام متآمراً مع الأمير « بشير الشهابى » والمارونيين ، ضد الدولة والسلطان ، وشبه حليف لفرنسا. وكان الأمير « بشير » لا يضمر أى ولاء للدوله ، حتى إنه فى الماضى ساعد «نابليون»حين غزا بلاد الشام . وكان هذا الأمير قد تنصر سراً

وأصبح ولاؤه للمارونيين وحدهم . وقد اضطهد الدروز؛ وقتل أكبر زعمائهم وهو الشيخ « بشير جنبلاط » .

فحين احتل محمد على بلاد الشام ، عمل ابنه إبراهيم على اتباع سياسة ترمى إلى ترجيح كفة « المارونيين » وجعلهم أصحاب السيادة . واضطهد « الدروز » — وذلك على الرغم من أنهم وجميع أهل لبنان وسوريا رحبوا بحكمه فى بادىء الأمر ، أملا منهم فى أن يجدوا عهداً يقضى على مساوىء الحكم السابق — وكانت هذه السياسة محققة لمقاصد الفرنسيين ؛ لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم حماة « الكاثوليك » فى كل مكان من بلاد الدولة العثمانية . كما أن محمد على — اتباعا للسياسة نفسها — أذن للبعثات التبشيرية بالقدوم إلى لبنان وسوريا ؛ وسمح لها بمباشرة نشاطها ، فى أثناء حكمه الذى استمر نحو تسع سنوات (١٨٣١ — ٤٠) . فكان فى مقدمة الوافدين بعثات « الجيزويت » : أى اليسوعيين ، التى بدأت عملها فى عام ١٨٣٣ — بعد أن كان نشاطها متوقفاً منذ صادر « البابا » جماعتهم قبل ستين سنة . ثم لحقت بها — فيما بعد — البعثات الأمريكية والإنجليزية . ولم يكن نشاط تلك الإرساليات قاصراً على الدين ؛ بل كل منها كانت تمهد لنفوذ سياسى ، وتعمل على خلق الجو الثقافى المناسب لاستعمار الدولة التى هى تابعها ، أو للاستعمار الأوروبى — بوجه عام .

ولما كانت هذه السياسة التى اتبعها محمد على مؤدية إلى تقوية نفوذ فرنسا، وممهدة لاستعمارها، حيث إن فرنسا كانت تتطلع دائماً إلى احتلال بلاد الشام — فقد عمدت إنجلترا وروسيا إلى معارضته والوقوف فى وجهه. ورأت إنجلترا أن الواجب عليها أن تتصل بالدروز؛ فصادقتهم واتخذت منهم حلفاء لها، لتقاوم بهم النفوذ الفرنسى وحرضتهم على الموارنة الكاثوليك الذين كانوا ممثلين لذلك النفوذ. وكان لها فى نفس الوقت غرض دينى؛ وهو أن تقنع المارونيين بأن لا حماية لهم فى ظل فرنسا، ولا أمان على حياتهم وأموالهم إلا إذا تحولوا من «الكاثوليكية» إلى «البروتستنتية»، وأصبحوا حلفاء لإنجلترا. وكان الأمريكيون أيضاً يشجعون الإنجليز فى هذا السبيل.

* * *

هكذا كان الجو مهيأ للفتن، وقد أثيرت الأحقاد الطائفية وبلغت ذروتها، وذلك فى الوقت الذى احتدمت فيه المعارك السياسية والحربية لإخراج «محمد على» وابنه من الشام. فإذ انسحبت جيوشه فى أواخر عام ١٨٤٠، وأصبحت لبنان فى حالة قريبة من الفوضى. لم يعد هناك مناص من أن تصطدم القوى المتعارضة، وترتطم الأهواء المتضاربة، ولا سيما والدسائس الأجنبية تعمل عملها. ولم تكن المشكلة دينية وسياسية فحسب، بل كان لها جانب اقتصادى أيضاً

فإن إبراهيم باشا كان قد انتزع أراضى كثيرة من الدروز ، الذين ثاروا عليه ، وسلمها إلى الموارنة الموالين له : فعقب خروجه هب الأولون يريدون استرداد حقوقهم ؛ وحاول الأخيرون الاحتفاظ بما صار إلى أيديهم . كما أن الآباء « المارونيين » حرضوا أهل القرى من أبناء ديانتهم على الثورة على الملاك الدروز — وكانوا أغلبية فى الجنوب . وقد أظهر أولئك الآباء تعصبا ، دل على أن حظهم من الثقافة كان ضئيلا ! .

وبالجملة: فإنه وجدت أسباب كافية لاستثارة الدروز. فقاموا بمهاجمة المارونيين . واتخذت المهاجمة صوراً عنيفة دامية . مثلت على فترات.

فكانت الفتنة الأولى فى عام ١٨٤١ . وفيها دخل الدروز « دير القمر » ؛ وارتكبوا فظائع عديدة ، من نهب وسلب وتخريب ، وقتل عدد كبير من السكان. ولم تهدأ الحال إلا بعد أن تدخلت جنود الدولة لقمع الفتنة . وقد قرر « الباب العالى » على إثر ذلك عزل آخر أمير من « آل شهاب » ؛ حيث عين بدلا منه « واليا » عثمانيا . وكان « الباب » يقصد إلى إنهاء الحكم الإقطاعى الذى كان يتمثل فى « آل شهاب » : فقد لبثوا محتكرين الولاية منذ أواخر القرن السابع عشر . وكان « الباب » العالى يريد أن تتبع « ولاية لبنان » الدولة مباشرة ، تحقيقا لمبدأ المركزية . ولذا فإنه اتبع هذه الخطوة بإجراء آخر : وهو ضم مقاطعة لبنان إلى « ولاية طرابلس » ، دون أن تكون لها امتيازات.

ولكن « بطريق » الموارنة عارض فى ذلك ؛ ولجأ إلى الدول طالباً نقض القرار. وقد رحبت الدول بهذه الفرصة للتدخل؛ وأخيراً بضغط الدول ، استقر الرأى على إعادة الامتيازات ؛ وعين لوالى الجبل : « أى لبنان » نائبان — كل منهما يسمى « قائمقام » — أحدهما مارونى والآخر من الدروز ؛ وكذلك عين فى القرى المختلطة السكان وكيلان ، كل منهما يتبع « القائمقام » الذى هو على مذهبه .

على أن المشكلة لم تحل بهذه الإجراءات . وكان الإنجليز يشجعون الدروز على أن يطلبوا السيادة. والدولة العلية تكره أيضاً أن يكون للمارونيين استقلال ، فتكون لهم دولة داخل الدولة ، على حين أن ولاءهم إنما هو للدول الغربية وفى كل فرصة يطلبون تدخلها. فحدثت إذن الفتنة، أو قل المذبحة الثانية فى عام ١٨٤٥ . وقد ذهب ضحيتها عدد كبير من الموارنة، ووقعت اعتداءات على بعض القسس الكاثوليك الفرنسيين؛ وقتل رئيس أحد الأديرة وبعض الرهبان، ولكن مما يلاحظ أنه لم يحدث للمبعوثين الإنجليز والأمريكيين أى أذى. وعلى الفور أرسلت الدولة جيوشها فاحتلت البلاد ؛ وأعلنت الأحكام العرفية فى كل مناطقها . ثم جرت المخابرات بين الدول ؛ فانتهى الرأى إلى أن يكون إلى جانب « القائمقام » مجلس مختلط ، تمثل فيه عناصر السكان، وهو الذى يشرف على الإدارة ، فتكون بذلك مجلسان . كما أنه استمر فى كل قرية مختلطة وكيلان : أحدهما لطائفة الموارنة ، والآخر لطائفة الدروز .

غير أن المسألة كانت أكثر تعقدا وخطورة، من أن تحل بمثل الاجراءات والتشكيلات الإدارية . فما دام هناك تعصب ناشىء عن الجهل، وهناك ضغائن موروثة؛ وهناك عقائد خاطئة فى كلا الجانبين: وهناك أيضا الأغراض الاستعمارية المتعارضة ، واستغلال الدين من أجل مقاصد السياسة والاقتصاد — فإن المسألة ما كان يمكن أن تعتبر أنها انتهت : ولذا كان لا بد أن يعود البركان إلى الانفجار — بعد هدوئه الظاهرى — إذ كان الجو مشبعا بروح التعصب الدينى .

فبعد هذا الوقت بعدة سنوات، حدث الخلاف بين الدول الذى أدى إلى حرب « القرم » ، وكان خلافاً دينيا فى أصله ، بين طائفتى الكاثوليك التابعين لفرنسا والأرثوذكس الموالين لروسيا، كما أوضحنا ذلك من قبل . ثم صدرت « التنظيمات » التى تكلمنا عنها — وذلك فى سنة ١٨٥٦ — فقوت شعور الفرقة ، وأقامت الحواجز بين الطوائف التى تتكون منها الدولة ؛ وأذكت روح التعصب: وكانت عاملا كبيرا فى تهيئة الجو للفتن . ثم أثيرت فتن فى جزيرة « كريد » ، بين المسلمين والمسيحيين. ثم وقع اعتداء فى «جده» بالحجاز على بعض المسيحيين — وذلك فى عام ١٨٥٨ — فما كان من إنجلترا إلا أن أرسلت أسطولها فظل يطلق مدافعه على «جدة» ، نحوا من عشرين ساعة . فكل هذه الأحداث كانت تدل على أن تلك الحقبة من تاريخ الشرق الأوسط كانت مضطربة ؛ وأن العواطف الدينية كانت مختلطة بأغراض ودوافع سياسية واستعمارية .

ففى هذا الجو المشحون بالتعصب ، حدث فى أواخر سنة ١٨٥٩ أن هاجم بعض الموارنة الدروز ؛ وقتلوا عددا منهم . فهب هؤلاء للأخذ بثأرهم ، فنتج عن ذلك مجزرة بشرية هائلة ، لم يسبق لها مثيل ، وذلك فى خلال سنة ١٨٦٠ . وكانت كبرى المذابح . فقد قتل فيها آلاف من الموارنة ، وصحبها التخريب والنهب وارتكبت الفظائع . وامتدت المعركة أيضا إلى «دمشق» ، فجرت فيها مذبحة خطيرة أخرى . لكن فى هذه الأزمة سجل التاريخ للأمير عبد القادر الجزائرى — الذى كان بدمشق إذ ذاك — سجل له أنبل موقف يقفه إنسان تحدوه أسمى العواطف — وهو موقف جدير بالمسلم الحق، الذى يفهم روح دينه — فقد بذل كل الجهد لحماية المسيحيين ، وعمل على إخماد الفتنة وتهدئة الحالة ، مما دعا حكومة فرنسا — وهى التى حاربته من قبل ، سبعة عشر عاما ، حين كان يدافع عن حرية بلاده «الجزائر» — دعاها إلى منحه أرفع وسام للشرف .

هزت هذه المذبحة جميع الدول ، وكادت تؤدى إلى حرب دولية، لولا أن «الباب العالى» بادر بإرسال أحد دهاة ساسته ، وهو الوزير «فؤاد باشا» ، ومعه جيش كبير للقضاء على الفتنة . فحين أرادت فرنسا أن تنتهز الفرصة، لتحقق مشروعها الذى طالما حلمت به — وهو احتلال لبنان وسوريا — وأرسلت جيشها بالفعل إلى «بيروت» لهذا الغرض، متظاهرة أنها ذاهبة لحماية المسيحيين — حين فعلت ذلك وجدت أن تركيا قد سبقتها ، باتخاذ الإجراءات السريعة الصارمة ، فقضت

على الفتنة: وأعدمت مثيريها وأعادت السكينه إلى ربوع البلاد ؛ فلم يعد هناك إذن مبرر لبقاء جنود فرنسا بأرض الشام . ولكنها مع ذلك لم تجل إلا بعد نحو عام — أى فى سنة ١٨٦١ .

* * *

ثم كانت نهاية هذه المشكلة أن اتفقت الدول — بعد مداولات طويلة جرت فى بيروت والآستانة — على أن تتخلى الدولة العلية عن إدارة جبل لبنان مباشرة : وأن تكون للجبل : (أى لبنان) حكومة مستقلة استقلالا ذاتيا ، تحت ضمان الدول ، يكون حاكمها من غير لبنان ، ومسيحيا فى الوقت نفسه . ويكون تعيينه باتفـــاق الدول ؛ ولا يمكن عزله إلا برضاها . على أن تكون هذه الحكومة معترفة بسيادة الدولة العثمانية — أى من الوجهة القانونية .

وصدر بهذا النظام قانون عضوى فى عام ١٨٦٤ . هو الذى ظلت لبنان الداخلية تحكم بمقتضاه ، حتى وقت نشوب الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ . وكان أول حاكم عينته الدول للبنان هو «داود أفندى — ثم باشا» — الذى كان أرمنى الجنس . ثم أقيم إلى جانبه مجلس يشاركه الحكم .

وإذا كانت نهاية هذه المشكلة هى انفصال لبنان ، هكذا — أى من الوجهة العملية — عن الدولة ؛ فقد بات المجال خالياً لفرنسا لنشر نفوذها ، والتدخل فى شئون لبنان ومحاولة استغلال موارده .

وتجلى تدخلها بصفة خاصة فى ميدانى الاقتصاد والتعليم : بما أسست من شركات ، وما فتحت من مدارس. وهكذا أخذت فرنسا منذ ذلك الوقت تبذل الجهد لتصبغ لبنان بصبغة فرنسية ، تمهيداً لاحتلاله حين تحين لها الفرصة .

* * *

على أنه — من ناحية أخرى — كان لهذه الفتنة الكبرى وما سبقها من اضطرابات ، بعض الآثار أو النتائج الأدبية الجيدة . فإنها حملت كثيراً من أهل لبنان على الهجرة من الجبل إلى « بيروت » — وكانت إذ ذاك مدينة صغيرة — فأخذت أهمية « بيروت » تزداد منذ ذلك الوقت ، وتتحول إلى عاصمة للولاية ؛ وصارت مركزاً هاماً للثقافة . كما هاجر كثير منهم أيضاً إلى أقطار الشرق الأوسط ، وكانوا فى الغالب أدباء على اتصال بالثقافات الغربية ، ودارسين لآداب العرب ؛ فاشتغلوا فى مهاجرهم الجديدة بالعلم والتأليف والصحافة . فكان هذا سبباً كبيراً من أسباب النهضة الأدبية والفكرية ، التى حدثت فى الشرق الأوسط — ولا سيما فى مصر — فى خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين .

٣ — مصر بعد معاهدة لندن

١٨٤١ — ١٨٨٢

قناة السويس — الديون

١ — قناة السويس :

كانت إنجلترا وفرنسا تتنافسان على النفوذ ، فى الدولة العلية والشرق الأوسط .

وقد صار نفوذ « إنجلترا » غالباً فى « الدولة العلية » — كما قررنا ذلك من قبل — منذ تدخلت (أى إنجلترا) فى الحرب بين محمد على والسلطان — مناصرة للأخير على الأول — وتمكنت من عقد « معاهدة لندن » عام ١٨٤١ . ولما كانت مصر قد غدت ، بحكم هذه المعاهدة ولاية يعترف حكامها بتبعيتهم للدولة العثمانية ، فإن نفوذ إنجلترا صار ظاهرا فيها : (أى فى مصر) ، أيضا .

وقد اتبع « عباس باشا الأول » (١٨٤٨ — ٥٤) سياسة كانت على النقيض من سياسة جده « محمد على » . فقد وثق علاقاته مع الدولة العلية : ولم يحاول أن ينظر إلى نفسه أكثر من أنه « وال » يطيع أوامر « السلطان » . كما وثق علائقه أيضا مع ممثلى « بريطانيا » . وكان لمستر « مرى » — القنصل الإنجليزى — تأثير كبير عليه .

فتضاءل النفوذ الفرنسي فى عهده .

لذا كان من أوائل الأعمال ، التى نفذها فى ولايته ، فتح الطريق وتعبيده بين « القاهرة » و « السويس » ، لتسهيل المواصلات : من وإلى « الهند »، فيمكن نقل البريد والموظفين والتجار ، بسرعة ، بين الهند وإنجلترا . ثم أتم الخط ، بأن نفذ مشروع مد «السكة الحديدية» مابين « الإسكندرية » و « القاهرة » . فشرع فى هذا العمل فى عام ١٨٥٢ . وعهد بتنفيذه إلى المهندس « روبرت ستيفنسون » — بمعاونة مهندسين مصريين . فوصل الخط فى عهده إلى « كفر الزيات » ؛ ثم أتم فى عهد « سعيد باشا » إلى « القاهرة » ، فى عام ١٨٥٦ .

وكان هذا أول خط حديدى أنشىء فى الشرق — بل من أوائل الخطوط التى مدت فى العالم . وهذا يدل على اهتمام « الإنجليز » بتسهيل المواصلات إلى امبراطوريتهم فى الهنـــد . وبذلك صار الطريق مفتوحا من الإسكندرية إلى القاهرة إلى السويس،ثم إلى الهند فالشرق الأقصى . وأغنى هذا الطريق عن فتح القناة، مدة من الزمن.

٭ ٭ ٭

على أن نفوذ فرنسا ، فى ناحية الثقافة، ظل مستمرا . فأكثر البعثات كانت ترسل إليها . والكتب المدرسية وغيرها تنقل عن لغتها . والمدارس التى فتحتها فى الشرق بقيت تؤدى مهمتها . ثم أخذ نفوذها فى الازدياد فى عهد « الامبراطور نابليون الثالث » : (١٨٥٢ — ٧٠)

الذى كان يسعى لإعادة مجد دولته « فرنسا » .

وأتيحت لها فرصة عظيمة ، حين تولى « سعيد باشا » الحكم (١٨٥٤ — ٦٣) خلفا « لعباس الأول » . فقد كان سعيد صديقا شخصيا لفرديناند « ديليسبس » : بن المسيو « ماتيو — ديليسبس » الذى كان — أى الأخير — قنصلا لفرنسا فى القاهرة فى عهد محمد على . وما كاد « سعيد » يبدأ عهده ، حتى حضر إليه صديقه « فرديناند » وعرض عليه — وهو مرافق له فى رحلة قام بها سعيد ، فى الطريق الصحراوى بين الإسكندرية والقاهرة — عرض عليه مشروعه الذى كان فرديناند يفكر فيه منذ بضع سنوات . ألا وهو حفر قناة توصل بين البحرين : الأبيض والأحمر . وكان « عباس باشا » ، من قبل ، قد رفض هذا المشروع . فلم يتردد « سعيد » فى الموافقة . وعهد إلى صديقه « فرديناند » بوضع الشروط ، كما يختارها . بل قيل إن « سعيد » وقع وثيقة التنازل دون أن يقرأها !

على هذه الصورة العاجلة تم منح فرنسا « امتياز القناة » ، فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ ، الذى تأكد بعقد آخر فى عام ١٨٥٦ .

وبالرغم من أن إنجلترا عارضت المشروع بكل قوة ؛ إذ أنها كانت تخشى على طريق مواصلاتها إلى الهند . وقد قال عنه « بالمرستون » رئيس وزرائها : « مهما تكن الفوائد التى تجنى من هذا المشروع ، فإن هذا البسفور الثانى قد يكون مصدر متاعب سياسية خطيرة » ! —

على الرغم من هذه المعارضة، ومن ضغطها على الباب العالى لكى لا يوافق عليه ؛ فإن العمل بدىء فى هذا المشروع فى ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ . وقد حشد له حينئذ آلاف العمال من المصريين، بطريق السخرة، فحفر عمال مصر القناة بسواعدهم ؛ وأنفقت مصر معظم النفقات التى تطلبها المشروع ، وتنازلت عن أراضيها — كأنما كان كل ذلك لكى تجنى فرنسا ثمراته ، وكذلك الدول الأوربية الأخرى ؛ ثم تكون هذه الخدمة الكبرى التى قدمتها مصر إلى العالم سببا فى أن تفقد حريتها نفسها ، بل كاد أن يقضى عليها !

واحتفل بافتتاح القناة احتفالا فخما ، حضره ملوك أوروبا ؛ وذلك فى عام ١٨٦٩ . وجعل امتياز « شركة القناة » ٩٩ عاما ، منذ تاريخ الافتتاح . .

وكان المتوقع أن يصل نفوذ فرنسا فى الشرق ، بعد نجاح هذا المشروع ، إلى أوجه . ولكن حدث تطور خطير فى الموقف الدولى فى العام التالى: وهو ١٨٧٠ : إذ هزمت فرنسا أمام ألمانيا هزيمة منكرة فى حرب السبعين المشهورة . فبذلك فقدت مكانتها ، كدولة فى الصف الأول . وقضت سنوات وهى مشغولة بشئونها الداخلية، وفى خوف من ألمانيا الجديدة و « بسمارك » . وحينئذ صار المجال خاليا أمام إنجلترا للاستعمار ، وانسير قدما لتحقيق أهدافها بدون منافس . وكانت قبل ذلك الوقت بعدة سنوات : أى بعد وفاة « بالمرستون »

فى سنة ١٨٦٥ .قد غيرت نظرتها إلى مشروع القناة واقتنعت بفوائده. وفكرت أن الأولى لها أن تعمل على أن تسيطر عليه ، بدلا من أن تعارضه .

وقد أتاح لها الخديوى « إسماعيل » — بارتباكاته المالية وسوء تدبيره — أتاح لها أعظم الفرص : فعرض فى الأسواق نصيب مصر من أسهم القناة — وكانت حصة مصر تبلغ ٤٤٪ من مجموع الأسهم — فبادر رئيس وزراء إنجلترا « دزرائيلى » فى ذلك الوقت — وهو يهودى الأصل — إلى اقتناص هذا الطائر السانح ! واشترى أسهم مصر كلها بأبخس الأثمان . ثم أخذت إنجلترا تعد العدة وتهيىء الظروف لغزو مصر .

وكان هذا هو الطريق إلى احتلال مصر بعد بضعة أعوام، وبداية مأساتها المليئة بالآلام والضحايا ، التى استمرت بعد ذلك سبعين عاما. ولا نزال نعانى آثارها إلى اليوم .

* * *

٣ — المديونية :

كان تعهد « سعيد باشا » بتنفيذ مشروع القناة — وفقاً للاشتراطات المجحفة ، التى وضعها ممثل فرنسا « ديليسبس » — كان هو بدء الارتباكات المالية التى وقعت فيها مصر . فبسبب هذا — إلى

جانب إسراف القصر — لم يمت « سعيد » حتى ترك دينا قدره ١١٠٠٠و١٦٠و١١ من الجنيهات . وهو مبلغ كبير بالنسبة إلى قيمة النقد فى ذلك الوقت ، وبالنسبة إلى موارد مصر .

فكان هذا أساس الديون الفادحة ، التى اقترضها خلفه وابن أخيه « إسماعيل باشا » (١٨٦٣ — ٧٩) ، الذى فاق عمه فى النزعة إلى الإسراف ، بل التبديد إلى حد البله ، وفى حبه للتظاهر — زيادة على عدم فهمه للمعاملات المالية الحديثة . فكان فريسة سهلة للمرابين والنصابين ، من الأوربين واليهود .

فمن أجل الإنفاق على قناة السويس ، وعلى الاحتفال الرسمى بفتحها ، بكل مظاهر البذخ — إلى جانب نفقاته الشخصية ؛ وأيضاً لما تطلبه تنفيذ بعض المشروعات العمرانية النافعة — وإن كانت هذه نسبتها فى الواقع غير كبيرة — من أجل هذا كله ، حمل نفسه ثم بلده بأعباء باهظة من الديون ، كانت سبب انهيار حكومتها واضطراب أمرها ؛ وسبب اضطهاد الفلاح ، والطريق إلى الشقاء بل الاستعباد ، لأنها كانت باب التدخل الأوروبى ، الذى كانت نهايته الاحتلال ، وفقد شخصية مصر .

ففى عام ١٨٦٤ استدان « إسماعيل » من بنك « فرهلنج-جوشن » وهو بيت يهودى بريطانى — أول قرض له ؛ وكان مقداره ٠٠٠و٧٠٠و٥ جنيه ، وذلك ليدفع التعويضات التى حكم عليه بها

« نابليون الثالث » لشركة القنال .

واستسهل — أى إسماعيل — الطريق بعد ذلك .

ففى عام ١٨٦٦ توجه إلى نفس البنك أيضاً ، فاقترض ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات .

وفى سنة ١٨٦٧ ذهب إلى « بنك أوبنهايم » — وهو مثل البيت الأول — فاستدان ١١٫٩٩٠٫٠٠٠ : ولكنه لم يتسلمها بعد خصم الفوائد إلا ٧٫٢٠٠٫٠٠٠ — فقط .

وفى عام ١٨٧٠ استلف من بنك « بشوفشين » سبعة ملايين لم يتسلمها أيضاً إلا خمسة — نقداً .

ثم فى عام ١٨٧٣ عقد صفقة — مرة أخرى — مع « بنك أوبنهايم » فكان الدين المحسوب عليه يبلغ ٣٢ مليونا من الجنيهات : ولكن الذى وصل إلى جيبه — بالفعل — ٢٠ مليونا ، لا غير . وضاعت الملايين الباقية فى الفوائد !

وهكذا استمر « إسماعيل » فى الاستدانة ، حتى وصلت ديونه فى عام ١٨٧٥ إلى ٩١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيها . ولم يستطع دفع الفوائد التى وجبت عليه : إذ كان ينقصه لذلك أربعة ملايين . فعرض حينئذ أسهم مصر فى القناة — كما ذكرنا من قبل — لبيعها فى أسواق أوروبا .
فتلقفها المالى البارع « دزرائيلى » ، رئيس وزارة إنجلترا وزعيم

المحافظين ، وأسرع إلى شرائها ، عن طريق « بيت روتشلد » — حتى قبل أن ينال موافقة مجلس العموم — وذلك بأربعة ملايين فقط ؛ على حين أن قيمتها بلغت بعد ذلك نحو أربعين مليونا . وأما قيمتها السياسية فكانت لا تقدر . فقدم هذه الصفقة النادرة، التي ظل الإنجليز — بعد ذلك — يتحدثون بها في «أفلامهم»، هدية إلى مليكته «فكتوريا» فما كان أجلها من هدية ! ولقد علق المستشار الألماني « بسمارك » على هذه الصفقة، بقوله : «إن اليهودى قد اشترى قناة السويس » ! وحقاً ما قال . فإن إنجلترا اشترت بعدها مصر كلها والسودان ، لمدة طالت سبعين عاماً .

وفى عام ١٨٧٦ أعلن الخديوى إسماعيل إفلاس حكومته. وكانت الديون قد بلغت مائة مليون من الجنيهات — عدا « فوائدها » . فما كان من الدول إلا أن تدخلت للإشراف على مالية البلاد. فأنشأت « صندوق الدين »؛ ثم كانت المراقبة الثنائية من إنجلترا وفرنسا؛ وذلك فى عام ١٨٧٦ . ثم ألفت وزارة كان رئيسها نوبار باشا — الأرمنى الجنسية فى الأصل — كان وزير المالية فيها إنجليزيا ، ووزير الأشغال فرنسيا . وقررت الوزارة إنقاص عدد الجيش من ٨٠ ألفا إلى ١١ ألفاً . وأحيل ألفان من الضباط إلى الاستيداع . فكان هذا بدء التذمر ؛ وثار بعض الضباط بالاتفاق مع إسماعيل فأسقطوا الوزارة.

وأخيراً ، طلبت الدول من الباب العالى عزل إسماعيل ؛ فعزل

بتلغراف أرسل إليه من الأستانة ؛ ولم يملك إلا أن يغادر البلاد . فرحل إلى إيطاليا ، وذلك فى يونيه عام ١٨٧٩ .

وهكذا سارت الأمور إلى التدهور ؛ وصار توفيق ووزراؤه خاضعين للأجانب ، ووصلت البلاد إلى شفا الهوة . فكان هذا كله هو الممهد « للثورة العرابية » التى ثار فيها الجيش المصرى باسم الشعب ومحتجا على هذه المفاسد ، وعلى مساوىء الحكم الأخرى . لكن الكلمة — نهائيا — كانت لمؤامرات بيوت المال الأوروبية اليهودية ، تؤيدها الأساطيل والمدافع !

فكان ختام المأساة كلها الاحتلال (١٨٨٢) !: احتلال البريطانيين لمصر ! .

السيد جمال الدين الأفغاني

عصره ودعوته

سواء أصح الحديث ، أم لم يصح ، الذى ورد فيه الإخبار بأن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها : فليس من شأننا أن نبحث هذا الموضوع ، ونحن نتركه لرجال الحديث — سواء أكان هذا أم ذاك ، فإن من الثابت عندنا أى من وجهة النظر التاريخية — وهى حقيقة قد أصبح التسليم بها عاماً أو شبه عام — أنه فى السنوات التى أحاطت بملتقى المائتين : الثالثة عشرة والرابعة عشرة من التاريخ الهجرى ، ظهرت فى أفق العالم الإسلامى شخصية فذة قديرة ، كان لها — بما بذلت من جهد ، وألقت من تعاليم ، وبثت من روح — مثل هذا الأثر : فى أنها جددت للأمة أمر دينها ، وأحيت ما خمد من عزائمها ، وأعادت إليها ثقتها بنفسها : تلك هى شخصية السيد جمال الدين الأفغانى الحسينى : العالم الفيلسوف الصوفى السياسى ، المجاهد ، المربى والزعيم .

لسنا نريد هنا أن نسرد التفاصيل التى احتوت عليها حياته . ولا أن نكتب تاريخاً جامعاً له . فهذا ليس من أهداف هذا الفصل .

ولكنا نريد فقط أن نشير إلى الحقائق البارزة فى حياته تلك : ونعنى بصفة خاصة بأمرين : الطبيعة السياسية العامة للعصر الذى عاش فيه ، والمبادىء التى تكونت منها دعوته . وفى ضوء هذا كله يتسنى لنا أن نحدد مكانته فى التاريخ الإسلامى الحديث .

* * *

ولد السيد جمال الدين — كما اتفقت على ذلك روايات من ترجموا له — فى عام ١٢٥٤ هـ (الموافق : ١٨٣٩ م) بقرية أسعد أباد ، على مقربة من « كابل » عاصمة أفغانستان ، من بيت علم وفضل ينتهى نسبه إلى الإمام الترمذى المحدث المشهور ، وفى عشيرة قوية تعتز بمكانتها وجاهها ؛ ولذا كان الساسة والأمراء يخطبون ودها أو يضطهدونها . وعنى والده بتربيته وتثقيفه ، فتلقى فى « كابل » — وذلك بعد أن انتقلت إليها أسرته — كل علوم الثقافة الإسلامية من فقه ، وتصوف ، وحكمة ، وكلام ، وآداب ، ودرس اللغة العربية أيضاً ، ثم درس بالهند أيضاً الرياضيات ، وجانباً من العلوم الحديثة . ولم يكن المهم أنه درس تلك العلوم ، فكم من الناس درسها غيره . ولكن الله سبحانه وهبه مواهب خاصة ، فكان جمال الدين فى الحقيقة « عبقرية » من العبقريات النادرة ، التى لا تظهر إلا قليلا فى التاريخ . ومن أهم ما ساعد على إنضاج هذه العبقرية ، و إبلاغها حد الإثمار ، تربيته الصوفية . وإلى هذه التربية يرجع كثير من الأسرار

التى تميزت بها حياة جمال الدين،وقوة تأثيره ونجاح مجهوداته ، وعظم نفع الأعمال التى قام بها . بل إن هذه الصوفية الصادقة المخلصة السامية هى المفتاح الأول لشخصيته — بالرغم من غلبة الناحية السياسية أو العلمية عليه . وقد غفل أكثر المؤرخين عن الاهتداء إلى هذا السر أو التنويه به .

اشتغل جمال الدين بالسياسة منذ كان شاباً فى العقد الثالث من العمر ، واضطلع بمهام كبيرة فى الدولة . فبعد تقلده بعض الوظائف فى الحكومة ، اتصل بالأمير « محمد أعظم » ابن أمير الأفغان الكبير « دوست محمد خان ». وكانت سياسة الأفغان فى أواسط القرن الماضى سياسة نشيطة ، كثيرة التقلبات حافلة بالأحداث ، نتيجة نشاط السياسات الاستعمارية وما يصحبها من الدسائس ، التى كانت تديرها الدولتان المتنافستان ، إنجلترا التى كانت تملك إمبراطورية الهند شرقى افغانستان ، وروسيا القيصرية ، التى كانت تواصل الزحف والاستيلاء على الأقطار الإسلامية فى أواسط آسيا .

وقد نجحت الدسائس فى أن فرقت بين أولاد الأمير محمد خان. فعقب وفاته انقسموا وانقسمت البلاد معهم شيعاً وأحزاباً ، ووقعت بينهم الحروب . ورأى جمال الدين أن يؤيد « محمد أعظم » ، ووثق هذا به ، فجعله وزيراً له أو وزيره الأول ، واعتمد على نصائحه واشتركا معاً فى تدبير الأمور . فاكتسب بذلك جمال الدين —

وهو لا يزال شاباً يافعاً — خبرة عملية ؛ وأتيحت له الفرصة ليطلع على حقيقة نوايا الاستعمار الأوروبى وخباياه ؛ وتآمره على إضعاف قوى البلاد الإسلامية تمهيداً لتدميرها ، مما كان له أبلغ الأثر فى تكوين آرائه وتحديد اتجاهاته ، وإثارة وجدانه . ثم انتهت الحوادث بأن تغلب أحد أبناء الأمير — وهو « شير على » — الذى كان مؤيداً من الإنجليز وممداً [illegible] — على أخيه الأمير « محمد أعظم » ؛ فزالت دولته . وحينئذ اضطر جمال الدين إلى مغادرة بلاده — ربما على كره منه ؛ ولم يكن مقدراً له أن يعود إليها مرة أخرى — ولكن هذه الهجرة كانت خيراً وبركة على العالم الإسلامى كله — كما سيأتى لنا بيانه .

* * *

كان هذا العصر الذى عاش فيه جمال الدين عصر ازدهار « الاستعمار » — أو دعنا نسميه ، كما سماه أحد علماء الإسلام المعاصرين : غارة أوربا على العالم الإسلامى .

فكانت إنجلترا قد أتمت استعمارها للهند ؛ وبعد الثورة الكبرى عام ١٨٥٨ أعلنت إنجلترا ضمها إلى أملاكها ، وأخذت تديرها إدارة مباشرة ؛ وبذلك أصبح تحت حكمها ولايات تسكنها أغلبية من المسلمين . وكانت الأفغان مسرحاً للدسائس التى ألمحنا إليها . وكذلك إيران التى كانت

روسيا وإنجلترا تتصارعان — طوال القرن الماضي — على التدخل في شئونها، ووضع اليد على مواردها. وأما مصر فقد كان التنافس الاستعماري فيها قائماً بين إنجلترا وفرنسا — كما بيناه من قبل — وكان والى مصر «إسماعيل» يسوق البلاد سوقا إلى الخراب. فقد باع مواردها ثمنا للربا وأغرقها بالديون، وأسلم رقبتها إلى المرابين ليذبحوها ويسلخوها، كما يشاءون. هذا بينما كانت الدولة العثمانية قد خضعت خضوعاً تاما للدول المستعمرة. وبعد عقد معاهدة باريس ١٨٥٦، التي انتهت بها حرب القرم، أصبحت تلك الدولة كأنها تحت حماية إنجلترا، وصار سفير إنجلترا في الآستانة كأنه الحاكم الفعلي للدولة العلية، وما يتبعها من ولايات.

* * *

ولم تكن الكارثة الكبرى هي مجرد استغلال هذه الدول الأوربية لموارد البلاد الإسلامية، أو تمكنهم من بسط نفوذهم السياسي أو الثقافي: بل كانت الكارثة العظمى هي أن روحاً من الإعجاب بهؤلاء المستعمرين قد أخذت تسرى بين الشعوب الإسلامية. وأخذ جو من الشك يعم أنحاء الشرق، وظهرت دعوة قوية إلى اتباع الغربيين، وتقليدهم في أساليب حياتهم — دون نظر إلى ما كان

منها صالحا ، أو فاسدا — وكان هذا كله مؤديا ، أو سيؤدى لامحالة ، إلى ضعف إيمان الشرق بنفسه ، أو زعزعة ثقته بمبادئه وثقافته وإذ كان الناس على دين ملوكهم ، فقد كان هناك أيضاً عاهلان فى الشرق على رأس هذه الدعوة ، بل كانا يبذلان كل جهد فى سبيل إقناع الناس بها ، ويضحيان بالأموال ليروجا لها ، هما : السلطان عبد العزيز ، خليفة آل عثمان ، فى تركيا (١٨٦١ — ١٨٧٤) والخديو إسماعيل حفيد محمد على ، فى مصر (١٨٦٣ — ١٨٧٩)، فقد كان كل منهما مفتوناً بأوروبا ، مغرماً بما شاهده من المظاهر المادية ، مدفوعاً إلى تقليد الغربيين فى فنون عبثهم ولهوهم ، حتى جهر الأخير — وهو يشعر بالزهو والافتخار — أن « مصر قطعة من أوروبا » ، وكان هذا هو المبدأ الذى عمل له ، كما عمل شبيهه العثمانى : وإن كانت أوروبا لا ترضى — نظراً لما كانت عليه حاله وحال حكومته من تأخر — إلا بأن يكون ذيلا لها — إن قبلت — لا قطعة منها .

فى هذا الجو ، وفى هذا العصر ، نشأ جمال الدين . وقد طوف بأرجاء البلاد فى الشرق والغرب ، وشاهد ودرس ، واطلع بنفسه على حقائق الأمور ، وأحس بهذه الاتجاهات وعرف هذه الدعوات . فأدرك إذن مدى الخطر الذى كان يتهدد العالم الإسلامى ، وسبر عمق الهوة التى كان يدفعه إليها قادته المفتونون وزعماؤه الجهلة ، ليتردى فيها ، فتتحطم قواه المعنوية تحطيما لا يرجى لها إصلاح بعده . كان هذا هو

مفترق الطريق فى حياة العالم الإسلامى ، والأزمة الدقيقة الخطيرة الأثر فى تاريخه . وقد شاءت العناية الإلهية أن يوجد جمال الدين فى ذلك الوقت ، ليؤدى رسالة اختارها له القدر ، من أنبل الرسالات التى قام بها المصلحون وقادة الشعوب ، فى المراحل الحرجة من تاريخ حياة أممهم . وهذه الرسالة تتلخص فى إيقاف الشعوب من الوقوع فى الهوى التى يراد لها أن تتردى فيها ، ومقاومة التيارات والتأثيرات الضارة التى من شأنها أن تؤدى بها إلى التهلكة ، ورفع الغشاوة عن أبصارها وهدايتها إلى سبل الرشاد . فهذا كله يؤدى إلى عرفانها نفسها ، ورد الثقة إليها فى قدرتها وإمكانياتها ، وإحياء آمالها وتجديد إيمانها بمستقبلها ومثلها . وهذه هى الأهداف التى عمل لها جمال الدين ، ووقف عليها وقته وجهوده وضحى ، بكل شىء ، حتى حياته ، فى سبيل تحقيقها .

* * *

نظر جمال الدين ، فوجد أن سبب البلاء وأصل العلة أمران : الاستعمار الأوروبى ، والاستبداد السياسى .

وكان يرى فى وقته أن وسائل إنجلترا فى محاربة الشعوب الإسلامية هى أخطر الوسائل ؛ ولذا عدها العدو الأول .

ومن أكبر ما يمهد للاستعمار ويزيد من قوته ، ويوجد عوامل بقائه ، شعور الإعجاب به ، والوصول إلى الاعتقاد الخاطىء بأن

تفوق أهله يرجع إلى مزية طبيعية فيهم، مع اقتصار النظر على المحاسن الظاهرة ، دون معرفة ماتنطوى عليه من مساوىء وشرور باطنة ، والغفلة فى نفس الوقت عما كانت عليه الحال فى العصور السالفة .

أما استبداد الملوك والولاة بشعوبهم فهو آفة الآفات ، التى نتج عنها الخطر الأول . فلولا حرمان الشعوب من استعمال حقوقها ، وإبعادها عن الاشتراك فى السياسة . ولولا استمرار استغلالها وتسخيرها ، والرضا بيقائها فى الجهل ، وسوقها سوق العبيد، وقسرها على أن تحيا حياة تفضى إلى سقم الجسم والروح — لولا ذلك كله ، وهو نتيجة سياسة الحكام والأمراء المستأثرين بالسلطة — لما أمكن للشعوب فى بلاد الإسلام أن تصبح فريسة للطامعين والمعتدين من أهل أوربا .

وكان « السيد » ينظر إلى ما آل إليه حال العالم الإسلامى، وما كان عليه حاله من قبل من عزة ومنعة ، وماساهم به فى بناء الحضارة وتقدم الإنسانية ، بمجهوداته فى ميادين العلم والعمران . فتثور نفسه ويهيج خاطره ، ويدعو العقول إلى أن تتيقظ والمشاعر أن تتحرك ، ويهيب بالأيدى أن تعمل ، والجماعات أن تتحرر .

وقد وجد جمال الدين أن طرق الإصلاح هى : رفع المستوى الفكرى والروحى لهذه الشعوب ، بنشر الثقافة الاسلامية الأصلية، واغترافها من منابعها الأولى. فكان يدعو إلى إحياء العلوم الاسلامية

والتجديد فيها . وكان درسه بمصر وفى غيرها من البلاد نموذجاً عمليا لما يمكن أن يسار عليه فى فهمها ، وعرضها فى ثوب قشيب يتفق مع روح العصر . وقد حمل عنه هذه الطريقة الشيخ محمد عبده وغيره ، فكان لأعمالهم وتوجيهاتهم العلمية أنفع الأثر .

وكانت القاعدة التى تقوم عليها الطريقة الاجتهاد وتحكيم العقل ، لا التقليد . أما الطريق الآخر للإصلاح فهو تحرير الشعوب من الاستبداد ، ورفع نير الظلم عنها ، إلى أن تصل إلى التمتع بحقوقها السياسية ، وتصير لها الإرادة العليا فى تصريف شئونها وتقرير مصائرها . وفى سبيل ذلك ، كان يعمد السيد دائما إلى إثارة الشعوب وتنبيه الأقوام إلى حقوقهم ، بالأحاديث والخطب ، كما نصح رجال الصحف بأن يكتبوا المقالات ، ويحاولوا الإجادة فيها على أحسن ما تقتضيه الأساليب والقواعد العربية ، فأدى هذا أيضا إلى البدء فى إيجاد نهضة لغوية .

وكان فى مقدمة الأهداف التى بذل جمال الدين كل جهده لتحقيقها العمل على توحيد الشعوب الإسلامية ، أو إيجاد جامعة تلم شملها ، حتى يمكن أن تصبح جبهة قوية أمام أعدائها .

وكان يرى أن مما يقرب إلى هذه الغاية أن تنهض دولة إسلامية واحدة ، وتنمو قوتها ، ثم تمد يدها إلى سائر الدول الإسلامية ، فتحقق نهضة الدول الباقية أيضاً . وقد عمل من أجل ذلك فى مصر ، ثم فى إيران ، ثم فى تركيا .

ولم يحتج جمال الدين، فى اهتدائه إلى طرق الإصلاح هذه — أى فيما يتعلق بالنواحى السياسية — لم يحتج إلى أن ينقلها عن زعماء أوروبا ، ولا عن رجال « الثورة الفرنسية » ولا غيرهم : ولكنه اقتبسها من الإسلام نفسه ومن ثقافته وروحه . فالإسلام يشتمل — فيما يشتمل — على أسمى المبادىء التى تتكون منها الديمقراطية ، ن فى شرائعه — فيما ضمن — الحقوق السياسية للإنسان ، عا إلى الحياة الاجتماعية الرفيعة الفاضلة. وذلك كله قبل أن تصل اوروبا إلى معرفة هذه المبادىء بمئات السنين . ولم يكن مصدر إلهامه غير القرآن والسنة وأعمال سلف الأمة . ولكن جهل الشعوب الإسلامية بمبادىء دينها وحقائقه — أو على الأقل عجزها عن تنفيذ هذه المبادىء — هو الذى أدى بها إلى أن تصبح ذليلة ، وتترك مصالحها ومصائرها فى أيدى حكام غشمة متجبرين لا ضمير لهم ، يعبثون بها كما تشاء أهواؤهم ، ويضيعونها .

☆ ☆ ☆

لبث السيد جمال الدين يدعو طوال حياته إلى تلك المبادىء . وقد طوف بأقطار كثيرة فى الشرق والغرب : فصار شخصية عالمية . فكان قد ذهب إلى الحجاز فى مطلع حياته لأداء فريضة الحج . وحين غادر بلاده توجه أولا إلى الهند ، ثم إلى مصر فترة قصيرة . ثم ذهب إلى الآستانة فأوقع به هناك الجامدون . فعاد إلى مصر ولبث بها هذه

المرة ثمانى سنوات (١٨٧١ — ٧٩) . وبعد أن أخرج منها رجع إلى الهند . ثم زار بعد ذلك أوربا : فزار إنجلترا وفرنسا وروسيا . وفى أثناء ذلك توجه إلى فارس مرتين ، بدعوة من الشاه ناصر الدين . وأخيراً أغراه السلطان عبد الحميد بالذهاب إلى الأستانة : فبقى بها شبه أسير ، حتى اختاره الله إلى جواره ، فى ٩ مارس سنة ١٨٩٧ .

لكن لعل أهم فترة فى حياته كانت تلك التى قضاها فى مصر . فهناك وجد تربة خصبة ولقى نفوسا مهيأة لدعوته : وكانت الأحوال السيئة والظروف البائسة التى أوجدها حكم « إسماعيل » ، ومن سبقه من أفراد أسرته ، قد كونت فى نفوس أهالى البلاد عوامل ثورة . ولكنها كانت فى كونها تحتاج إلى الموقظ والقائد والموجه . فوجدت ذلك فى شخص السيد جمال الدين حينما نزل بمصر : وكفى أنه كان من بين تلاميذه الشيخ محمد عبده وعبدالله النديم وأحمد عرابى وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان، وغيرهم . ولذا فإنه كون مدرسة أو جيلا : كانوا هم الطليعة من بناة مصر الحديثة المجاهدة، من أجل الحرية والنهضة على أسس إسلامية . وما زال أثرهم متصلا إلى اليوم .

كما أثمرت تعاليمه أيضا فى إيران ، فبث فيها من الروح مثل مابث من قبل فى مصر . وكانت ثورته وحملته العنيفة على الشاه هى المقدمة التى مهدت إلى الثورة الدستورية التى قام بها أهل تلك البلاد فى عام ١٩٠٦ . ثم أدت فيما بعد إلى خلع أسرة « قاجار » ، التى كانت تحكم الإيرانيين منذ أواخر القرن الثامن عشر .

كانت قوة جمال الدين فى شخصيته ، التى كانت أظهر الصفات تتميز بها : حدة الذكاء إلى مرتبة العبقرية ، وسعة الأفق ، ونقاء الوجدان ، وحساسية الشعور : وفى طاقته الروحية الكبيرة المستمدة من صوفيته ، التى كانت سريعة التأثير فى كل من يتصل به ، وتمكنه من التغلب على مخالطيه ، وتجذب إليه القلوب — وكان جمال الدين متأثراً بالإمام الغزالى ، يعتبر نفسه أحد تلاميذه فى نزعته الصوفية العملية — كما كانت قوته تصدر أيضا عن إيمانه بمبادئه ، وثقته بنفسه واعتداده بها إلى حد أنه كان يعتبر نفسه كفاء الشاه ناصر الدين أو السلطان عبد الحميد ، حينما يحدثهما ، بل أكبر منهما أيضا . وأيد هذا كله جنان جرىء ، وفهم عميق للثقافة الإسلامية ، ويقين ثابت فى مستقبل الإسلام .

* * *

ولا نرى فى ختام هذا الحديث عنه أوفق من أن نقتبس بعض ماقال عنه بعض المؤرخين الغربيين الذين درسوه بروح خالية من التحيز ، وبعض الأقوال التى أثرت عنه ، والتى تعبر بلسانه عن بعض مبادئه .

فقد قال الأستاذ « براون » : « إن جمال الدين كان فيلسوفا كاتباً خطيباً صحفياً : وفوق ذلك كان سياسيا ... وكان له أثر بالغ فى النزعات الثورية . التى حدثت فى عشرات السنين الأخيرة

فى الحكومات الإسلامية . وكان يرمى إلى تحرير الممالك الاسلامية من السيطرة الأوربية ، وإنقاذها من الاستغلال الأجنبى ، وإلى ترقية شئونها الداخلية بالادارات الحرة المنظمة . كما كان يرمى إلى جامعة تنتظم الحكومات الاسلامية — ومنها إيران الشيعية — لتتمكن بهذا الاتحاد من منع التدخل الأوربى بشأنها » .

ويقول « لوثرب ستودارد » — وهو كاتب أمريكى — : « إن خلاصة تعاليم جمال الدين تنحصر فى أن الغرب مناهض للشرق ، والروح الصليبية لم تبرح كامنة فى الصدور ، كما كانت فى قلب « بطرس الناسك » : ولم يزل التعصب كامناً فى عناصرها ، وهى تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للإصلاح والنهضة .

ومن أجل هذا يجب على العالم الاسلامى أن يتحد لدفع الهجوم عليه : ليستطيع الذود عن كيانه » .

ومما قال السيد جمال الدين نفسه : « إذا لم يبن تقدمنا وتمديننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير فيه ؛ ولا يمكن أن نتخلص من ربقة الانحطاط والتأخر » .

وقال أيضاً — فيما روى عنه : « ما نراه الآن من حالتنا المستحسنة ظاهراً هو عين التقهقر : لأننا فى تمدننا مقلدون للأمم الأوربية . وبسبب ذلك يخشى علينا بعد زمن طويل أن نخنع للذل والسلطة الأجنبية ، أو تتبدل صبغة الدين الاسلامى ، الذى من شأنه رفع راية

السلطة والتغلب ، إلى صبغة خمول وذل بعض الشعوب القديمة » .

ولقد عبر الشيخ محمد عبده عن مدى تأثير أستاذه الروحي، فقال: « لقد أعطاني والدي حياة يشاركني فيها علي ومحروس . أما السيد جمال الدين فقد أعطاني حياة أشارك بها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى ، صلوات الله عليهم ، والأولياء والقديسين » .

وبعد : فإن جمال الدين كان لا يرى أن الاسلام عبادة فقط : ولكنه عبادة وقيادة ، وعلم وسياسة ، وعمل وإصلاح ، وقانون وأخلاق . ولا تزال لتعاليمه هذه جدة : ولا يزال كثير من نظراته صادقة . وما أحوجنا إلى اتباعه والاقتداء بتلك الروح .

ثورة الجيش الأولى :

أو

الثورة القومية الدستورية

بزعامة القائد : أحمد عرابى

كانت الأحوال كلها تدعو إلى الثورة فى أواخر حكم « إسماعيل » وأوائل عهد « توفيق » .

وهذه الثورة — التى عرفت فى التاريخ باسم : « الثورة العرابية » (١٨٨٠ — ١٨٨٢) — كانت هى الثورة الثانية التى حدثت فى مصر منذ ثورة عام ١٨٠٥ : أى أنه مضى ما بين الثورتين ٧٥ عاما. كانت كبرى نتائج الثورة الأولى أنها أدت إلى إقامة أسرة « محمد على »:وكانت الثورة الثانية ضد بعض أبناء « محمد على » : كانت ثورة ضد استبداد هذه الأسرة وسوء حكمها ، وكذلك ضد استبداد العناصر الدخيلة التى احتضنتها هذه الأسرة ، ولم ترد أن تندمج فى القومية المصرية . وثورة كذلك ضد التدخل الأجنبى،الذى كان المقدمة للاستعمار ، فهى كانت إذن ثورة وطنية قومية . ولما كان ممثلوها من طبقة « الفلاح ». كانت أيضاً

ثورة شعبية ضد « أرستقراطية » العناصر غير الأصيلة : وإذ كان فى مقدمة مطالبها إيجاد الحياة النيابية وحكم البلاد بواسطة مجلس يمثل الأمة ، فقد كانت كذلك ثورة دستورية .

ولقد قام بها الجيش ، فكانت ثورة الجيش الأولى فى تاريخ مصر ، وأول ثورة من نوعها فى تاريخ الشرق العربى فى العصر الحديث : ولكنها ظفرت بالتأييد الشعبي من أغلبية الرأى العام : ولذا فإنها كانت تعبيراً صادقاً عن شعور الأمة وإرادتها فى وقتها : وذلك من حيث الأهداف العامة،وإن وجد هناك خلاف حول بعض الوسائل ، والمدى الذى يمكن أن تصل إليه الثورة .

* * *

ولكى تفهم فهما حقيقيا يجب أن نعود إلى ثورة ١٨٠٥ ، التى لم تحقق الغرض البعيد الذى قامت من أجله . حتى نعرف حقيقة التحول التاريخى ، أو الانحراف الذى حدث حينئذ ، وطبيعة حكم الأسرة التى قامت نتيجة لتطور الأحداث إذ ذاك .

فإن زعماء مصر فى ذلك الوقت إنما كانوا يهدفون من وراء مبايعتهم لـ « محمد على » أن يبدأوا حقبة جديدة فى حياة البلاد ، إذ كانوا يريدون أن يحققوا لمصر استقلالها الذاتى ، وأن يقيموا نوعا من الحكم أشبه بالحكم النيابى ، حيث يشعر الولاة أنهم وكلاء الشعب ويعملون من أجل مصالحه . وقد طلبوا من الحكومة الجديدة أن

تضع حدا للمظالم التى عرفت بها عهود العثمانيين والمماليك ، وأن تتعهد بأن تلتزم أحكام الشريعة الإسلامية فى سياستها . ولكن الوالى الجديد — أى محمد على — الذى مكنوه من أن يجنى ثمرات الثورات المتعاقبة التى قامت بها الأمة ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، لم يف بالمواثيق التى أخذت عليه : ولم يحقق هذه الأغراض . لأنه — كما بينا من قبل — لم يكن إلا واليا « عثمانيا » ، ولم يكن رجلا مثاليا ، وإنما الذى كان يرمى له منذ البداية أن يتخذ من إرادة الأمة أداة تمكنه من الوصول إلى الحكم : وأن يؤسس « دولة » يحكمها هو فى حياته ، ثم يورثها لذريته من بعده .

لذا عمد « محمد على » — بعد قليل — إلى إقصاء الزعامة الشعبية ، ثم القضاء عليها . وحكم البلاد حكما مطلقا . ثم جعل همه أن يحول مصر إلى «إقطاعية» كبرى ، تعود خيراتها إليه وإلى أسرته : ولم يكن ينظر إلى مصر إلا على أنها هذه « المزرعة » ، التى ساقها القدر بين يديه ، وإلى المصريين إلا على أنهم « الفلاحون » : أى طبقة الأجراء والعمال التى كتب عليها أن تظل مسخرة لحساب السادة العثمانيين وأمثالهم . فكانت نتيجة ذلك أنه بدلا من أن يضع ثقته فى أبناء البلاد ، وضع ثقته فى بنى جنسه من الألبان — أو « الأرنؤود » ، كما كانوا يسمون فى ذلك الوقت . ثم لما فكروا فى التمرد عليه كون جيشه من السودانيين والمصريين ، ولكنه حرص كل الحرص على

أن يجعل الرؤساء والضباط من الأرنؤود ، ومن أبناء المماليك والأتراك من جنسيات مختلفة ، كما وضع ثقته أيضاً فى الأجانب ، وبخاصة الفرنسيين ، حتى تحول إلى أن أصبح أداة فى يد السياسة الفرنسية .

فهذه — إذن — هى العقلية التى أورثها محمد على لأحفاده من بعده . وقد نجح هو إلى حد كبير فى إضعاف الروح المعنوية ، إن لم يكن القضاء عليها ، وعود الشعب على الذل ، وكاد أن يجرده من كل نزعة إلى المقاومة . وسار خلفاؤه على نفس السياسة : فكان على مصر أن تنتظر نحو ثلاثة أرباع قرن ، حتى تستطيع أن ترفع صوتها ثانية ، ويتكون بها « وعى » جديد ، وتهب لتعلن إرادتها ، وتشهر سيفها فى وجه الطغاة والظالمين .

* * *

فكانت الثورة الثانية إذن التى تلت الثورة الأولى — فى خلال القرن التاسع عشر — هى تلك التى نشبت فى أواخر عهد « إسماعيل »

ولم يكن «إسماعيل» إلا بمثابة الوارث المستهتر المسرف المتلاف ، الذى ورث — من غير جهد — ضيعة عن جـــده : وورث عنه فى نفس الوقت طبيعته وعقليته . فلم يكن له من هم إلا أن يتمتع بثمار تلك الضيعة . ما شاءت له غرائزه وأهواؤه أن يتمتع ، ويبدد منها من غير حساب للعواقب ما تملى عليه شهواته أو مطامعه أن يبدد : وهو

لا ينظر أيضاً ، فى نفس الوقت ، لأبناء مصر إلا على أنهم أجراؤه أوعبيده . ويضع ثقته — مثل جده — فى الأجانب والفرنسيين ، وفى أبناء الأرنؤود والمماليك والعثمانيين — الذين أصبح يطلق عليهم كلهم فى ذلك الوقت — بلا تمييز — : أسماء « الأتراك والشراكسة » ! !

كان إسماعيل حاكما مطلقاً ، لاتحدإرادته بأى قيد ، كما كان هو الرأس الأكبر لدولة « الإقطاع » . وكانت عقليته فى حكم مصر هى عقلية القرون الوسطى — بالرغم من المظاهر الكاذبة والأشكال الزائفة التى اجتلبها من أوربا اجتلابا ، مقلداً فيها الأوربيين ، غير مدرك لروحها ، وغير شاعر أن ليس فيها غناء كبير لأمة مضطهدة مستغلة ، تحكم بالسوط « الكرباج » والسخرة — ولم يكن يدرى أن ملوك أوربا وكبارهم كانوا يسخرون منه ، حينما دعاهم ليعلن لهم عظمته الجوفاء ، عند الاحتفال بافتتاح قناة السويس (١٨٦٩) الذى أنفق عليه الأموال الطائلة من دماء الشعب ومن دموعه ! فكانت السنوات العشر الأخيرة من حكمه من أسوأ العهود التى مرت بها مصر فى حياتها الطويلة ، وقاسى أبناؤها فيها من العذاب والتنكيل والحرمان مالايمكن أن يقارن به إلا الصفحات السوداء من عهود الهمجية الأولى .

فتح إسماعيل مصر على مصراعيها للأجانب ، وأحاط نفسه بالمرابين . وجعل قاعدة تعامله « الربا » ، حتى أغرق مصر بالديون التى لم تستطع أن تتخلص منها إلا بعد أعوام عديدة ، وبعد أن دفعت

ثمنا لها استقلالها وحريتها. وكان رئيس وزرائه فى أكثر سنى حكمه هو « نوبار باشا » . ومن هو « نوبار » هذا ؟ إن هو إلا رجل أرمنى مسيحى لا يعرف التكلم باللغة العربية . فاعجب لرئيس وزراء مصر البلد العربية المسلمة ، وهو غير مصرى، وغير عربى ، وغير مسلم ؟ ! ولذا فإنه لم يكن إلا وكيلا للأجانب ، وممهداً للاستعمار ؛ وهو الذى أوجد « المحاكم المختلطة » ، وهو الذى أسس « المحاكم الأهلية » بعد ذلك ، مدخلا نظم الفرنسيين ، ومحلا قانون نابليون محل شريعة الاسلام العادلة .

أعلنت حكومة إسماعيل إفلاسها فى عام ١٨٧٦ ، وكانت قبل ذلك بعام قد باعت أسهم مصر فى قناة السويس إلى رئيس وزراء إنجلترا « اليهودى » دزرائلى ، بثمن بخس — كما أوضحنا ظروفه فى مناسبات سابقه — وخضع إسماعيل لنفوذ الأوربيين ، ووضع رقبته تحت سكينهم ، ولكنه وضع رقبة البلاد معه أيضاً ! فأنشىء « صندوق الدين » ، ثم فرضت « الرقابة الثنائية » على موارد البلاد ، ثم بلغت الكارثة ذروتها بتعيين وزيرين أوروبيين : أحدهما إنجليزى والآخر فرنسى فى وزارة مصر ، التى كان يرسها «نوبار باشا» الأرمنى أيضاً وذلك فى سنة ١٨٧٨ .

وفى نفس الوقت ، وبالرغم من حالة الذل والافلاس هذه التى

كان يعانيها ، فإنه زج بمصر فى حرب عادت عليها بأبلغ الضرر ، وهى « حرب الحبشة » : فأظهرت ضعف الحكام ، وفساد الإدارة، وخيانة الرؤساء . فما كان منها إلا أن ولدت السخط ، ونشرت روح التذمر وخلقت الثورة . وكان كبار ضباط الجيش وقادته من متعصبي الأتراك والشراكسة الذين يجمعون بين الغطرسة والجهل ، وكانوا أصفياء إسماعيل والمقربين إليه ؛ لأنه يعتبرهم من جنسه ، ولا يزال أبناء البلاد منبوذين ، بعيدين عن حظوته وعن نيل الرتب العليا .

* * *

كانت هذه الأسباب كلها هى العوامل العامة ، التى أدت إلى قيام تلك الثورة التى قادها وحمل لواءها « أحمد عرابى » ، والتى عرفت بعد ذلك باسمه . ولم يكن « عرابى » إلا فلاحا مصرياً مسلماً ، ولد فى قرية « هرية رزنة » ، إحدى ضواحى مدينة « الزقازيق » بمديرية الشرقية ، وقد تلقى العلم أولا على يد والده الذى كان أحد رجال الدين ، ثم حضر هو فى الأزهر بضع سنوات ، فدرس بعض العلوم الشرعية والعربية. وكان من عائلة صالحة اشتهرت بتقواها ، وتابع هو دراساته لكتاب الله وأحاديث رسوله ، فاغترف من تلك المناهل ما قوى روحه المعنوية ، وما أمده بالشجاعة العظيمة التى لا تتولد إلا من الإيمان ، وبذلك أصبح مؤهلا لأن يحتل مكان الزعامة .

وقد ساءه ماوجده من تلك الأحوال التى تثير الأسى ، وتلك

المظالم التي كانت ترتكب في عهد « إسماعيل » ، ثم في عهد ابنه « محمد توفيق » — الذي اعتلى العرش بعد أن تمكن الأوربيون من عزل أبيه في عام ١٨٧٩ — ولم يكن الابن خيراً من الأب — وأحزنه بصفة خاصة ما شاهده من تعصب الأتراك والشركس ، واحتكارهم لمراكز السيادة ، وللمراتب العالية في الجيش والوظائف الكبيرة ، على حين ينظر إلى المصري نظرة الاحتقار ويهان في بلده — وكان عرابي نفسه قد صار مثلا من أمثلة هذا الذل والاضطهاد : فقد بقي تسعة عشر عاماً لم يرق فيها إلى رتبة أرقى من رتبته ، التي كان عليها حين تولى إسماعيل حكم البلاد — فحز كل ذلك الظلم في نفسه . ثم وجد الأجانب قد أصبحوا الآمرين الناهين في البلاد بالفعل : وقد وضعوا أيديهم على مواردها وأشرفوا على إدارتها .

وكانت البلاد قد سرت فيها روح وطنية قوية ، مستمدة من الروح الاسلامية الحية الخالصة ، التي عمل على نشرها المصلح الإسلامي الكبير : السيد « جمال الدين الأفغاني » . الذي هاجر إلى مصر في عام ١٨٧١ وبقي فيها إلى سنة ١٨٧٩ ، حين نفاه « توفيق » في ظروف أثارت الشعور العام ، ولكن بعد أن ترك بها تلاميذه ومريديه ، الذين أشربوا روحه وفهموا دعوته . فكان منهم « محمد عبده » ؛ وكان منهم « عرابي » ، كما كان منهم كثير من رجاله الذين أيدوه .

* * *

لقد عهد «توفيق» بالحكم، بعد ولايته بقليل، إلى «مصطفى رياض باشا»، فمكث رئيساً للوزارة عامين: من سبتمبر ١٨٧٩ إلى سبتمبر ١٨٨١. وكان رياض على شاكلة توفيق: رجعياً وذا نزعة أتوقراطية فحكم البلاد حكما استبدادياً، وكان لا يراها أهلا للتمتع بحكم نيابي. وجعل وزير حربيته شركسياً، من أشد أبناء الشركس تعصبا لبني جنسه، جامداً ضيق الأفق، هو «عثمان رفقي باشا» فجعل هذا قيادة الجيش في أيدي الشراكسة، واضطهد الوطنيين، ومهد لفصل بعض المصريين القلائل الذين كانوا قد وصلوا إلى بعض الرتب العالية، ومنهم عبد العال حلمي وعلي فهمي، اللذين كانا زميلي أحمد عرابي، واللذين عاوناه بعد في حمل لواء الثورة. وكان كل من رياض وتوفيق مستسلما لحكم الأجانب، يعمل لإرضائهم، بل يسعى إلى التقرب منهم، بل لم يكن يفكر في أن يخالف لهم أمراً. فكأن البلاد كانت إذن محتلة بالفعل احتلالا حقيقيا، وإن لم تكن الجيوش قد قدمت بعد إلى البلاد، ولم تضرب الإسكندرية بالقنابل!.

* * *

كانت «الثورة العرابية» إذن ثورة على الاستبداد، والطغيان، والاحتلال. ولقد أجمع رجال الجيش، بعد ما شعروا بهذا الظلم على أنفسهم وعلى أمتهم — أجمعوا على أن يتحدوا إرادات الجبابرة. ويتقدموا بصراحة بمطالبهم إلى ولاة الأمر. فكان أن قدموا عريضتهم

إلى « رياض » فى شهر يناير ١٨٨١ ، مطالبين بالإصلاح . ولكن الحاكمين أخذتهم العزة بالإثم . فقرروا قمع الحركة فى بدئها بالشدة . واعتقال عرابى وزملاؤه بسجن قصر النيل،تمهيداً لمحاكمتهم والتخلص منهم . لكن فرقا من الجيش الباسل حضرت ، فاقتحمت السجن وحررت الأبطال .فقذف الرعب فى قلوب الطغاة ، وسقط فى أيديهم وأذعنوا صاغرين . فعزلوا « رفقى » نفسه ، وعين بدلا منه « محمود سامى البارودى » : ولكنهم عادوا بعد قليل إلى مكرهم ، وعينوا بدلا منه « داود يكن باشا » ، الذى كان مثال الجهل والحماقة .

شعر قادة الجيش بأن حياتهم فى خطر . فحينئذ قرروا هذا الحشد التاريخى فى ساحة عابدين ، فى يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ ؛ حيث طالب أحمد عرابى الخديوى توفيق رأساً بطلبات الجيش والأمة : وفى مقدمتها إسقاط وزارة رياض ، وتشكيل مجلس النواب ، وإبلاغ عدد الجيش إلى العدد المعين فى القوانين . ثم صاح فى وجهه تلك الصيحة التى دوت وجلجلت فى أجواء الزمان ، وسمعتها الأجيال ألا وهى : « نحن لسنا عبيداً ولا نورث بعد اليوم » ! !

إلى هذا الحد نجحت الثورة ، فقد أسقطت الوزارة ، وألف « شريف باشا » — الذى طالب به الرأى العام — الوزارة التالية ، فأجاب مطالب الجيش ، وشرع فى وضع دستور للبلاد . وتم وضع هذا الدستور : وافتتح مجلس النواب بالفعل فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١.

ولكن الدول الأوربية الطامعة — يحالفها ويؤيدها « توفيق » حفيد محمد على — وحواشيه — ما كانت لترضى أن يقام فى البلاد حكم صالح ، أو أن تظهر إرادة الشعب ، أو يسمح لمصر بالحياة والتقدم؛ فأسرعوا إلى تدبير المؤامرات : وتدخلت الدولتان: إنجلترا وفرنسا ، فأرسلتا مذكرة فى ٧ يناير من عام ١٨٨٢ تعلنان فيها تأييدهما للخديوى وحماية عرشه ، وتعلنان غضبهما على قيام الحكم النيابى ، واعتراضهما على حق مجلس النواب فى النظر فى الميزانية .

اضطر شريف إلى الاستقالة ، فألف البارودى وزارته التى لبثت من فبراير إلى مايو ١٨٨٢ : والتى عين فيها أحمد عرابى ناظراً للحربية. وقد أثبت مجلس النواب كفاءته ، ونجح فى إصدار عدة تشريعات هامة لصالح البلاد. وكان يمكن أن تصبح مصر عندئذ دولة ديموقراطية راقية ، وأن تسعى إلى غايات التقدم بخطى واسعة، وتصير من أقوى الدول فى الشرق الأوسط ، وتحتل مكانها بين دول العالم .

ولكن هل كان يرضى الاستعمار بذلك : وهو مؤيد من الخونة داخل البلاد ، ومن الخارج بالأساطيل التى حشدها فى مياه العاصمة الثانية ؟ . وهل كان « عرابى » يستطيع أن يقاوم كل هذه القوى الاستعمارية والرجعية التى كانت متألبة على وطنه ، أو يوقف هذا السيل الجارف الذى مهد له الطريق من قبل ؟ .

إن هذه الجناية التى ارتكبتها « إنجلترا » بضربها « الإسكندرية »

بقنابل أسطولها فى يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ ، على إثر عراك دبره وكلاؤها ، بسبب خلاف بين « مالطى » من رعاياها وسائق عربة وتدميرها للمدينة وإحراقها ، سعياً إلى العدوان على استقلال البلاد واحتلالها — لجريمة يندر أن يكون لها نظير فى التاريخ ، فى وحشيتها وفظاعتها . وإنها لتدل على أن إنجلترا عدوة « الديموقراطية » خارج بلادها ، وهى جريمة لن تنساها أجيال المصريين ، وإن الأبدان لتقشعر من هول ذكراها ، ويندى لها جبين ما يسمونه الحضارة الغربية الحديثة و « القانون الدولى » خجلا !! .

الشيخ محمد عبده ومنهجه

تحدثنا فى فصل سابق عن « السيد جمال الدين الأفغانى » :
وإذا أردنا أن نجمل أهدافه قلنا إنه كان يدعو ويعمل لإيجاد نهضة إسلامية شاملة ، تنقذ الشرق الإسلامى مما انتابه من حالة الركود والضعف ، وتحرره من نير الأجانب ، وتمكنه من أن يستعيد قوته .

ولقد كان في مقدمة من تلقوا الرسالة عن « جمال الدين » الشيخ « محمد عبده » ، الذى قال عنه السيد « جمال الدين » نفسه ، عند رحيله من مصر : « تركت لكم الشيخ محمد عبده ؛ وكفى به فى مصر عالماً » . فالحديث عن جمال الدين يستتبع حتما الحديث عن محمد عبده ؛ فهو الذى حمل اللواء بعده وواصل دعوته ، وأكمل مناهجه .

غير أن الحقيقة العامة التى يجب أن تقرر ، أولا ، هى أنه إذا كانت أهداف الرجلين الكبيرين واحدة ، فإن الشيخ محمد عبده — بعد أن استقل بوضع الخطة لنفسه وذلك بعد أن عركته الأحداث وأنضجته التجارب — اتخذ لبلوغ الإصلاح طريقا يختلف عن طريق السيد جمال الدين ؛ وهذا النهج هو الذى جعل لمحمد عبده طابعه الخاص

وهو الذى به يتحدد مكانه فى تاريخ نهضة الشرق الحديث .

ذلك أن السيد جمال الدين اختار للوصول إلى أهدافه طريق « الثورة السياسية » . وكان جهاده أكثره عمليا ، فلم يتفرغ لأبحاث نظرية . وإنما أوجد مدرسة من الرجال وبث روحا . أما الشيخ محمد عبده فإنه رأى أن يتخذ طريقا آخر : فبدلا من الثورة السياسية ، التى يبدو أنه آمن هو بها أيضاً فى عهد شبابه ، واشترك فيها إلى حد ما ، رأى بعد ذلك أن يوجه جهوده إلى الإصلاح الدينى والنهضة الثقافية والاجتماعية .

فقد تبين له أن الثورة السياسية لا تنجح حقاً إلا إذا كانت الأمة قد بلغت درجة عالية من الوعى الثقافى ، وإلا إذا كان فكرها ووجدانها قد بلغا من النضج قدرا يجعلها تدرك المبادى بوضوح ، وتؤمن بها ، وتثبت عليها وتتحمل الأهوال فى سبيلها . فمن هنا اختلفت طريقتا أو وسيلتا المصلحين ، مع أن الغايات واحدة . وكان هذا تابعا لاختلاف مزاجى الرجلين الكبيرين . لكن كان كل من المنهجين خيرا للعالم الإسلامى ، ومحققا لأهدافه فى التقدم . فإذا قيل إن السيد « جمال الدين » قد أحيا الروح ، فإنه يمكن القول بأن الإمام « محمد عبده » أحيا أو أيقظ العقل . وكان لابد للنهضة الإسلامية الحديثة من وجود العقل والروح معاً ، ليتآزرا ويتعاونا : ولا غنى لأحدهما عن الآخر .

هذه هى الفكرة العامة عن منهج الشيخ « محمد عبده » ، الذى عرف به فى التاريخ . أما فيما يتعلق بحياته فلا نقصد أن نورد وقائعها بالتفصيل : وإنما يكفى أن نذكر أهم الحقائق عنها ، لكى تكون الصورة واضحة عن شخصية الرجل ، والظروف التى عاش فيها ، والتى كون فيها أفكاره .

فأول هذه الحقائق أن حياته وقعت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ؛ حيث إنه ولد قبيل منتصف ذلك القرن . ثم عاش حتى شهد مطلع القرن العشرين ؛ إذ توفى عام ١٩٠٥ . وأهم الحقائق فى دور نشأته أنه كان هناك رجلان ، أو شخصيتان ، كان لهما أكبر الأثر فى توجيه حياته وتكوين نفسيته : هذان هما : السيد « درويش خضر » أحد أخواله : ذلك الرجل الصوفى الملهم ، الذى كان على جانب من الثقافة : فإنه هو الذى حبب إليه العلم وشجعه على المضى فى التعليم فى الأزهر ، وهداه إلى سلوك الطريق الصوفى . وأما الثانى فهو السيد « جمال الدين الأفغانى » ، الذى أوقد الجذوة المقدسة فى صدر محمد عبده ، وعرفه بنفسه ، وبين له طريق البحث والنظر ، وأورثه رسالة الإصلاح . وقد سبق أن اقتبسنا ما قاله الشيخ محمد عبده عن أثر جمال الدين فى تكوينه ، حيث قال إن الحياة التى أعطاه إياها والده هى حياة شاركه فيها أخواه ، اللذان يعملان فى الريف : أما الحياة التى أعطاها له السيد جمال الدين فهى حياة جعلته يشارك فيها الأنبياء — صلوات الله عليهم . وهو يقصد بذلك

الحياة الروحية ، والمستوى الإنسانى السامى ، الذى يبلغه الإنسان إذا أخلص فى دينه واهتدى بهدى الأنبياء — عليهم صلوات الله .

وقد تلقى الشيخ محمد عبده تعليمه العام فى الأزهر ، حيث تخرج فى عام ١٨٧٧ . ثم اشتغل بتدريس التاريخ الإسلامى وفلسفة الاجتماع فى دار العلوم . كما عمل بالصحافة . واشترك ، إلى حد ما ، فى الثورة الوطنية ، وهى التى عرفت باسم «العرابية» . وبعد انتهائها حكم عليه بالنفى . فتوجه إليه « بيروت » . ثم استدعاه السيد جمال الدين إلى باريس ، حيث تعاونا فى تحرير جريدة « العروة الوثق » ، التى كانت حربا على المستعمرين .

ثم عاد إلى « بيروت » فاشتغل ثانية بالعلم : وهناك أملى رسالته فى « علم التوحيد » ، التى جمعها ودونها بعد ذلك فى مصر .

وكانت عودته إلى وطنه مصر فى سنة ١٨٨٨ ، حيث بقى إلى حيث أدركه الأجل ، بعد سبعة عشر عاما « أى إلى سنة ١٩٠٥ . وهذه المرحلة الأخيرة من حياته هى التى كانت أكثر خصبا : وهى التى شعر فيها بالاستقرار ؛ وظهر فيها طابعه ، وغزر إنتاجه ، ووضحت رسالته ومنهجه فى الإصلاح .

فى هذا الدور تولى عدة مناصب : فتولى مناصب القضاء ، ثم الإفتاء : وعضوية مجلس إدارة الأزهر ، ومجلس الأوقاف ، ومجلس شورى القوانين ، وفى كل هذه المناصب كان يرسم خطة الإصلاح

ويعمل لتنفيذها. فترك فى كل من هذه الوظائف التى تقلدها أثرا نافعا. كما أنه كان فى مقدمة المصلحين الاجتماعيين : فدعا إلى تأليف منظمات البر، وتأسيس الجمعيات الخيرية، وبعض الجمعيات التى تعمل لنشر الثقافة العربية وإحيائها، ونقل الثقافة الحديثة.

فهذا هو مجمل الحقائق الهامة فى حياة الشيخ محمد عبده.

* * *

فإذا أردنا بعد ذلك أن نحدد مكانته فى تاريخ النهضة الدينية والفكرية فى العالم الإسلامى الحديث ، قلنا إن مكانة « محمد عبده » أو فضله هى أنه حطم أو بدأ تحطيم قيود التقليد : وحرر العقل من إساره . وعمل على التوفيق بين الدين والعقل . وبذلك أوجد حركة فلسفية جديدة . وفى وقت واحد أعاد للعقل مكانته كما جعل أساس الدين قويا . هذا على أنه لم يغفل شأن الوجدان أو العاطفة الدينية ، ولم يقلل من أثرها ؛ فنادى بأن يكون هناك توازن بين الفكر والوجدان .

وفى كل ذلك كان « محمد عبده » مجدداً : وإماما . ومن هنا استحق وصفه . ذلك لأن المستوى العلمى فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى كان قد انخفض فى خلال القرن الماضى إلى درجة مخيفة : فأصبحت كل غاية التعليم دراسة ألفاظ وعبارات اصطلاحية ، والعكوف على كتب معينة

هي موجزات في العلوم من تأليف المتأخرين ، فنسيت كتب المتقدمين وأصبح النقل والحفظ هو عمدة التعلم . وكاد أن يصير النظر الفردي بالفكر المستقل محرما : وكل فكرة جديدة ينظر إليها على أنها بدعة . وكل اختراع يحسب أنه مخالف للإسلام . وهكذا لو استمر الحال كذلك . لوصل الإسلام إلى وضع يكون فيه متخالفا مع المدنية الحديثة ومع نتائج التقدم العلمي والفلسفة العصرية ؛ ولاتسعت على مر الزمن مسافة الخلف بين الجانبين .

ولكن الإمام «محمد عبده» — ثم من تبعه من تلاميذه العديدين في مصر وسوريا — كانوا في مقدمة من أنقذوا الإسلام من مثل هذا الموقف ، حيث أدركوا روح الإسلام الحقة ، وفهموا فلسفته وحكمته العالية ، وعرفوا مزاياه الذاتية وفضائله التي تتجاوز حدود الزمان والمكان : ثم عرضوا كل ذلك في الأسلوب الحديث الذي يفهمه العقل ويؤيده ، والذي يلائم روح العصر . ومن أجل هذا وصف محمد عبده بأنه رائد الفكر الديني الحديث ، وبأنه مؤسس المدرسة الحديثة ، وبأنه مجدد وفيلسوف ومصلح . وكل هذه أوصاف حق . وقد كون محمد عبده مدرسة من المفكرين ساروا على نهجه ؛ وكان لهم أثر كبير في تطور الفكر في مصر وسورية بخاصـــة ، وفي العالم الإسلامي كله . بعامة .

تجلى منهج « محمد عبده » هذا فى « تفسيره » ، أولا ، هذا التفسير الوافى المحكم للقرآن الكريم ، الذى كتب هو بعضه مباشرة بقلمه ، وروى عنه أكثره تلميذه ، وحامل لوائه بعده ، السيد « محمد رشيد رضا » . فى هذا التفسير تتبين عبقرية الإمام محمد عبده ، وذكاؤه النفاذ ، وعلمه الغزير بالعلوم القديمة والحديثة ، وبلاغته ومنطقه . كما يتجلى منهجه أيضا فى رسالته القيمة « رسالة التوحيد » : وهى التى تدرس إلى اليوم فى كليات ومعاهد مصر والهند وغيرهما ، والتى تجدر أن تجعلها المعاهد الإسلامية عمدة دراساتها لأصول الدين . ويتجلى المنهج كذلك فى المقالات الكثيرة التى نشرها « الإمام » فى الصحف والمجلات ، والتى أثبتها ونشرها تلميذه « السيد رشيد رضا » فى « الجزء الثانى » من التاريخ الكبير الذى ألفه وأسماه : « تاريخ الإمام محمد عبده »

ولكى تتضح الطبيعة العامة لهذا النهج الجديد ، نرى أن تقتبس بعض أقوال « الإمام » محمد عبده نفسه ، التى اشتملت عليها رسالته فى التوحيد ، لأنها تبين الدعوة التى عمل جهده لنشرها .

فمن ذلك قوله : —

« جاء القرآن فنهج بالدين منهجا لم يكن عليه ماسبقه من الكتب المقدسة ... وقص علينا من صفات الله ما أذن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم . لكن لم يطلب التسليم لمجرد أنه جاء بحكايته : ولكنه

أقام الدعوى وبرهن. وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة. وخاطب العقل واستنهض الفكر. وعرض نظام الأكوان، وما فيها من الإحكام والإتقان، على أنظار العقول، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين.»

ثم قال: «وتآخى العقل والدين لأول مرة، فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل.»

ومما قاله أيضا: «أنحى الإسلام على التقليد، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر: فبددت فيالقه متغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك».

ثم قال — متحدثاً عن الإسلام —: «صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته. وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها... علا صوت الإسلام على وساوس الطغاة: وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام. ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام: أعلام الكون ودلائل الحوادث. وإنما المعلمون منبهون ومرشدون، وإلى طريق البحث هادون.»

«فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده، وخلصه من كل تقليد كان استعبده: ورده إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته. مع الخضوع فى ذلك لله وحده، والوقوف عند شريعته.»

وختم قائلا : « بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان، طالما حرم منهما : وهما : استقلال الإرادة ، واستقلال الرأى والفكر . وبهما كملت إنسانيته : واستعد لأن يبلغ من السعادة ماهيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها . »

وليس أبلغ من هذا فى التعبير عن فلسفة « محمد عبده » ، وتوضيح طبيعة الإسلام .

فى أوائل القرن العشرين :

الشرق الأوسط فى دور انتقال

الدولة العثمانية :

كانت « الدولة العثمانية » فى أول القرن الحالى « العشرين » لاتزال حقيقة واقعة . بل إنها كانت كبرى الحقائق فى حياة الشرق الأوسط الإسلامى . وكانت حقيقه رائعة أيضا — فى المظهر على الأقل — بالنسبة إلى سائر شعوب العالم .

كان حكمها لايزال يشمل أرجاء واسعة : فكان يتبعها إقليم « الشام » — هكذا كان فى الغالب يدعى باسمه التاريخى ، الدال على الوحدة — وذلك منذ أن تغلب على دولة المماليك السلطان « سليم الأول » فى عام ٩٢٢ هـ (الموافق ١٥١٦ م) . فظل الشام نحو أربعة قرون يتلقى ولاته وأوامره من « الأستانة » . وكان ينقسم إداريا إلى ثلاث ولايات : (١) حلب ، (٢) فدمشق — وهى الولاية الكبرى ، ويتبعها ما يسمى الآن « شرق الأردن » — (٣) فبيروت ، (وإلى جوارها منطقة لبنان ، مستقلة استقلالا ذاتيا منذ أواخر القرن التاسع عشر) . يضاف إلى ذلك لواء « القدس » : وهو الذى يشرف على الجزء الأكبر من فلسطين .

وكان يتبع الدولة العثمانية أيضا إقليم « العراق » . وذلك منذ أن فتح بغداد ، وتغلب على الأسرة الصفوية الفارسية ، السلطان «سليمان القانونى » عام ١٥٣٤ م . وكان العراق فى بعض العصور ، ينقسم إلى ولايات : (١) الموصل، (٢) فبغداد، (٣) فالبصرة،و(٤) شهر زور. وتمكن المماليك المجلوبون من مقاطعة «جورجيا» من الاستئثار بالحكم فى العراق نحو قرن : ولكن السلطان محمود الثانى ، فى عام ١٨٣٠ ، أرسل جيشا منظما فقضى على دولتهم ، واسترد العراق . فمنذ ذلك الوقت صار العراق يحكم حكما مباشرا ، وأخذ يفد عليه الولاة أو الباشوات من الأستانة ، واحداً إثر الآخر : لايذكر العراق منهم اليوم غير « أحمد مدحت باشا » ، الذى استطاع فى فترة ثلاث سنوات أن يدخل إصلاحات هامة عديدة ،وأخذ بيد العراق فنقله من الظلام إلى العصر الحديث . ومع ذلك فقد بقى العراق متأخرا متخلفا عن ركب المدنية حتى مطالع القرن الحالى . لأن حياته الاقتصادية بقيت خاضعة لإقطاع زراعى متحكم ، يتمثل فى سلطة رؤساء « العشائر » . ولاتزال هذه من المشكلات السياسية والاجتماعية الكبرى فى العراق .

وكان يتبع الدولة العلية أيضا ، حتى بدء الحرب العالمية الأولى ، إقليم « الحجاز » : وإن كان « أشراف مكة » — وهم أسرة علوية ترتفع بنسبها إلى الحسن بن على — قد استأثروا منذ قرون بالحكم فيه ، فصار وراثيا بينهم . ولعهد قليل انتزعه « آل سعود » منهم ، حين كونوا

دولتهم بنجد وجزيرة العرب ، فى مطالع القرن التاسع عشر . ثم استرده « الأشراف » ثانية ، وبقوا حاكمين الحجاز إلى عهد « الشريف حسين » ، وابنه « على » فى القرن العشرين — وهما آخر من حكم الحجاز من هذه الأسرة .

وفى أوائل القرن الحالى ، كان « آل الرشيد » فى نجد — حيث كانت دولة آل سعود قد تقوضت لعهد قصير — يدينون بالولاء للخليفة العثمانى . كما كان يتبع الدولة أيضا إقليم « الأحساء » ، الذى ضمه مدحت باشا إلى العراق فى أثناء ولايته؛ وإمارات أخرى صغيرة فى شبه الجزيرة .

وكانت طرابلس — وهى ليبيا — لاتزال تابعة أيضا للدولة العلية ، وخالية من النفوذ الأجنبى ، إذ لم تكن إيطاليا قد أغارت عليها بعد .

أما مصر — هذه الوحدة الكبرى فى الشرق الأوسط — فبالرغم من أن الاحتلال الإنجليزى كان قد دهمها ، نتيجة لعجز وضعف وخيانة الأسرة التى كانت تحكمها ؛ وكانت كل جهودها موجهة لمكافحة هذا الاحتلال ، فإنها كانت تشعر أيضا أنها مرتبطة برباط عاطفى وثيق بالخلافة ، وكانت لاتزال مؤمنة بالوحدة التاريخية الروحية : كما كانت لاتزال — من الناحية القانونية الشرعية — متصلة بالدولة العثمانية ، وفقا لشروط معاهدة « لندن » المعقودة عام ١٨٤١ ، إذ أن الاحتلال

الذى جاء بعد ذلك لم يكن شرعيا ، ولم يكن له أى سند ، بل كان مجرد اغتصاب ، وعدوان غاشم سافر .

جمعية الاتحاد وإعلانه الدستور .

هكذا كان السلطان « عبد الحميد » (١٨٧٦ — ١٩٠٩) — الذى خلف ثلاثين من آبائه تعاقبوا على العرش — لايزال فى مطالع القرن العشرين يحكم دولة ، بل امبراطورية مترامية الأطراف . كان بلاطه فى « يلدز » لايزال يمثل الأبهة والفخامة التى كان يمثلها بلاط الخلفاء العباسيين أو السلاطين السلجوقيين . وينظم الشعراء المعلقات الفريدة ، وتدبج الصحف المقالات الطويلة فى مدحه . ولم يكن أحد يستطيع أن يتنبأ عن ثقة — اللهم إلا إذا كان السياسى المحنك أو المؤرخ المطلع يستطيع أن يفعل ذلك — بأن نهاية هذا السلطان ، ثم خاتمة تلك الدولة ، ستكون قريبة . ولكن العوامل فى الحقيقة كانت تتجمع ، وكانت الأسباب تتكاثر ، التى كان من شأنها أنها — بعد بضع سنوات فقط من بدء القرن الحالى — أدت إلى إسقاط السلطان ؛ وظلت الأمور تتغير وتتطور ، حتى استقرت إلى غايتها بإلغاء الدولة كلها ، وظهر فى تركيا نظام جديد . كما تكونت نظم ووجدت ظروف جديدة فى حياة أقطار هذا الشرق الأوسط ، التى ذكرنا طرفا من تاريخها آنفا .

كانت الأداة القوية ، التى أدت إلى هذا الانتقال والتغيير ، جمعية

نشأت صغيرة أولا ، ثم أخذت تنمو ويتكاثر عدد أفرادها. تكونت في المنفى بعيدة عن أرض السلطان ، في باريس أو غيرها من عواصم أوروبا ؛ ثم أخذت مبادؤها تتسرب ويشعر بنفوذها داخل المملكة وينضم إليها كثير من أفراد الشعب . ولكن تأثيرها الأكبر ومركز قوتها كان بين أوساط الجيش؛ فاعتنق مبادئها عدد كبير من الضباط الأحرار . وإذ شعرت بقوتها أخذت تضع الخطط وتعد عدتها لإحداث انقلاب تاريخي ، تتخلص الدولة على أثره من السلطان الاستبدادي لآل عثمان ، ويهيأ الجو لإيجاد حياة دستورية سليمة تستطيع الأمة عن طريقها أن تعبر عن رغباتها وتنفذ إرادتها . كانت هذه الجمعية فرعا أو وليدا لجماعة «تركيا الفتاة» التي أسسها الرجل الحر الثائر « مدحت باشا » . وقد مات هذا الرجل، أو اغتيل بالسم، منفيا بالطائف عام ١٨٨٣ . ولكن مبادئه ظلت حية في صدور أتباعه ومريديه . فلم تمض إلا سنوات قليلة ، ظهرت فيها الآثار السيئة لحكم عبد الحميد جلية أمام أعين الأمة ، حتى هب الأحرار من أبناء تركيا يسعون لتدارك الحال : فكان من أثر تلك الجهود تكوين « جمعية الاتحاد والترقي » : وهي هذه الجمعية التي كتب لها في التاريخ أن تحدث هذا الأثر الهائل في تاريخ تركيا والخلافة ، ثم في تاريخ الشرق الأوسط بأكمله ، بل في تاريخ العالم .

أحكمت « جمعية الاتحاد والترقي » خطتها ، وحزمت أمرها ؛

وقامت بثورتها فى خلال شهر يوليو من عام ١٩٠٨ . بدأت فى مدينة « سلونيك » بمقدونيا ، وأخذ جيشها يزحف نحو العاصمة ؛ فانضمت إليه فرق الجيش ، وسلمت إليه الحملات التى أرسلها عبدالحميد لقمعها. وهكذا نجحت الثورة وأسقط فى يد عبد الحميد،فلم يستطع إلا الإذعان وأعلن أنه مستعد لإجابة طلبات الأمة . وقرر فتح البرلمان الذى أغلقه ، وإعادة الدستور الذى ألغاه ، يوم أن نفى زعيم الأحرار فى تركيا « مدحت باشا » — وكان ذلك قبل ثلاثين عاما. واستولى زعماء الحركة ، وفى طليعتهم أنور ونيازى بك وشوكت بك ، وغيرهم ، على الحكم ، ولم يعد للسلطان أمر ولا نهى ؛ ثم قرروا خلعه نهائياً فى عام ١٩٠٩ ، حين حاول أن يقوم بثورة مضادة . وبذلك بدأ عهد « الاتحاديين » فى تركيا والشرق الأوسط والبلقان .

* * *

كان فرح الناس — ولا سيما الأحرار — بنجاح هذه الثورة عظيما ؛ فانتعشت الآمال ، وتطلع الجميع لمستقبل زاهر وعهد مشرق من الإصلاح . ولم يكن فرح العرب بأقل من فرح الترك أنفسهم بزوال عهد الحكم الفردى المستبد . وكان لكلمة الدستور أثر السحر فى كل قلب : فكل إنسان ظن أنه بمجيء الدستور سيقضى على كل فساد ، ويبدأ كل صلاح . ظن الناس فى الشام والعراق والحجاز وغيرها أن دولة إسلامية فتية جديدة بدأ عهدها : وأن اتحاداً

وثيقاً سيكون بين كل الأقطار التى يتكون منها الشرق الأوسط الإسلامى بما فيه تركيا . وإذا أردنا أن نأخذ صورة من هذا الفرح الغامر الذى شمل كل قلب ، فلنصغ — مثلا — إلى بعض ما قال حافظ وشوقى من شعراء مصر ، إشادة بالعهد الجديد وتحية لرجاله :

قال « حافظ » من قصيدة عنوانها « عيد الدستور العثمانى » ، أنشدها فى حفل جامع أقيم بحديقة الأزبكية ، فى مساء يوم الجمعة ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٩ م — قال :

أجل : هذه أعلامه ومواكبه ... هنيئاً لهم فليسحب الذيل ساحبه
هنيئاً لهم ، فالكون فى يوم عيدهم ... مشارقه وضاءة ومغاربه
رعى الله شعباً جمع العدل شمله ... وتمت على عهد الرشاد رغائبه

إلى أن قال — مشيراً إلى رجال الثورة : —

ثلاثة آســـاد يجانبها الردى ... وإن هى لاقاها الردى لا تجانبه
روت قول « بشار » فثارت وأقسمت ... وقامت إلى « عبد الحميد » تحاسبه
(إذا الملك الجبار صعر خده ... مشينا إليه بالسيوف نعاتبه !)

ثم قال :

فمن لم يشاهد « يلدزا » بعد ربها ... وقد زال عنه الملك واندك جانبه
وقلمت الأقدار أظفار بطشه ... ودل على ما تجهل الجن حاجبه
ولم يغن عن عبد الحميد دهاؤه ... ولا عصمت عبد الحميد تجاربه

ولم يحمه حصن ولم ترم دونه دنانيره والأمر بالأمر حائربه
وأصبح فى منفاه والجيش دونه يغالب ذكرى ملكه وتغالبه

...

مضى عهد الاستبداد واندك صرحه وولت أفاعيه وماتت عقاربه
لك الله يا (تموز)[1] إنك بلسم لجرحى الأسى، والدهر تعدو نوائبه
فديناك من شهر أغر محجل أوائله ميمونة وعواقبه
تقابله الأعياد فى الأرض كلما تجلى هلال الشهر أو لاح حاجبه

إلى آخر القصيدة . .

أما « شوقى » فقد قال :

سل « يلدزا » ، ذات القصور هل جاءها نبأ البدور ؟
لو تستطيع إجابة لبكتك بالدمع الغزير
أخنى عليها ما أنا خ على الخورنق والسدير

...

أين الأوانس فى ذرا ها من ملائكة وحور
المترعات من النعيم الراويات من السرور
الآمرات على الولا ة الناهيات على الصدور

---

(١) تموز هو شهر « يوليو » ؛ ويبدو أنه شهر الثورات .

إلى أن قال :

« عبد الحميد » حساب مثلك في يد الملك الغفور

سدت الثلاثين الطوال : ولسن بالحكم القصير

تنهى وتأمر ، مابدا لك ، في الكبير وفي الصغير

لا تستشير : وفي الحمى عدد الكواكب من مشير

كم سبحوا لك في الرواح وألهوك لدى البكور

ثم قال يخاطب الجيش الذي قام بالحركة :

يا أيها الجيش الذي لا بالدعي ولا الفخور

كالليث يسرف في الفعال ، وليس يسرف في الزئير

الخاطب العلياء بالأرواح ، غالية المهور

يتلو الزمان صحيفة غرا مذهبة السطور

في مدح (أنورك) الجرىء وفي (نيازيك) الجسور

يا (شوكت) الإسلام : بل يا فاتح البلد العسير

إلى آخر ما قال :

وفي قصيدة أخرى مطلعها :

بشرى البرية : قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميها

— قال :

يا شعب عثمان : من ترك ومن عرب حياك من يبعث الموتى ويحييها

صبرت للحق حين النفس جازعة　　والله بالصبر عند الحق موصيها
نلت الذى لم ينـله بالقنا أحـد　　فاهتف (لأنورها) وأحمد (نيازيها)
ما بين آمالك اللائى ظفرت بها　　وبين (مصر) معان أنت تدريها

＊ ＊ ＊

فكل هذا يدل على عظم الفرحة التى شعرت بها النفوس فى كل أقطار الشرق ؛ لما كللت به هذه الحركة الدستورية التى تهدف إلى الإصلاح من نجاح . ولبث الجميع يترقبون ما تسفر عنه الحركه من خير النتائج ، وأعودها بالنفع على الأمة ومستقبلها وعلى الدين . وما ستحققه من أعمال عظام . ولكن هل برر المستقبل ما شعر به الناس من الفرح فى هذه اللحظة ؟ وإلى أى حد حققت الثورة الآمال ؟ وما هو الحكم الذى سجله التاريخ عليها ؟

(٢)

عهـــد « الاتحاديين »

١٩٠٨ — ١٩١٨

لم يكد « الاتحاديون » يفرغون من تهنئة أنفسهم بنجاح الحركة ، حتى هبت عليهم عاصفة لم يستطيعوا مقاومتها : فإن دول الغرب قد خشيت أن يؤدى قيام الحركة إلى تجديد قوى الدولة العثمانية، وبرئها مما أصيبت به من أمراض ؛ فبادورا إلى انتهاز الفرصة وتنفيذ مآربهم قبل أن يتم هذا التجديد .

بادرت « بلغاريا » إلى إعلان استقلالها ، فانقطعت منذ ذلك الوقت كل صلة بينها وبين الدولة ؛ وضمت النمسا إليهـا مقاطعتى البوسنة والهرسك (فى يوجوسلافيا الآن) ; وأعلنت « كريت » انضمامها إلى اليونان . ولم يستطع رجال العهد الجديد إلا أن يعترفوا بهذه التغيرات مضطرين ، بعد قليل : فشجع هذا إيطاليا ، إذ أن ما اتفق عليه فى مؤتمر « برلين » (١٨٧٨) من ضمان حدود الدولة قد صار منقوضا : فما كان منها إلا أن أرسلت أسطولها ، وبدأت باحتلال « ليبيا » وضرب طرابلس عام ١٩١١ . وكان هذا عدواناً سافراً غاشماً بدون أى مبرر — كعمل القرصنة تماماً . فأثار هذا غضب الأحرار فى كل مكان: ووقف العرب وقفة مجيدة إلى جانب الأتراك، لمنازلة هذا المعتدى الغاصب والدفاع عن كيان ليبيا .

ثم اتحدت دول البلقان : وكونت « حلفا مقدسا » فى عام ١٩١٢

وهاجمت كلها تركيا : فكانت حربا عنيفة : ولم يكن « الاتحاديون » قد أتموا استعداداتهم ، فاستولت الجيوش المهاجمة على مدن ومواقع عديدة ، وسقطت « أدرنة » : ووقف المهاجمون على بعد قليل من العاصمة . استبسل الأتراك فى الدفاع ، ثم لما حانت لهم فرصة بوقوع الشقاق بين المتحالفين بدأوا الهجوم : فاستردوا بعض المواقع ، وحموا شرفهم . وانتهت الحرب بمعاهدة بوخارست عام ١٩١٣ ، التى بها تم الاعتراف باستقلال كل دول البلقان ، وانفصالها نهائياً عن تركيا .

* * *

لكن إذا كان هذا يعزى إلى سوء الحظ ، أو أنه كان أمراً متوقعاً نتيجة لما ابتليت به البلاد من فساد لعهد طويل ، ولم يعط رجال العهد الجديد الوقت الكافى لمعالجته ، فإن الكوارث الكبرى التى كانت ستصيب الدولة بعد قليل، والفشل الذريع الذى كان سيمنى به الحكام الجدد — كان ذلك كله نتيجة أخطاء متعمدة ، وثمرة لسياسة ضالة، وعاقبة اتباع مبادىء قد استوردت من الخارج ، وأريد تطبيقها بالقوة ، مع عدم ملاءمتها لطبيعة الأمة وعدم اتفاقها مع تطورها التاريخى . ذلك أن أعضاء جمعية الاتحاد كانوا فى الغالب من شباب تلقى تعليمه فى بيئات الغرب ، وقضوا شطراً من حياتهم فى عواصم أوروبا : فنشأوا مفتونين بنظم الغرب وثقافته ، وحشوا أدمغتهم بنظريات ومبادىء لا تصلح للتطبيق فى غير موطنها . كما أن من المحزن

أن معرفتهم بالإسلام كانت ضئيلة ، وفهمهم لحقيقة مبادئه أو لطبيعة تاريخ أمتهم كان مضللا ، أو على غير أساس . ومن الثابت أن « جمعية الاتحاد » كانت خاضعة لتأثير الجمعيات « الماسونية » ، وكان نفوذ اليهود غالباً وظاهراً وسط محيط تلك الجمعية : فاليهود أمدوا الحركة وعاونوها بمختلف الوسائل : فكانت فلسفة تلك الحركة إذن خليطا من مبادىء غربية نظرية ، وعواطف عنصرية ضيقة ، ونزعات سياسية مخربة ؛ ولهذا فإن الحركة — فى الأمد الطويل — لم يقدر لها النجاح ، بل أصابت الأمة بصدمة شديدة من خيبة الآمال ، وكانت فى النهاية كارثة أطاحت ، ليس فقط بالنظام الجديد ورجاله ، بل بالدولة كلها ، وكادت تطيح بتركيا نفسها كأمة أو دولة مستقلة ، لولا جهود قام بها فى آخر لحظة رجال جدد .

كانت الآفتان اللتان أودتا بالحركة هما : اتجاهها غير الإسلامى ، ونزعتها العصبية القومية الضيقة . فقد عمد رجال العهد الجديد إلى إهمال شأن الدين ، وآثروا أن يتبعو سياسة مدنية أو زمنيه ، أو حتى (لادينية) . وهذه إحدى الثمرات المباشرة لاتصالهم باليهود . كما أنهم بذلوا كل الجهد لإحياء العصبية القومية ، وبرزت فكرة « التركية » والاعتزاز بالأصل التركى ، وعملوا على صبغ الدولة كلها بالصبغة التركية : وأرادوا أن يحاولوا المستحيل ، وهو محو العصبيات الأخرى

وإزالة الأجناس المختلفة بمجرد إصدار التشريعات، وبسلطان الإدارة وبالإكراه. كان إحياء القومية التركية وظهور هذه العصبية الذميمة أحد العوامل القوية التي أدت إلى التعجيل بظهور قوميات أخرى، كنتيجة مضادة أو كرد فعل. فلما ظهر القومية العربية؛ واضطر العرب إلى أن يقاوموا، وكلما ازداد اضطهادهم، وكلما ثقلت وطأة السياسة الاستبدادية عليهم، ازدادت مقاومتهم وصلب عودهم، وأمعنت شخصيتهم في البروز، فنشطوا للمطالبة بحقوقهم؛ وتألفت الأحزاب ووضعت البرامج، وأخذت الأهداف تتحدد.

كان من الأحزاب التي ألفت حزب يدعو إلى الاستقلال الذاتي للولايات، سمي « حزب اللامركزية العثماني »؛ وكان مقره مصر. وجمعية « العهد »، تكونت من الضباط العرب في الجيش؛ وجماعة « فتيان قحطان »، وحزب « الإصلاح » وغير ذلك. وقد أساء الحاكمون فهم الغاية من وجود تلك الجماعات، فظنوا بها شراً وعمدوا إلى اضطهادها والتنكيل بأفرادها. ولم يفهموا معنى المعارضة فكانت المعارضة في نظرهم ثورة على الوضع القائم، وعصياناً ومخالفة لما يوجبه القانون. وهكذا انقلبت تلك الحركة، التي قامت من أجل حماية الحقوق الدستورية وإعلاء كلمة الأمة — انقلبت إلى نظام استبدادي، وإلى حركة ضغط وإذلال، ولم يصبح لأصحابها

غاية إلا الاستئثار بالسلطة لذاتها ، والتمتع بالنفوذ ، بل العمل لجلب منافع شخصية أيضاً .

* * *

ثم ارتكب « الاتحاديون » غلطتهم الكبرى فانضموا إلى جانب « ألمانيا » فى الحرب العالمية الأولى . والواقع أن من أكبر الخطأ أن تقذف دولة ناهضة أو ناشئة بنفسها فى أتون الحرب : كما أن من الخطأ المطلق أن تشترك أية دولة إسلامية فى حرب للدول الأوربية : فليست لها أى مصالح مباشرة فيها . وإن هذا الاشتراك فى الحقيقة لا يكون إلا استغلالا ، بل تسخيرا . وعين الاتحاديون أحد كبارهم ، وهو «جمال باشا» قائداً لجيوشهم فى الشام، فجند الرجال وجمع الأموال : ولكنه مع ذلك اتبع سياسة استبدادية فى حكمه للشام ، وقاوم كل حركة ، وشك فى كل هيئة . ولما وقع فى يده بعض الأوراق التى أظهرت أنه حدث اتصال بين بعض رجال سوريا وجهات أجنبية ، تحول إلى وحش ضار ، وملأ السجون بالأحرار ، ونصب المشانق . فأعدم ، وعذب ، ونفى ، وذهب ضحية هذه السياسة الطاغية الخرقاء كثير من خيرة رجالات سوريا ، وشقى كثير من الأبرياء : ولذا فإنه لقب بحق « جمال باشا الجزار » . وهنا استقر اليقين وثبت الاعتقاد بأن لا حياة للعرب مع الترك على هذا الوضع وأن الأمة العربية يجب أن تعمل لاستقلالها، ويجب أن تنتقل إليها الأمانة

إذ ذاك فتحمل هى عبء الدفاع عن الإسلام وأهله ، وتصير مركز ثقافته ومصدر تأثيره الروحى — كما أراد الله لها ذلك من قبل ، حين حمت الإسلام فى نشأته ، وناضلت تحت لوائه ، وأخضعت له أعداءه .

أثارت هذه السياسة الجائرة ، وهذا التعصب الذميم ، سخط العرب الأحرار فى كل مكان . وكان « الحلفاء » — وفى مقدمتهم إنجلترا — يسعون لضم أنصار لهم ، فوجدوا فى هذا الشقاق فرصتهم السانحة . وكان الشريف « حسين » فى مكة على خلاف مع الحكومة التركية ، ومهدداً بالعزل ، فاتصل بهم ومناه الانجليز الأمانى ، ووعدوه بالملك ؛ وأغدقوا عليه المال . ولما وقعت الاضطهادات وحدثت مجازر الشام ، كان الرأى العام العربى مهيأ لاحداث انقلاب ، فتزعم « حسين » الثورة ، وأعلن انضمامه للحلفاء وخروجه على الدولة (١٩١٦) . وانقض — بتدبير الحلفاء — على الحامية التركية فى مكة والمدينة فقتل وأسر ، ثم نادى بنفسه ملكا ، وأخذ يكون جيشاً للزحف إلى الشمال لمساعدة الحلفاء . ولكن الإنجليز فى الوقت الذى اتصلوا فيه بالشريف ومنوه الأمانى ، كانوا قد اتصلوا أيضاً بجهات أخرى ، وعقدوا اتفاقيات متضاربة : عقدوا معاهدة سرية بينهم وبين روسيا وفرنسا ، تهدف إلى اقتسام أقطار الشرق الأوسط عقب هزيمة تركيا ، وعقدوا اتفاق « سايكس — بيكو » ، بينهم وبين فرنسا ، لاقتسام نفس الأقطار بين

الحليفتين ؛ واتفقوا مع اليهود على إقامة وطن قومى لهم فى فلسطين. أو بعبارة أخرى التمهيد لهم لامتلاكها ، وأعلن هذا فى التصريح الشهير الذى أذاعه « بلفور » ، وزير خارجية انجلترا ، فى نوفمبر سنة ١٩١٧ .

وانتهت الحرب العالمية بهزيمة ألمانيا وتركيا هزيمة ساحقة (١٩١٨) وكانت القوات المتحالفة ، جاعلة قاعدتها مصر ، ومستمدة منها مواردها والأيدى العاملة ، وبمعونة الجيش العربى ، كانت قد استطاعت أن تغزو فلسطين فسوريا ، واستولت على القدس ودمشق . وتنفيذاً لاتفاقية «سايكس — بيكو» احتلت فرنسا السواحل الشامية . وحين أتى وقت توزيع الأسلاب أخذت انجلترا تتنكر للعرب ، وتنسى أو تمارى فى وعودها ، بينما اتفقت كلمتها مع فرنسا على اقتسام الشام فيما بينهما ، وعلى أن تفوز بالنصيب الأكبر من تركة الدولة العثمانية . ولم يكن هناك شك فى وفائها لليهود ، بل منذ اللحظة الأولى أخذت تعمل لتحقيق آمالهم وتثبيت أقدامهم فى فلسطين؛ وعينت أول مندوب سام لها هناك « هربرت صموئيل » ، وهو إسرائيلى إنجليزى .

* * *

وهكذا كانت نتيجة الحرب العالمية الأولى أن إنجلترا — ومعها اليهود — قد احتلت فلسطين ، واحتلت فرنسا لبنان ، ثم سوريا كلها إذ أن الأمير « فيصل بن الحسين » قد قام بمحاولة لتأسيس حكومة

عربية بمعونة السوريين فى دمشق ، وأعلن نفسه ملكا ١٩٢٠ ؛ فلم تعش حكومته أكثر من أشهر ، وزحفت جيوش فرنسا فهدمت حكومته ونفته من سوريا ، ولم تنفعه إنجلترا حليفة والده . وقسمت فرنسا الشام إلى أجزاء ، وأثارت العصبيات والأحقاد الجنسية والطائفية ، لتستطيع أن تسود الجميع عن طريق سياسة التفرقة . واحتل الإنجليز أيضا العراق . ولم تنفع إنجلترا أيضاً حليفها الملك حسين ، إذ أخذت جيوش المملكة السعودية التى قامت فى نجد تهاجم بلاده فى الحجاز ، نفسها ١٩٢١ ؛ وانتهى الأمر بإخراج الحسين نفسه من الحجاز ، وذهاب ملكه وانتهاء عهد أسرته ؛ فنفى إلى قبرص وظل بها إلى أن مات ؛ وقامت الدولة السعودية فى الأراضى المقدسة .

ثم وجدت إنجلترا نفسها مضطرة تحت ضغط الحوادث لإرضاء هذه الأسرة ، فاقتطعت من الشام جزءاً أسمته « شرق الأردن » ونصبت الأمير عبد الله بن الحسين أميرا عليه ، ثم ملكا . وليس هذا الجزء فى الحقيقة إلا قاعدة حربية لها ، لتحمى فلسطين من الصحراء ، ولأغراض أخرى . كذلك عاونت على تنصيب الأمير فيصل ملكا على العراق ، حيث أسس هناك أسرة أخرى ، ونفوذ انجلترا هو السائد .

أما تركيا نفسها فقد سقطت فيها حكومة الاتحاديين بعد هزيمتهم . واحتل الحلفاء القسطنطينية ، واحتل اليونان الأناضول ؛ وأشرفت

على الهلاك ، لولا أن قام مصطفى كمال ورجاله وكون جيشاً فطرد اليونان ، وأنقذ بلاده من العدم . وبعد أن نال شروطاً طيبة فى معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ ، قرر إلغاء النظام القديم كله ، ومحى الخلافة التى كانت اسماً على غير مسمى (عام ١٩٢٤) ؛ ومنذ ذلك الوقت بدأت تركيا حياة جديدة . وأما مصر التى كانت مفصولة عن العالم العربى ، وعن هذه التطورات ، باحتلال الإنجليز لها ، والتى اتخذوها مع ذلك قاعدة لحروبهم ، ومصدراً لتموينهم وسخروا عمالها وأساءوا معاملتها ، فقد قامت عقب انتهاء الحرب بثورة مجيدة عام ١٩١٩ . اهتزت لها أركان الامبراطورية ، ثم اضطرت انجلترا إلى أن تعترف بمبدأ استقلالها ١٩٢٢ . وبدأت فيها الحياة البرلمانية . وأخذت منذ تلك الساعة تملأ الفراغ الذى تركته تركيا فى حياة الأمم العربية والشرق الإسلامى . ثم ظلت تكافح من أجل استكمال استقلالها ، وتعمل لتعد نفسها للقيام بدور كبير فى حياة العروبة والإسلام .

* * *

وجد الشرق الأوسط الإسلامى نفسه إذن عقب الحرب العالمية الأولى فى وضع جديد ، وقد انتقل من دور إلى دور ، وهدمت نظم وشيدت نظم ، وذهبت دول وجاءت أخرى . ولئن كان بعد هذا الانتقال وجد أنه قد صار إلى حالة سيئة ، وأصبح وجهاً لوجه أمام الاستعمار — فإن هذا هو الثمن الذى كان لا بد أن يدفعه ، نتيجة

لما جنى عليه ضعف وإهمال وسوء إدارة الدولة العثمانية،التى كان يتبعها أو كان مرتبطاً بها . وأنه لثمن باهظ حقاً ، إذ أنه كلفه حريته وكرامته ولكنها ضريبة لابد من دفعها ، وهى البوتقة التى يصهر فيها معدنه من جديد ، وتمتحن قوة صلابته ومتانة جوهره .

وعلى كل ، فقد بدأت المعركة منذ ذلك الوقت : وصار مستقبل الشرق الأوسط الإسلامى بين يديه : صار مستقبله وحريته رهن كفاحه وجهاده .

هذا ؛ وإن بعض ما أجملناه فى هذا الفصل سنعود إلى تبيانه فى الفصول التالية .

ظهور الأمة العربية :

الشعوب العربية
فى الحرب العالمية الأولى وما بعدها

هذا أخطر دور مر به الشرق العربى فى العصر الحديث . وهو الدور الذى تحددت فيه آماله وتكونت شخصيته وتعين مستقبله ، والذى فيه وضع الأساس لكل التطورات التالية . فيجب على كل مواطن فى الشرق العربى أن يدرس جيداً هذا الدور ، ويعى حقائقه .

دولة الخلافة :

حتى نشوب الحرب العالمية الأولى — (عام ١٩١٤) — كان الشام — بكل أقسامه — والعراق والحجاز ، وسائر جزيرة العرب — كانت هذه الأقطار كلها تكون الجزء الأكبر من الدولة العثمانية فى الشرق الأوسط . وكانت قد مضت على هذه العلاقة أربعة قرون . أما مصر فكان العدوان البريطانى قد فصلها عن الدولة منذ عام ١٨٨٢ .

ومن الخطأ أن يظن أن علاقة الدولة بتلك الأقطار العربية كانت

علاقة استعمار . فالواقع أن الدولة العثمانية كانت دولة « اتحادية » ، لا تقوم على أساس العصبية الجنسية ، وإنما تقوم على الرابطة الدينية والتاريخية : لم يكن طابعها الحقيق « تركيا » ، ولكن « عثمانياً » . وفرق كبير بين الاثنين .

فهي كانت متنوعة الأجناس ؛ وكان الباب مفتوحاً للعناصر غير التركية لتتولى كل الوظائف ، وتصل إلى أعلى مراتب الحكم . فكثير من ولاتها وقادتها وأمرائها وعلمائها كانوا بالفعل من عناصر : عربية أو كردية أو مغربية أو بلقانية أو شركسية ، تجمعهم كلهم وحدة الدين والثقافة . أما فكرة العصبية التركية فنشأتها حديثة : إذ أنها ترجع إلى حكم رجال « جمعية الاتحاد والترقى » ، بعد خلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ . وحين ظهرت هذه الفكرة أخذت الدولة فى الانهيار النهائى : لأن الأساس الأول الذى تقوم عليه أخذ هؤلاء المتعصبون ينتزعونه من مكانه . ولم تلبث بعد ذلك إلا سنوات حتى قضى عليها إلى الأبد ، فى ظروف الحرب العالمية التى كشفت التصدع الذى أحدث فيها ، وأوجدت الفرص للعناصر الثائرة لتنتقض عليها .

فأقطار الشرق العربى — إذن — كانت مستقلة فى حدود هذا الاتحاد : أى أنها كانت بريئة من الاستعمار ، خالية من التحكم والطغيان الأجنبى ، محتفظة بكرامتها ، شاعرة أنها آمنة على ثقافتها وسلامة تراثها الروحى ، مطمئنة إلى تحقق شخصيتها . وهى إن خضعت

النظام كانت هى أولى من تعرف معائبه ومفاسده ، فهى كانت واثقة أنه يمثل استمرار تطورها التاريخى ، وفى وجوده إرضاء لوجدانها الدينى . وشعورها المشترك بوجوب التضامن لدفع العدوان الأوروبى . وقد أدى هذا النظام واجبه خير أداء فى عصور سابقة : وهى كانت لابد أن تعمل على إصلاحه أو تغييره ، بعد زمن قليل أو كثير .

* * *

عند الحرب العالمية الأولى :

كان هذا هو وضع الأقطار العربية — باستثناء مصر التى كانت أسرة « محمد على » قد حاولت أن تستقل بها ذاتياً ، ولكنها لم تستطع الدفاع عنها ، بل أسلمتها للأعداء — كان هذا هو وضعها حين نشبت الحرب العالمية الأولى .

فهى ما عرفت الاحتلال الأجنبى إلا قبل ستمائة عام : أى منذ عهد الحروب الصليبية : وقد أمكنها حينئذ أن تلقى بهؤلاء المتعصبين الدينيين إلى البحر : وإلا فى مناسبة الحملة الفرنسية الفاشلة التى قام بها نابليون ، فاستطاعت بعد قليل أن ترده وجيوشه منهزماً مدحوراً . وما كان إيقاد نيران الحرب العالمية فى ربوع الشرق من عمل هذه الأقطار ، وإنما كان الجناة المسئولون هم الأتراك ، رجال « جمعية الاتحاد والترقى » ، الذين زين لهم غرورهم ودفعهم حمقهم إلى الاشتراك

فى تلك الحرب — وما كانت إلا حرباً أوربية ، فأوربية أمريكية — مدارها النزاع على الامبراطوريات والاستئثار بالمنافع الاقتصادية والسياسية — فانحازوا إلى جانب ألمانيا ، وأعلنوا الحرب فى أكتوبر (عام ١٩١٤) على إنجلترا وروسيا وفرنسا . فبذلك قامروا بدولتهم وبهم ، والأقطار المرتبطة بهم ، مقامرة انتهت بتحطيم دولتهم وذهاب ريحهم . ثم كان أوخم عواقب ، وشر نتائج ، تلك المقامرة أنها أتاحت الفرصة للاستعمار — الاستعمار الأثيم المعتدى — ليثب على أقطار الشرق العربى ، الذى صدق عليه إذ ذاك قول الشاعر :

لم أكن من جناتها — علم الله — وإنى بحرها اليوم صالى !

فيفقد تلك الأقطار استقلالها وحريتها ، ويؤذى كرامتها ، ويستلب حقوقها وخيراتها ، ويحـاول طمس شخصيتها ، ويهدد مستقبلها وحياتها ! !

* * *

فى الحرب :

وجدت البلاد العربية نفسها على إثر قرار « الاتحاديين » — على غير إرادة منها ودون ذنب جنت — مشتبكة فى تلك الحرب الطاحنة .

وقد أرسل الأتراك جيوشهم مع القواد الألمان إلى الشام ، ليهاجموا إنجلترا فى مصر . وهبت إنجلترا من جهتها تدافع عن القناة

ومركزها . فأصبح البلدان الشقيقان ميداني حرب ، لقوتين متعاديتين . وكانت إنجلترا قد بادرت فمحت كل أثر لإرادة مصر ، إذ وضعتها تحت الحماية في ١٨ ديسمبر عام ١٩١٤ — منتهزة تلك الفرصة ، كعادتها ، لتحولها إلى مستعمرة ، تحكمها حكما مباشراً — وفرضت عليها الأحكام العرفية ، وجندت عمالها بالرغم منهم . وانتهبت مواشي الفلاح ومحاصيل زراعته ، واغتصبت ثروة البلاد في مقابل أوراق يصدرها البنك الخاضع لها ، ليس لها قيمة : فأوجدت التضخم والغلاء ، وحجرت على كل الحريات واعتقلت الأحرار : مما كان كله سيؤدي إلى الانفجار : فأدى بالفعل إلى قيام الثورة المصرية المجيدة التي حدثت في عام ١٩١٩ ، التي أخذت تغير تاريخ البلاد منذ وقوعها . كذلك حكم « جمال باشا » قائد جيش الأتراك ، الشام حكما عسكرياً صارماً : وجند الرجال ، وزاد الضرائب ، وصادر الحريات . ثم نصب المشانق وأعدم ونفى عدداً كبيراً من كرام المواطنين ! وكان من أقسى ما عاناه أهل البلاد اختلال الحالة الاقتصادية . فاشتد الغلاء وتدهور النقد ، وتحولت الحالة إلى مجاعة ، حتى قدر عدد من هلك من سكان لبنان بسبب المجاعة بنحو ثلث السكان . فكان قطر الشام كله في حالة شقاء وبؤس طوال سني الحرب لا مثيل لها ! كذلك صار العراق ميدان حرب : بين الجيوش التركية الألمانية تتقدم من بغداد . والجيوش الإنكليزية من الخليج الفارسي إلى البصرة : بين مد وجزر ، وكر وفر — مما أدى إلى الحصار الاقتصادي

واضطراب الأحوال المعيشية ؛ فاشترك العراق أيضاً فى الآلام التى سببتها أحداث الحرب .

* * *

المؤامرات الاستعمارية :

كانت الحرب العالمية الأولى : (١٩١٤ — ١٩١٨) إذن محنة كبرى بالنسبة إلى الشرق العربى : ولكن الآلام التى تحملتها أقطاره، والإجراءات الصارمة التى حكمت بها فى خلال سنى الحرب . لم تكن شيئاً بالقياس إلى ما كان يدبره له المستعمرون ، وما كان مقدراً له أن يلاقى عقب انتهاء الحرب ، من جراء ذلك التدبير !

ومما كان من شأنه أن يجعل تلك التدبيرات — حين حان وقت ظهورها — أوقع ألما، وأشد مضاضة ، أنها جاءت فى صورة خيانة — على ما سنشرحه بعد قليل ؛ وأن الاتفاقات التى تآمرت الدول على إمضائها لم تكن إلا تنفيذاً لسياسة الاستعمار الرجعى : ذلك الذى كان من مميزات القرن التاسع عشر ، والذى ظُن أن التنور والتقدم الذى حدث فى القرن العشرين قد فل حده وكسر شرته ؛ وأنها لم تكن ترمى إلا إلى عدوان غاشم، سيكون مصطحباً — كما ستتكشف الحوادث بعد حين — بأعمال الوحشية ومظاهر الهمجية وأساليب البربرية : كما سيظهر من فرنسا فى سورية ولبنان ، ومن إنجلترا فى مصر والعراق وفلسطين :

ومعهم أصدقاؤهم اليهود ، من شذاذ الآفاق — مما كان جديراً كله بالحضارة الأوربية فى القرن العشرين ... !

الاتفاق مع العرب :

حدثت هذه المؤامرات فى الوقت الذى كانت تمد فيه تلك الدول يدها إلى الشرق العربى ، ترجو معونته وتطلب صداقته : ذلك أن إنجلترا — ممثلة لحليفاتها، وقد وجدت نفسها فى أوائل الحرب فى مأزق، وأحست بضعفها إزاء جيوش الأتراك ؛ وكانت تخشى إعلان الجهاد الدينى ، الذى كان الأتراك يحثون رؤساء البلاد العربية على إعلانه — رأت أنها لا يمكن أن تتفادى هذه الأخطار إلا إذا صادقت العرب . وعقدت حلفا مع زعمائهم . وكانت هناك اتصالات فى ذلك الوقت بينها وبين الشريف « حسين » أمير مكة ، وولديه : عبد الله وفيصل إذ أن الشريف لم يكن على علاقات حسنة مع « الاتحاديين » .

ففى الخطابات العديدة التى تبودلت بين الشريف » وبين « سنرى مكماهون » — معتمد بريطانيا فى مصر — وذلك فى خلال سنة ١٩١٤ — أعربت إنجلترا عن قبولها للمطالب التى كان يعرضها « الحسين » ، وتعهدت بالعمل على تأييدها وتحقيقها . وهى تتخلص فى استقلال العرب ووحدتهم . وذلك بإنشاء دولة عربية متحدة : تشمل جزيرة العرب ، والشام — بما فيه فلسطين — والعراق ؛ وينادى به ملكا عليها . فنتيجة لهذا الاتفاق خرج الشريف وأولاده

على الدولة العلية ، وأعلنوا عليها الحرب (فى يونية عام ١٩١٦). وبعد أن كونوا جيشاً عربياً قوياً ، ظلوا إلى نهاية الحرب يساعدون إنجلترا وفرنسا فى جهودهما الحربية ، لإنزال الهزيمة بالأتراك وإجلائهم عن الشام ، حتى تم ذلك .

معاهدة « سايكس — بيكو » :

ولكن إنجلترا ، فى نفس الوقت الذى كانت تتفق فيه مع الشريف ، كانت تتفاوض مع فرنسا وروسيا ، وتوصلت إلى عقد معاهدة (فى مايو عام ١٩١٦) هى التى عرفت باسم معاهدة « سايكس — بيكو » - نسبة إلى ممثلى إنجلترا وفرنسا اللذين عقداها - اتفقت فيها الدول الثلاث على اقتطاع أجزاء من تركيا ، وعلى تقسيم أقطار الشرق بينها ، وأن يكون ذلك على هذا الوجه : —

(ا) أن تأخذ « روسيا » القسطنطينية ومناطق حولها ، وأراضى على الضفة المقابلة فى آسيا . (ب) وأن تعطى « فرنسا » سوريا ولبنان ، ثم ولاية الموصل شمالىّ العراق أيضاً . (ج) وأما إنجلترا فتأخذ الجزء الأكبر من فلسطين ، وبقية ولايات العراق إلى الجنوب . ثم تجعل منطقة معينة حول القدس دولية .

وأغرب شىء أن هذه المعاهدة احتفظ بها سرية ، ولم تطلع الدول عليها « الحسين » حليفهم ، فلم يصله نبأ عنها إلا بعد أن خرجت

روسيا من الحرب عقب ثورتها ، ونشرت حكومتها بعض الوثائق السرية عام ١٩١٨ .

التآمر مع اليهود :

وكان أخطر اتفاق عقدته بريطانيا فى أثناء الحرب — من تلك الاتفاقات التى جاءت مناقضة كل المناقضة لتعهداتها للشريف حسين والعرب — هو اتفاقها مع الصهيونيين . فقد استطاع «وايزمان» — مؤيداً بروتشيلد والرأسماليين فى أمريكا وإنجلترا — أن يعقد اتفاقاً مع لويد جورج رئيس وزارة إنجلترا ، وبلفور وزير خارجيته : تعهدت فيها إنجلترا أن تبذل أقصى ماتستطيع ، لتحقيق أمل اليهود فى إنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين : وصدر بذلك تصريح «بلفور» الشهير فى ٢ نوفمبر عام ١٩١٧ .

عقب الحرب :

جاءت إنجلترا إذن عقب الحرب بهذه الاتفاقات الثلاثة، التى يناقض بل يصفع بعضها بعضاً ! وهذا هو مثال الشرف فى المعاملات الدولية !

يضاف إلى ذلك أن زعماء الحلفاء كانوا لا يفتأون فى أوقات شدائد الحرب ، يرددون تصريحاتهم بأنهم إنما يحاربون من أجل تحقيق العداله ، وضمان حريات الشعوب . وجمعت هذه التصريحات

فى المبادىء الأربعة عشر المعروفة ، التى أعلنها الرئيس الأمريكى « ولسن » فى عام ١٩١٨ ؛ وكان من أهمها تقرير أن كل شعب ينبغى أن يعترف له بحق تقرير مصيره ، وأن العلاقات بين الدول يجب أن تقوم على التفاهم والتراضى ، لا على العسف والقوة . وقد كان لإعلان تلك المبادىء دوى وأثر كبير يفوق حد الوصف ، ولاسيما فى الشرق الأوسط ، إذ اعتقدت الشعوب صدقها فى ذلك الوقت ، وترقبوا بزوغ عهد جديد تتحقق فيه غايات العدالة والحرية ، ويسود السلام !

* * *

فى مصر ثورة ١٩١٩ :

فما كادت الحرب تضع أوزارها بعقد الهدنة فى ١١ نوفمبر عام ١٩١٨ ، حتى كانت مصر — التى فرضت عليها الحماية قسراً ، بالرغم من قوة حركتها الوطنية ، وبالرغم من انتشار الثقافة فيها — كانت أول من تحرك للمطالبة بحق تقريرها لمصيرها .

ففى ١٣ نوفمبر توجه « سعد زغلول » ، مع زميلين له . إلى « ونجت » المعتمد البريطانى : وأبلغه مطالب مصر : وهو يتلخص فى الاستقلال التام . وفى نفس اليوم ألف سعد « الوفد المصرى » ، الذى كان مقدراً له أن يقود الحركة الوطنية فى ذلك الدور . ونشط أعضاؤه

فى جمع التوكيلات من الأمة ، وطلب سعد الإذن له بالسفر ليرفع صوت مصر فى « مؤتمر الصلح » الذى سيعقد فى باريس . ولكن كل هذه المطالب رفضت . ورفضت إنجلترا أيضاً ، بكل تعنت ، طلب رئيس الوزراء « حسين رشدى » أن يؤذن له بالسفر : وكان مؤيداً للحركة الوطنية منذ بدايتها ، فاستقال . وانضم السلطان فؤاد الذى كانت الحماية قد عينته إلى جانب السلطة المستعمرة : فاشتد الشعور بالسخط .

وفى يوم ٨ مارس ١٩١٩ اعتقلت السلطة العسكرية سعداً ورفاقه ، ونفتهم إلى «مالطة» ، فكانت هذه هى الشرارة التى أوقدت مخزن البارود . قامت الثورة المصرية إذن منذ يوم ٩ مارس . واستمرت بعد ذلك فى عنفها وشدتها نحو عامين ، حتى اضطرت إنجلترا إلى إجابة بعض المطالب الرئيسية الوطنية .

(٢)

في مصر :

كانت ثورة مصر إذن عام ١٩١٩ — كما قدمنا — الشعلة الأولى التي أضاءت في جنبات الشرق العربي، لتنير سبيل الحرية، وتحيي الأمل في قلوب المجاهدين، ولتلفح أيضا بنارها وجوه المستعمرين !

ولقد كانت ثورة طبيعية لم يسبقها تدبير : تعبيرا بليغا عن إيمان شعب قوي بحقه، وصيحة مدوية في أذن الاستعمار، أشعرته بروعة الحق وأعلنت استنكار عدوانه وغدره ؛ وأقامت الدليل على أن أمة متحدة الإرادة صادقة العزم تستطيع، ولو كانت عزلاء، أن تتحدى دولة مدججة بالسلاح، خرجت مزهوة من حرب انتصرت فيها على أعدائها. وقد نشأت الثورة عن ظروف مصر الخاصة، منذ أن اغتنمت إنجلترا فرصة الحرب، ففرضت على مصر « الحماية »، ثم أصرت بعد انتهائها على أن تبقيها وتجعلها نظاما دائما. فلم تكن للثورة إذن صلة بالأحداث التي كانت تجري في سائر الأقطار العربية في ذلك الوقت، فيما عدا أنه كانت تجمع بينها صفة مشتركة، وهي أنها كلها كانت أعمال كفاح ضد المستعمر الأوربي، الذي أراد أن يجعل الشرق العربي ميدانا لعدوانه، وبقيت مثلا ملهما للشعوب التي ستلجأ إلى جهاد هذا المستعمر، من أجل نيل حقوقها .

فى سائر الأقطار العربية :

كانت ظروف الشعوب العربية الأخرى مختلفة عن ظروف مصر . فإنها — نظراً لبقاء ارتباطها مع الدولة العثمانية إلى وقت الحرب ، وما عانت من مر التجارب من الأتراك المتعصبين لقوميتهم ، وما قاسته من الويلات إذ ذاك — كان شعورها بالسخط على تلك الدولة شديداً . فلما واتت فرصة الحرب ، وجد قادة الرأى فيها أن الوقت قد حان لرفع نير الحكم التركى ، وتحقيق الأمل الذى طالما حلموا به ؛ وهذا الأمل هو إنشاء دولة عربية متحدة كبرى : تمتد حدودها من جبال طوروس شمالا إلى المحيط الهندى جنوبا ، ومن حدود إيران شرقا إلى البحر الأبيض المتوسط غربا . وتألفت الجمعيات السرية من أحرار العرب فى الشام والعراق مثل : « العربية الفتاة » ، و « العهد » و « الإصلاح » وغيرها . وكانت « دمشق » قلب الحركة العربية . وحين فكر « الحسين » فى القيام بحركته اتصل ، بواسطة ابنه « فيصل » ، بتلك الجمعيات . وسجلت الوثائق التى تبادلها مع ممثلى الحلفاء أن هدف تلك الحركة هو تحقيق المثل الذى وضعه قادة العرب نصب أعينهم : ألا وهو توحيد البلاد العربية واستقلالها .

تأييد إنجلترا للدولة العربية :

وقد صرح الحلفاء — على لسان إنجلترا — بأنهم مؤيدون لتلك

الخطة، وأعطوا تعهداتهم الأكيدة بأنهم سيعملون على تنفيذها عقب الحرب. ومن أجل هذا خاض كثير من رجال العرب القتال ملتفين حول راية الحسين، إلى جانب الحلفاء، وقدموا لهم من المساعدات — مادياً وأدبياً — ماذلل لهم العقبات فى طريقهم، وما مكنهم من الانتصار على الأتراك، الذين كانوا يشعرون — كما دونوا ذلك فى وثائقهم — أنهم يحاربون فى أرض معادية! وقد شهد زعماء الحلفاء من سياسيين وحربيين، بهذا الفضل للعرب، ولم يحاولوا أن يجحدوه.

* * *

مذكرة « الحلفاء » ١٩١٨ :

تطلعت الشعوب العربية إذن عقب الحرب إلى تحقيق تلك الآمال، وانتظروا وفاء « الحلفاء » بعهودهم. وقد أصبح الملك « حسين » ممثلا لهم، وعقدوا الآمال على مساعيه وجهود ابنه الأمير « فيصل » لحمل الحلفاء على الشروع فى إنجاز ماوعدوا به.

وكان آخر وعد بذله « الحلفاء » هو مذكرتهم التى أعلنوها فى ٨ نوفمبر ١٩١٨، وقد جاء بها: « أن السبب الذى من أجله حاربت فرنسا وإنكلترا فى الشرق، تلك الحرب التى أهاجتها مطامع الألمان، إنما هو لتحرير الشعوب، التى رزحت أجيالا طوالا تحت مظالم الترك، تحريراً تاماً نهائياً، وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالى الوطنيين لها اختياراً حراً. ولقد أجمعت فرنسا

وإنكلترا على أن تؤيدا ذلك بأن تشجعا وتعينا على إقامة هذه الحكومات والإدارات الوطنية فى سورية والعراق ... »

ولكن جيوش الحلفاء — وقد انتهت الحرب — بقيت محتلة لأراضى العرب : لسورية ولبنان والعراق ، التى دعوها حينئذ فى المذكرات الرسمية «أرض العدو المحتلة» . وقال الزعماء إن هذه إجراءات مؤقته ، إلى أن يتم الاتفاق على النظم التى ستتبع فى «مؤتمر الصلح». وكان هذا المؤتمر سينعقد فى باريس فى أوائل ١٩١٩ .

* * *

فى « مؤتمر الصلح » ١٩١٩ :

وصل « فيصل » إلى أوروبا فى أواخر عام ١٩١٨، على رأس وفد الحجاز ، ممثلا لوالده وليتكلم باسم العرب . فلاقى من « فرنسا » عنتا إذ أساءت استقباله ، وعارضت فى أن يحضر مؤتمر الصلح بدعوى أن الحجاز لم يكن — أى على الرغم من اشتراكه الفعلى فى القتال — أحد الدول المحاربة او تبين للأمير على الفور مدى الفرق بين الأمل والواقع المرير ، وبدأت تتكشف له رويدا — وكان قليل الخبرة فى ذلك الوقت — حقيقة الأوروبيين وطبيعة الاستعمار . فلم يقبل فى المؤتمر إلا بعد ضغط من إنجلترا — هذا فى الوقت الذى قبل فيه وفد « الصهيونيين » الذين لا يمثلون أية دولة ، بدون عناء بل بكل ترحيب! وفى نفس الوقت أيضا — وهذا على طريق المقابلة — الذى حيل فيه

بين وفد مصر — الدولة الكبيرة التى كان عدد سكانها إذ ذاك اثنى عشر مليونا — وبين حضور المؤتمر ، فاعتقل زعماؤها ونفوا إلى «مالطة» وسفكت المدافع الإنجليزية دماء المصريين فى طرقات القاهرة وغيرها ، لأنهم طالبوا أن يسمع صوتهم فى مؤتمر « السلام » !

افتتح « المؤتمر » فى يوم ١٨ يناير ١٩١٩ . ولم يكن يقصد من حضور « فيصل » المؤتمر ، منذ البداية ، إلا أن يكون شكليا : فبالرغم من أنه سمح له — بتوسط الرئيس « ولسن » — أن يعرض قضيته فى يوم ٦ فبراير — وكان الضابط الإنجليزى « لورنس » مترجمه فى المؤتمر — فإن المؤتمر لم يفعل له شيئا ، سوى أن قرر فى يوم ٢١ مارس إرسال لجنة دولية ، للتحقيق واستفتاء السكان !

خطط إنجلترا وفرنسا :

وجد « فيصل » عند زيارته للندن وباريس أن نية إنجلترا وفرنسا — وهما الدولتان اللتان كانتا مسيطرتين على المؤتمر — منعقدة على تنفيذ اتفاقية «سايكس — بيكو» ، بعد انتهاء المساومات التى كانت دائرة بينهما : وهى تلك التى تقضى باقتسام أقطار الشرق العربى بينهما — وذلك بعد خروج روسيا ، إذ كانت قد انسحبت من الحرب عقب ثورتها فى العام السابق لانتهاء الحرب . كما أن إنجلترا كانت معتزمة أيضا — بالاتفاق مع حليفاتها — تنفيذ وعد «بلفور» ، الذى يرمى إلى تحويل « فلسطين » إلى أرض يهودية . وقد حملت إنجلترا الأمير

-بتأثير «لورنس» ، الذى كان فيصل منقادا له كل الانقياد-حملته على أن يوقع مع « وايزمان » على اتفاقية ، اعترف فيها بوجاهة الأمانى الصهيونية وصرح بعطفه عليها ، ووعد بالتعاون مع الصهيونيين فى المستقبل : وإن كان قد اشترط أن ذلك رهن بتحقيق آمال العرب غير مدرك مابين الهدفين من تناقض صارخ ! وغـــير متبين مافى مشروع الصهيونيين من خطورة على فلسطين والبلاد العربية كلها .

وبذلك انتهت مهمته فى أوروبا فعاد إلى سورية فى آخر أبريل ١٩١٩،وأخذ يهيء الجو لحضور اللجنة التى قرر مؤتمر الصلح إرسالها .

لجنة « كنج كرين » :

لكن إنجلترا وفرنسا نقضتا قرار المؤتمر ، بأن امتنعتا عن إرسال مندوبين عنهما : فحضرت اللجنة برئاسة مندوبى الولايات المتحدة . وهى اللجنة التى عرفت باسم «كنج — كرين» : وقد وفدت إلى سورية فى يونيه ، وقامت باستفتاء عام دقيق ، وصلت فيه إلى حقيقة رأى البلاد ، وكانت لجنة عادلة محايدة : ثم قدمت تقريرها فى أغسطس عام ١٩١٩ .

وخلاصة ما انتهت إليه أن الأكثرية العظمى تطلب استقلال سورية التام — على أن تكون موحدة شاملة لفلسطين — وتستنكر فكرة إنشاء الوطن القومى لليهود . فإن لم يكن بد من الانتداب ،

فليكن لأمريكا — على أن يكون لمدة مؤقتة ، وعلى أن لا يكون المفهوم منه أنه استعمار ، بل مجرد بذل المساعدة الفنية لمعاونة الحكومة الوطنية على النهوض : فإن لم تكن أمريكا ، فإنجلترا على نفس الشروط : أما فرنسا فقد رفضت إطلاقا . وقد سجلت اللجنة نفسها معارضتها للمشروع الصهيونى ، موضحة أنه لن يمكن تنفيذه إلا بإراقة الدماء ، وبإجلاء السكان الأصليين بقوة السلاح : وهو ما يخالف كل المخالفة المبادىء التى دعا إليها « ولسن » ، والغايات التى من أجلها حارب الحلفاء . لكن هذا التقرير لم يكن له من أثر ، وألقت به الدولتان الاستعماريتان: إنجلترا وفرنسا ، فى سلة المهملات — كما كانتا قد ألقتا من قبل بآمال العرب — وكان « ولسن » قد فقد نفوذه ، إذ أن أمته نفسها قد خذلته ، وعارضت ما اتفق عليه مع رؤساء الدول الاستعمارية فى « مؤتمر الصلح » .

اتفاق « جورج كلمنصو » :

بذلك خلا الجو لانجلترا وفرنسا ، فوصلتا إلى اتفاقات على تقسيم النفوذ وتبادل المصالح . واستطاع الاستعمار أن يحقق حينئذ أقصى غاياته . وساد الظلم ، وديس على الحريات والحقوق .

توصل « لويد جورج » و « كلمنصو » إلى اتفاق فى ١٥ سبتمبر

سنة ١٩١٩ على تعديل معاهدة «سايكس — بيكو» ؛ وكان مضمون هذا التعديل : أن فرنسا وافقت — بعد إلحاح من إنجلترا — على أن تترك للأخيرة ولاية «الموصل» ، فتكون لإنجلترا السيادة على «العراق» كله . فى نظير أن تعطى إنجلترا لفرنسا حصة وافرة من الزيت . وتلغى المنطقة التى كان قد اقترح أن تكون دولية حول القدس فتصبح فلسطين كلها لإنجلترا ، حتى تستطيع أن تحقق آمال اليهود . وفى مقابل ذلك وافقت إنجلترا — رامية بعهودها للعرب عرض الحائط — على تجزئة سورية . فهى قد أخذت فلسطين بالاشتراك مع أبناء إسرائيل ، وتستولى فرنسا على لبنان ، جاعلة منها قسما منفصلا ، وعلى المناطق الساحلية والشمالية من سوريا ، تاركة فقط المدن الأربع الداخلية ، ليقيم عليها الأمير فيصل حكومة عربية .

تنفيذ الاتفاق الاستعمارى :

استدعى «لويد جورج» الأمير لينبئه بهذا الاتفاق . فذهب مرة أخرى إلى أوربا فى سبتمبر ١٩١٩ . وبعد أن قام باتصالاته مع حكومتى إنجلترا وفرنسا ، لم ير بدا من الموافقة على المشروع .

وفى أثناء وجوده هناك، عينت فرنسا الجنرال «غورو» قائداً عاماً للجيش الفرنسى فى الشرق ومندوباً سامياً لها: فوصل إلى بيروت فى ١٨ نوفمبر ، وأخذت الجنود الفرنسية ترد تباعاً إلى الشام . وفى

خلال الشهر نفسه « نوفمبر » شرع الجيش الإنجليزى فى إخلاء سورية طبقاً لما اتفقت عليه حكومته مع حليفتها فرنسا ، تاركا حكومة الأمير « زيد » — أخى الأمير فيصل ، الذى كان الأمير قد أقامه نائباً عنه فى «دمشق» فى أثناء غيابه — مواجهة لفرنسا فى الشمال. بينما انفردت انجلترا بالنفوذ فى الجنوب : « فلسطين والأردن » ، وفى الشرق : « العراق » .

غاية الجهد :

ثم عاد الأمير فيصل فى يناير من العام التالى : ١٩٢٠ . وكان هذا آخر ما وصلت إليه آمال العرب ، وغاية ما انتهت إليه جهوده وتأثيره على حلفائه وأصدقاء والده ، بعد الانضمام إليهم ، وتأييدهم بكل الوسائل ، والمحاربة فى سبيلهم ، منذ يونية عام ١٩١٦ : أى أن البلاد العربية وجدت نفسها فى حالة أسوأ بكثير مما كانت عليه فى عهد الدولة العثمانية : فقد مزقت بدداً وقطعت أوصالها ، ونصب عليها سادة متعددون ، هم أجانب عن ثقافتها غرباء عن روحها ، هم أعداء الإسلام والعرب التاريخيون منذ عهد الحروب الصليبية . لذلك كان لاغرو أن يعلن الجنرال « اللنبى » يوم دخل القدس : « اليوم ختمت الحروب الصليبية » !! — بكل ما تتضمن هذه الجملة من معان . وهى قد ختمت حقا، ولكن من وجهة نظر الأوربيين !

كان شعور الاستياء بالغاً : إذ شعر العرب وأهل الشام بصفة خاصة أنهم بيعوا بيع السلع ، وعرفوا أن المبادىء التى يدعو إليها الحلفاء خداع ، وأنها لا تقف أمام المطامع الاستعمارية. ولقد قرروا إزاء هذا أن يعلنوا صوت الشعب ، ويظهروا إرادته فى صورة محددة ويبدأوا فى التنفيذ ليضعوا الدول أمام الأمر الواقع .

قرارات « المؤتمر السورى » :

فوفقاً لهذا ، اجتمع «المؤتمر السورى» — وهو مؤتمر دستورى يمثل الرأى العام تمثيلا صحيحاً — فأصدر فى يوم ٨ مارس ١٩٢٠ قرارات هامة حدد بها مستقبل البلاد. وإصدار تلك القرارات كان هو نقطة البدء فى تاريخ سورية الحديثة. فكان أهم القرارات إعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية و — منها « فلسطين » — استقلالا تاماً : وحفظ حقوق الأقلية ، ورفض مزاعم الصهيونيين، ومعارضة هجرتهم وإقامة حكومة ملكية نيابية مسئولة ، ثم اختار المؤتمر الأمير فيصل ملكا على البلاد .

كما اجتمع فى نفس اليوم « مؤتمر من رجال العراق » : وأصدر قرارات باستقلال « العراق » وباختيار الأمير عبد الله ملكا عليه . وكانت إنجلترا قد احتلت العراق وحكمته حكما عسكرياً مباشراً منذ نهاية الحرب . وأرادت أن تجعله ولاية ملحقة بحكومتها فى الهند .

دولة «فيصل» فى دمشق :

تنفيذاً لقرار المؤتمر قامت الدولة الفيصلية فى «دمشق» : وألفت أول وزارة برئاسة «رضا باشا الركابى» ، وشرعت فى تأدية وظائفها. وأوفد الملك أحد المخلصين له وهو اللواء «نورى السعيد» إلى لندن وباريس ، ليحصل على اعتراف حكومتيهما بالعهد الجديد . وكان الواجب أن تحترم الدول الإرادة الشعبية ، وترحب بهذا النظام الذى كان لابد أن يعمل على الاستقرار . ولكن إنجلترا وفرنسا — الحلفاء — أسرعتا إلى إعلان عدم اعترافهما بقرارات المؤتمر .

مؤتمر «سان ريمو» ١٩٢٠ :

وكان جوابهما دعوة «مجلس الحلفاء الأعلى» إلى الانعقاد . فانعقد فى «سان ريمو»: وأصدر قراراته فى ٢٥ أبريل ١٩٢٠ . وكانت قرارات غاية فى الخطورة ؛ وكان لها أكبر الأثر على مستقبل الشرق العربى .

قرر الحلفاء إذ ذاك وضع الأمة العربية تحت الانتداب : «الوصاية» : أى أن الأمة العربية كان يجب أن تظل مستعبدة للدول الغربية ، محتلة بالجيوش الإنجليزية والفرنسية ، تتصرف فيها وتملى عليها إرادتها كما تشاء . وقد وزعوا الانتداب : فجعلوه لإنجلترا على

العراق وفلسطين كلها ، مع تعهد إنجلترا بإنشاء الوطن القومى لليهود وأعطوا الانتداب لفرنسا على سورية كلها ، بما فيها حكومة فيصل فى دمشق . وكان هذا مخالفاً لما اتفق عليه لويد جورج وكلمنصو من قبل ، فى ١٥ سبتمبر من العام السابق .

فرنسا تمحو دولة « فيصل » :

وإذ وجدت فرنسا نفسها مسلحة بقرار الانتداب ، غدت علاقتها مع حكومة الأمير فيصل علاقة الذئب بالحمل ! وكما أن الذئب ادعى على الحمل — ظلماً وعدواناً — أنه عكر عليه الماء ، فكذلك ادعت حكومة الجنرال « غورو » الفرنسى على الأمير « فيصل » أنه عكر عليه الجو فى الشام ! وأجمع « الذئب » رأيه على التهام الحمل ! .

ففى يوم ١٤ يوليه ١٩٢٠ ، أرسل الجنرال « غورو » إنذاراً إلى حكومة دمشق ، يطلب التسليم بأمور معينة : منها قبول الانتداب ، وتسريح الجيش ، وإخلاء سكة حديد الخ ، وحدد للرد أربعة أيام مدت يوما آخر . وقد آثر فيصل الخضوع بدلا من المقاومة ؛ فسرح جيشه . ولكن جوابه تأخر فى الطريق ، فقرر الجيش الفرنسى الزحف على دمشق فى يوم ٢٠ يوليه ، بدباباته وطائراته .

معركة « ميسلون » :

وتقدم فريق من الوطنيين ، على رأسهم يوسف بك العظمة — وزير الدفاع فى الحكومة التى كان يرأسها إذ ذاك السيد هاشم الأتاسى — وهى الوزارة الثانية تألفت يوم ٣ مايو — تقدموا لمقاومة الجيش الفرنسى بدون استعداد . فحدثت معركة « ميسلون » فى يوم ٢٤ يوليو ، التى فتك فيها الفرنسيون بنحو ألفين من الوطنيين من بينهم وزير الدفاع . ثم احتلوا « دمشق » فى يوم ٢٨ منه ، وبقية المدن السورية . وأمروا فيصل بالرحيل ، فلم يملك إلا مغادرة البلاد . منذ ذلك الوقت بدأ عهد الجهاد والألم والتضحيات فى تاريخ سورية ، وكان على السوريين أن يدفعوا من أجل حريتهم ضرائب العرق والدماء والدموع — لمدة ربع قرن بعد ذلك .

ثورة العراق ١٩٢٠ :

ولكن قرارات « سان ريمو » كانت أشعلت فى نفس الوقت ثورة فى « العراق » .

فقد تيقن العراقيون بعدها من مصيرهم ، وعرفوا أنهم لا يراد بهم — على أنهم جاهدوا أحسن جهاد فى سبيل الحركة العربية ،

وساعدوا الحلفاء فى أوقات شدتهم — لايراد بهم إلا أن يظلوا خاضعين لإنجلترا ، وأن آمالهم فى الاستقلال وفى نهضة الأمة العربية قد قضى عليها .

وكان الإنجليز قد أقاموا حكومة عسكرية فى بغداد ، على رأسها الكولونيل « ولسن » : وعينوا حكاماً عسكريين على كل المدن العراقية ، وجلبوا معهم موظفين من الهنود ، وأساءوا معاملة الشعب وجرحوا كبرياءه ، غير فاهمين لنفسيته : وكان قد مضى عام ونصف على هذه الحال ، والبلاد يزداد فيها الاضطراب ، وأحوال المعيشة مختلة لعدم الاستقرار . ثم جاء الحلفاء فرفضوا قرارات « المؤتمر العراقى » ، ومنعوا الأمير عبد الله من الوصول إلى بغداد . هذا فى الوقت الذى أقام فيه الأمير فيصل حكومة فى سورية . كذلك كان مثل الثورة المصرية التى كانت لاتزال مستمرة ، واستطاع المصريون أن يجبروا الانجليز على التراجع — كان ماثلا أمام أعين العراقيين .

فاجتمعت كل هذه العوامل لتسبب قيام الثورة العراقية، التى كانت شرارتها القبض على بعض كبار العراقيين . فبدأت الثورة منذ يوم ٣٠ يونيه عام ١٩٢٠ : وتزعمها العلماء ورؤساء العشائر . واشتركت

فيها بغداد والفرات : ثم انتشرت إلى سائر الأنحاء . وكان فى طليعة قادتها الإمام محمد تقى الشيرازى — الذى خلفه عند وفاته شيخ الشريعة الأصبهانى — والسيد محمد الصدر ، وجعفر جلبى أبو اتمن ، والسيد علوان الياسرى ، والشيخ محمد رضا الشبيبى ، وغيرهم .

وقد جاهد العراقيون جهاداً صادقا ، وألقوا على الانجليز درساً قاسياً : وذلك لأن الوطنية كانت متحدة مع الدين ومستمدة منه . فكانت الحركة إسلامية روحية ناجحة موفقة . وقد استطاع الثوار أن يجبروا الانجليز على إخلاء ريف العراق ، فبقوا شبه محصورين فى المدن الثلاث الكبرى . وألف الوطنيون حكومات محلية . واستمرت الثورة إلى أكتوبر ١٩٢٠ ، بعد أن تكبد الانجليز خسائر قدرت بنحو أربعين مليوناً من الجنيهات — ومئات من القتلى والجرحى : كما قتل من العراقيين بضعة آلاف ، ولكنهم ماتوا شهداء راضين مرضيين فى أقدس قضية ، فهم أحياء عند ربهم يرزقون . وأنتجت الثورة أثرها ، فأخذ الانجليز يفكرون فى تغيير سياستهم وبدأوا بالفعل فى تنفيذ سياسة أخرى .

* * *

هكذا كان الشرق العربى فى السنوات التى أعقبت الحرب يغلى

كالمرجل : ولم يظفر بالسلام الذى كان ينشده ، وصارت تتوالى فيه الأحداث وتنفجر الثورات . ولكن هذا كان دور الجهاد أو المحنة التى يصهر فيها معدنه . وصدق قول الله تعالى : « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » وقوله تعالى أيضاً : « وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين » .

(٣)

ذروة الأزمة فى الشرق العربى :

بلغت أزمة « الشرق العربى » ذروتها ، فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، باحتلال الفرنسيين « دمشق » : فى يوم ٢٨ يولية عام ١٩٢٠ — وكانوا محتلين « بيروت » منذ أواخر الحرب — فصاروا مستولين إذن على كل سورية ولبنان .

وكان الإنجليز — وقد احتلوا « بغداد » منذ حروبهم مع الترك — قد أعلنوا عزمهم على البقاء فى العراق ، ليحكموه حكما مباشراً ، مما أدى إلى انفجار الثورة الشعبية ضدهم ، فى صيف ذاك العام ١٩٢٠ وكانوا مستولين على « القدس » و « عمان » أيضاً ، منذ دخلتهما القوات الإنجليزية العربية عام ١٩١٧ . وبعد مؤتمر « سان ريمو » فى أبريل عام ١٩٢٠ قرروا استمرار احتلالهما : فصارت فى حوزتهم فلسطين والأردن — وذلك باسم الانتداب .

أما مصر التى اشتعلت ثورتها منذ مارس عام ١٩١٩ للمطالبة بالاستقلال ، فإن الإنجليز لم يقبلوا أن يعترفوا بهذا الحق إلا مقيداً بحماية مصالحهم ، فأخفقت مفاوضات « سعد — ملنر » التى جرت فى صيف ذاك العام ١٩٢٠ — وهى المفاوضات الأولى — وبقوا

فى احتلالهم « للقاهرة » و « السويس » والمدن الأخرى ، كما كانوا منذ قدموا بحجة حماية العرش : وما قدموا إلا لحماية مصالحهم الإمبراطورية .

النتيجة النهائية :

وهكذا وجد الشرق العربى أن النتيجة النهائية لتلك الحرب ، التى بذل فيها الكثير من جهوده ودمائه ، مما كان له أثر ظاهر فى انتصار الحلفاء ، والتى وعده زعماؤهم إبانها بأنهم إنما يحاربون من أجل تحريره ، دون أن يكون لهم غرض أو مطمع .

وجد الشرق أن المآل أنه قسم إلى منطقتين : (١) منطقة احتلال فرنسى ، و (٢) منطقة احتلال إنجليزى . فالأولى تتكون من سورية ولبنان بأسرهما . والثانية تشمل الأقطار العربية : العراق ، الأردن ، فلسطين ، مصر — عبر محور متصل ممتد من الشرق إلى الغرب . فإذا كانت الدولة العثمانية قد زالت ، فإن الشرق العربى لم ينل استقلاله وحريته ، بل وجد أنه عومل — بالرغم من مناصرته لحلفائه — كما تعامل دولة مغلوبة : وصار إلى استعباد حقيقى فقد فيه كل شىء ، وكان عليه أن يظل خاضعاً لاستغلال وطغيان الأجانب : الإنجليز والفرنسيين .

ثورات فى كل مكان :

حالة كانت لابد أن تثير السخط والغضب ، وتوجد أعمق شعور بالاستياء . فلا غرو — إذن — أن كان الشرق العربى فى تلك الفترة التى أعقبت الحرب — كما أسلفنا القول من قبل — يغلى كالمرجل ثائراً حانقاً على سياسة المستعمرين وأطماعهم ، ونكثهم للعهود ونفاقهم ، وأن يهب ذائداً عن كيانه مدافعاً عن حقه . فثورة فى مصر ، وأخرى فى العراق ، واضطراب فى فلسطين ، وحرب بالشام ، وقلق فى الحجاز !

ولقد أثبتت تلك الثورات ، بعد قليل ، للمستعمرين أن تدبيراتهم لن يمكن تنفيذها بسهولة ، وأن الشرق العربى ليس كما تصوروا — أوكما يقولون فى أمثالهم — « بندقة » يسهل كسرها ! بل إنهم إذا كانوا يريدون أن يصروا على الاستمرار فى سياسة العدوان نحوه ، فلا بد أن يعدوا أنفسهم لتحمل خسائر جسيمة فى الأرواح والأموال . ولما كان الاستعمار لا يقصد لذاته ، بل لما يأتى به من فوائد اقتصادية وسياسية ، وهذه لا تتحقق إلا فى جو الهدوء والسلام ، فإن المستعمرين كان لابد أن يفكروا فى تغيير سياستهم تلك ، عاجلا أو آجلا .

فأما فرنسا فكانت قليلة الخبرة ، حديثة عهد بالشرق ، وروح

الأمة العربية فى مواطنها الأصيلة : وهى — كما عرفت واشتهرت بذلك — مغرورة حمقاء، تلجأ إلى أساليب الهمجية والبربرية . وقد ظفرت بغنيمة طالما تمنتها، دون أن تدفع من أجلها ثمناً ثقيلا ، فما كانت تستطيع إذن فى ذلك الوقت المبكر أن تقدر عواقب ما اقترفت يداها ؛ وكان لابد أن تنقضى بضع سنوات ، حتى يحين الوقت الذى تجبر فيه على مراجعة موقفها ، وتجد أن الأصلح لها أن تأخذ فى التراجع والانسحاب. وكان هذا الوقت سيحل حين يقوم الشام بثورته الكبرى ضد فرنسا ، عام ١٩٢٥ : ولكننا نرجئ الحديث عنها إلى ما بعد قليل .

سياسة « انجلترا » :

وأما إنجلترا : فلأنها كانت أكثر حنكة، لطول اتصالها بالشرق وهى أمة عملية تسودها العقلية التجارية ، وتعترف بالواقع . وكان حدوث الثورات العنيفة فى منطقتها ، فكلفتها أموالا وضحايا — بينما كان الرأى العام فيها يطالب الحكومة بوجوب الاقتصاد فى النفقات وتسريح الجنود ، بعد ما كابد فى أيام الحرب. وربما كانت إنجلترا أحست أيضاً فى ذلك الوقت بشىء من وخز الضمير إزاء الأسرة التى قدمت لها أجل الخدمات ، وهى أسرة الشريف « حسين » ، فقد جازتها جزاء سنمار !. وكان الأمير « فيصل » فى ذلك الوقت ، بعد أن طردته فرنسا ، مقيما فى إيطاليا : يوالى إرسال الكتب إلى الوزارة الإنجليزية

معاتباً مستنجداً : والأمير عبد الله يهدد بالثورة منذ منعته إنجلترا نفسها من الذهاب إلى العراق ، حيث كانت تنتظره فرصة كبيرة . وكان الحسين فى الحجاز يحرق الأرم ، وهو يفكر فى كنه الشرف البريطانى الذى وضع كل ثقته فيه ! وقد ذهب أمله أدراج الرياح فى إنشاء دولة عربية كبرى متحدة ، يكون هو ملكا عليها : بل كان هو نفسه غير آمن فى مركزه ، وهو يرى القوة السعودية تنمو على حدوده وقد عاهدتها إنجلترا — ربما كانت إنجلترا قد أحست أخيراً بشيء من وخز الضمير ، ففكرت فى أن تسترضى تلك الأسرة ، وتنتفع فى الوقت نفسه بما لها من نفوذ أو تأثير روحى ، أو من قوة مادية ، فى تثبيت مركزها فى الشرق العربى ، وفى إخماد أو تفادى الثورات ، وفى سياسة الأهلين بحيث يشعرون بالرضا ويدخل فى روعهم أنهم يحكمون أنفسهم ، فى الوقت الذى تخدم فيه مصالح الإمبراطورية ، وتحكم بريطانيا بأيد عربية ومن وراء ستار .

لكل تلك العوامل إذن مجتمعة ، وجدت إنجلترا أنه يلزمها أن تجرى تعديلا فى سياستها ؛ وهو تعديل يتناول الأساليب دون الهدف ، ويتصل بالشكل والمظهر دون أن يغير الحقيقة .

مؤتمر القاهرة ١٩٢١ :

هذه هى الأسباب إذن التى دعت إلى عقد «مؤتمر القاهرة» : وقد بدأ انعقاده يوم ٩ مارس عام ١٩٢١ .

ورأت الوزارة الإنجليزية ضرورة حضور وزير المستعمرات نفسه « تشرشل » ، ليرأسه ويشرف على إصدار وتنفيذ قراراته . وحضر معه الضابط « لورنس » . الذى كان مستشار وزارته للشئون العربية . وقد دعى وفد من العراق ، مؤلف من وزراء عراقيين وبعض العسكريين الإنجليز : فحضر برئاسة « سير برسى كوكس » — الذى كان المندوب السامى البريطانى . وكان المندوب قد ألف وزارة عقب الثورة ، على رأسها السيد عبدالرحمن الكيلانى نقيب الأشراف : وهى أول وزارة عراقية . فحضر الوفد : ثم تقرر فى ذلك المؤتمر إنشاء نظام جديد بالعراق . وذلك بأن تقام حكومة وطنية تكون ملكية دستورية : ويتفق على مبايعة وتتويج الأمير « فيصل » ملكا على العراق — وكان فيصل قد دعى من إيطاليا فى أواخر العام السابق إلى لندن . للتشاور والاتفاق على تلك الخطة .

المفاوضة مع « عبد الله » فى الأردن :

وذهب وزير المستعمرات أيضاً مع لورنس إلى القدس ، واجتمع بالأمير عبد الله — وكان هذا قد حضر فى نوفمبر من عام ١٩٢٠ إلى مكان بشرق الأردن ، ليجمع حوله زعماء القبائل ويأخذ — كما أشيع — بثأر أخيه من الفرنسيين الذين احتلوا دمشق . وهذه المنطقة (أى الأردن) ذات طبيعة عربية بدوية : ونزعتها شديدة إلى الاستقلال . كما أنه كثرت فيها الاضطرابات منذ إسقاط حكومة فيصل — وهى كانت جزءاً

من دولته العربية التى كان مركزها دمشق : كما أنها — أى شرق الأردن — كانت دائماً جزءاً من ولاية دمشق أو الشام طوال الحكم العثمانى إلى بداية الحرب : ثم جلا عنها الجيش العربى وبقى فيها الإنجليز . لذلك : ولأن إنجلترا كانت تريد أن تقيم معقلا يحمى فلسطين والمشروع الصهيونى فيها من أخطار الصحراء : مثل تلك القوة السعودية الناشئة على الحدود ، وتحميها أيضاً من فرنسا فى الشمال : ولتكون تلك المنطقة أيضا قنطرة تصل بين فلسطين والعراق : وهى صاحبة النفوذ فى كليهما — لكل تلك الأسباب ، ولوثوق إنجلترا بصداقة الأمير عبد الله والأسرة وإخلاصه ، قررت إنجلترا إقامة حكومة فى شرق الأردن ، يكون لها شىء من الاستقلال الداخلى فى حدود ، يرأسها الأمير عبد الله . وقد قام « تشرشل » بالاتفاق معه على ذلك ، وتنفيذ ما اتفق عليه .

دولتان : فى العراق ، والأردن :

شهد الشرق العربى — إذن — فى خلال عام ١٩٢١ هاتين الحكومتين الجديدتين ، تقيمهما بريطانيا ، خاضعتين لها وتحت إشرافها . وقد تسلم الأمير عبد الله عمله على الفور : وألفت أول حكومة لشرق الأردن فى أوائل أبريل عام ١٩٢١ . وكان الوضع أن الأمير تابع للمندوب السامى فى فلسطين — وكان فى ذلك الوقت « السر هربرت صموئيل » اليهودى — وينوب عنه معتمد إنجليزى مقيم فى الإمارة ، وهذا هو الحاكم

الحقيق .وكان أول معتمد «مستر أبرامسون» . وشكلت فرقة نظامية رأسها «الكبتن بيك» ، ثم خلفه «جلوب بك» ، الذى منح لقب «باشا» فيما بعد . وقد سافر الأمير مراراً إلى لندن ليفاوض حكومتها فى إعطائه سلطات أوسع: فعقدت معه معاهدة فى سنة١٩٢٨،اعترفت له فيها بلفظ الاستقلال ، لكن بقى وضع ولاية شرق الأردن وكأنها مستعمرة أو محمية بريطانية . وأدت لإنجلترا خدمات جليلة : فصدت قوات السعوديين . وضمت «العقبة» حين غزا ابن سعود الحجاز لتكون تحت النفوذ البريطانى . ومنعت القبائل من مساعدة الثوار الوطنيين فى سورية ضد فرنسا عام ١٩٢٥ . وشاركت فى إخماد ثورة «رشيد عالى الكيلانى» التى قام بها فى العراق ضد الإنجليز فى عام١٩٤١ .

دور «فيصل» فى العراق :

وأما الأمير فيصل فقدم من لندن يوم ٣١ مارس ١٩٢١،ووصل إلى العراق يوم ٢٣ يونيه : فاستقبله العراقيون بحفاوة ونادى به مجلس الوزراء ملكا . ثم تمت بيعته وتتويجه فى بغداد يوم ٢٣ أغسطس عام ١٩٢١ . وانتقل العراق بذلك من الحكم الإنجليزى المباشر إلى حكم وطنى مرتبط بالإنجليز ، وجاعل القاعدة الأولى فى سياسته التعاون معهم والإخلاص لهم ،ومحاولة التوفيق بين مصلحتى العراق وبريطانيا: أى التوفيق بين الاستقلال والاستعمار ، بين الحرية والتقييد ، بين كرامة العروبة وعزة الإسلام والتبعية لبريطانيا والذل لها .وقدعقد

الملك فيصل معاهدة مع بريطانيا فى عام ١٩٣٠ قيد بها العراق : وقد حددت فيها العلاقات بين البلدين ، وجعلت لازمة لمدة خمسة وعشرين عاما : فهى القاعدة التى سار عليها حكم العراق حتى عهد قريب . وخلاصة أهدافها الاعتراف القانونى باستقلال العراق ، ولكن مع بقاء الحاميات البريطانية والقواعد والمطارات الحربية ، والاحتفاظ بامتيازات الزيت من الموصل ، ومع إلزام العراق بأن تكون سياسته الخارجية وعلاقاته الدولية متفقة مع مصالح بريطانيا . على أن العراق مع هذا ، ظفر بعهد من الاستقرار ، وتم فيه تنظيم الحكومة ، وأخذ الوزراء الوطنيون يعملون بهمة على تقدمه فى نواحى الإنشاء المختلفة . غير أن السياسة الاستعمارية لابد أن تتحالف مع الإقطاع والرجعية ، وتخشى من ظهور إرادة الأمة : فلا مناص فى تلك الظروف أن يظل تقدم العراق محدوداً فى دائرة لا يتعداها ، ويترتب على ذلك أن لا يكون الإصلاح من الأساس ، بل يظل قاصراً على الوضع الراهن وفى الجزئيات والأشكال .

المفاوضة مع « الحسين » :

وأرادت انجلترا ترضية « الحسين » أيضاً — رأس الأسرة — ولكن بثمن ! فتوجه « لورنس » إلى « جدة » عقب تنفيذ قرارات « مؤتمر القاهرة » فى عام ١٩٢١ ، وعرض على ملك الحجاز مشروع معاهدة تدور على التحالف بينه وبين بريطانيا ؛ ولكنها تتضمن نصوصا

تجعله يعترف بالأوضاع الراهنة فى البلاد العربية : أى انتداب أو احتلال إنجلترا وفرنسا لها . فرفض الحسين قبول المعاهدة ، بالرغم من إلحاح أفراد أسرته عليه بالموافقة . كما عاود الإنجليز جهودهم فى سنة ١٩٢٣ لنفس الغرض : ولكنهم فى ذلك الوقت طلبوا من الحسين أن يعترف بوعد بلفور وآمال الصهيونية : فكان الجواب الرفض القاطع . وإذ فجع الحسين فى شرف الحكومة البريطانية ، اتجه إلى الأمة الإنجليزية فأصدر نداء نشر فى لندن يوم ٣١ ديسمبر عام ١٩٢٣ — وهو آخر جهد له معهم — ذكر فيه الشعب بما اشتهر عنه — حقا أو باطلا — من الشرف : وقال فيه : «فلهذه الأسباب ، ألفت نظر الأمة البريطانية إلى ما حل بحلفائها العرب . الذين لا يزالون يعدون أنفسهم حلفاءها . فقد مزقت وحدتهم وقطعت أوصالها وتفككت بلدانهم وصارت محتلة : وأخذ العالم الإسلامى خاصة والسواد الأعظم من قومى يرميانني بتهمة أنى بعت بلدانهم لبريطانيا العظمى وحلفائها ... » .

لكن لم يكن هناك جواب لهذا النداء : ففجع أيضاً فى شرف الأمة البريطانية ! ودعاه ابنه الأمير عبد الله لزيارة شرق الأردن فذهب إليها فى أوائل عام ١٩٢٤ : وهناك قدم إليه تعزية أنه نادى به خليفة على الإسلام والمسلمين ، عقب إلغاء الخلافة فى تركيا فى مارس عام ١٩٢٤ : ولكنها كانت الومضة الأخيرة قبيل انطفاء السراج !

* * *

الدولة السعودية :

ذلك أنه كان من أكبر التطورات التى حدثت فى العالم العربى فى الفترة التى تخللت بين الحربين العالميتين ، ظهور قوة « الدولة السعودية » الجديدة ، التى أسسها فى أول القرن الأمير « عبد العزيز آل سعود » ، ثم اشتباكها فى نزاع مع « الحسين » أدى إلى استيلائها على « الحجاز » .

كانت أول موقعة جدية فى « تربة » ، شرقى مكة ، فى مايو ١٩١٩ حيث هزمت القوات السعودية الأمير عبد الله وجيشه هزيمة تامة . ثم استطاع ابن سعود أن يمحو دولة « آل الرشيد » ، التى كانت تنافسه فى شمال نجد ، عام ١٩٢١ : فأصبح الجو مهيأ لنضال مباشر بينه وبين ملك الحجاز . ولم تكن سياسة « الحسين » الداخلية مرضية عند أهل الحجاز ، ولا المسلمين الذين يفدون إلى مكة لأداء فريضة الحج : فقد كانت حكومته فردية شخصية : وكان يفرض من الرسوم مايشاء : ولا تقوم حكومته بأى إصلاح . كما أنه كان يتبع إزاء آل سعود سياسة استفزازية . تقوم على التحدى . ولما فشلت جهود التوفيق بدأت قوات نجد هجومها ، فاستولت على « الطائف » فى الأسبوع الأخير من أغسطس عام ١٩٢٤ . ثم دخلت « مكة » فى يوم ١٣ أكتوبر من نفس العام . وأجبر الحسين على التنازل لابنه على : وذهب

يقيم فى « العقبة » : ولكن الانجليز فى يونيه عام ١٩٢٥ أرغموه على الرحيل إلى « قبرص » ، ليفصلوا العقبة من الحجاز. ومما يذكر أنه قال لبعض أخصائه عند سفره: « إنه يعترف بأنه كان مخطئاً ، وأنه لم يكن يعرف أخلاق الأوروبيين وما ينطوون عليه » ! وقد بقى فى تلك الجزيرة شبه أسير حتى قبيل وفاته . وبعد أن ظل «الملك على» يواصل المقاومة من « جدة » عاما آخر اضطر إلى التسليم نهائيا فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٥ .

وفى ٨ يناير سنة ١٩٢٦ نودى بالسلطان عبد العزيز آل سعود ملكا على البلاد الحجازية. بذلك انتهى حكم دولة الأشراف من مكة والحجاز، بعد أن دام قرونا . وصار الحجاز متحداً مع نجد فى دولة واحدة: وبدأ عهد جديد فى حياة الجزيرة العربية: عهد إصلاح وتعمير ، وتطلع إلى مستقبل مجيد للعرب فى داخل الجزيرة وخارجها . ولقد أصبحت «الدولة السعودية » منذ ذلك الوقت قوة ذات أثر كبير فى حياة العرب والمسلمين : وهم يعلقون عليها آمالا كباراً لإتمام الجهد فى تحرير أوطان العرب وإكمال استقلالها ، والقضاء على الأخطار التى تتهددها.

*

فى مصر والشام :

أما ما كان من شأن مصر والشام فى ذلك الدور :

— فإن إنجلترا أرادت أن تتبع فى الأولى سياسة مماثلة لسياستها

فى العراق : وهى إرضاء الشعور الوطنى مع تحقيق المصالح الامبراطورية : أو هى سياسة الحكم غير المباشر بواسطة حكومة وطنية . فى وجه الثورة المصرية ، وفشل مفاوضات « سعد — ملنر » سنة ١٩٢٠ و « عدلى — كيرزون » ١٩٢١ ، أصدرت الحكومة البريطانية تصريحها فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، الذى اعترفت به باستقلال مصر : ولكنها فى نفس الوقت تشبثت بتحفظات أربعة ، تضمن لها بقاء النفوذ : وإن كان إلغاء الحماية على كل حال كان نصراً للثورة . وقد بقى ذلك التصريح أساساً للعلاقات المصرية — الإنجليزية ، إلى وقت عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، التى لم تكن أكثر من توضيح له مع بعض التعديل . فبقيت الحاميات الإنجليزية فى القاهرة والسويس : وظل النفوذ البريطانى يوجه البلاد بواسطة القصر، والوزارات الوطنية التى تعلمت الولاء والتحالف مع المستعمرين .

الثورة فى الشام :

وأما الشام فإن كارثته كانت أفدح الكوارث .

فقد أتمت فرنسا احتلال سورية ولبنان ، وأخذت تعاملهما معاملة « المستعمرات » : ولم يكن للانتداب معنى إلا أنه كان « حماية مستترة » . ولم تكتف بالقضاء على استقلال البلاد بل إنها جزأتها إلى أجزاء منفصلة : فما أشبهها بالقاتل الذى لا يكتفى بإزهاق روح ضحيته، بل يعكف على تقطيعها إربا ! فمنذ يوليه عام ١٩٢٠ أقامت هناك : (١) حكومة

دمشق و (٢) حكومة حلب و (٣) حكومة العلويين فى اللاذقية و (٤) حكومة الدروز فى السويداء و (٥) هذا إلى جانب أنها اقتطعت أربعة أقضية : «محافظات» ، هى : بعلبك وطرابلس وصور وصيدا — اقتطعتها من ولاية دمشق فضمتها إلى جبل لبنان : فوسعت حدوده عما كان طوال العهد العثمانى قبل الحرب، فصنعت منه ما أسمته « لبنان الكبير » . وأعلنت انفصاله أيضاً — فضلا عن شرق الأردن وفلسطين اللذين اقتطعا لإنجلترا ، وما كانا إلا جزءاً من إقليم الشام الكبير المتوحد .

فقدت البلاد هكذا وحدتها بعد استقلالها : وقد أدت هذه التجزئة إلى تدمير اقتصادياتها ، كما أن الاستعمار الفرنسى لم يكن له هدف إلا الاستغلال : فأنقص سعر النقد، وملأ الحكومة بالموظفين الفرنسيين والأرمن ، وفرض الضرائب الباهظة . وقد قضى الفرنسيون على الحريات بكل صورها، وطاردوا الأحرار، وأكثروا النفى والاعتقال كما أنهم جعلوا أساس سياستهم « فرق تسد » ؛ فأثاروا العصبيات العنصرية والطائفية ، واستغلوا الدين أسوأ استغلال ؛ فكان حكمهم كله قائما على المحاباة والتحيز — هذا مع أن الجميع يعرفون أن فرنسا بلد ملحد ؛ ولكنها تظهر التعصب المسيحى فى معاملتها المسلمين، شفاء لأحقادها الموروثة ، وقضاء لأغراضها الاستعمارية . وقد عنوا بنشر ثقافتهم ولغتهم الفرنسية على حين أهملوا شأن اللغة العربية . واستخدموا المصاريف السرية لإفساد الأخلاق وشراء الذمم ، ونشر التجسس .

ورقوا غير الأكفاء وقربوا إليهم غير الأمناء . وبالجملة : كان حكم الفرنسيين فساداً فى فساد ! وهذا هو « الانتداب » أو الوصاية ، التى أرادتها « جمعية الأمم » ، لتنقل إلى الأقطار الإسلامية حضارتها الأوروبية ! .

وقد ظل أحرار السوريين يجاهدون فى أوربا وفى مصر ، عاقدين المؤتمرات مصدرين النداءات، متفاوضين مع الساسة ، ويتكلمون باسم القانون والمبادىء : فما أجدى كل ذلك فتيلا ! فكانت البلاد إذن متهيئة للثورة .

ولما بلغ السخط مداه وضاقت الصدور ، انفجرت الثورة عام ١٩٢٥ . وكان سببها الأخير أو المباشر هو إهانة حاكم « السويداء » الفرنسى للدروز ، وإساءته استعمال سلطته إلى حد الوحشية والهمجية قامت الثورة أولا بقيادة الدروز ، وعلى رأسهم « سلطان باشـــا الأطرش » ، ثم انضمت الأمة جميعاً للثورة ، واشترك فى قيادتها زعماؤها الذين كان فى مقدمتهم الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، والسيد نسيب البكرى ، وغيرهم من أبطال الوطنية الذين ظلوا يشتركون فى تقرير مصير سورية ولبنان وقتا طويلا بعد ذلك . وقد استطاع الثائرون أن يهزموا أو يحاصروا بعض الجيوش الفرنسية، التى أرسلت لمحاربتهم : وكبدوا فرنسا خسائر فادحة فى المال والرجال . وكان جوابها أنها ارتكبت — كدأبها — كثيراً من الحماقات : توجتهـا

بضرب « دمشق » بالقنابل . وسفك دماء النساء والأطفال الأبرياء !

كانت تلك الثورة نقطة التحول فى تاريخ سورية : وقد ردت فرنسا إلى صوابها . ولما اقتنعت بمنطق القوة . الذى لا يقنعها غيره ، أدركت أنه يتحتم عليها أن تغير سياستها : فأخذت منذ ذلك الوقت تفاوض الوطنيين وتسعى إلى أن تعقد معهم اتفاقاً . وقد قضت فى ذلك الجهد عشر سنوات : (١٩٢٦ — ١٩٣٦) . وأخيراً عقدت معاهدة سنة ١٩٣٦ ، التى لم يعتبرها الوطنيون إلا خطوة نحو الفوز بأهدافهم الحقيقية . ولكنهم لم يتمكنوا من التخلص نهائياً من الفرنسيين وطغيانهم ، إلا فى ظروف الحرب العالمية الثانية ، حيث هزمت فرنسا هزيمتها المنكرة أمام جيوش ألمانيا التى استطاعت أن تحتل « باريس » .

فى فلسطين :

وبينما الشعوب العربية كانت كلها مشغولة بهذا الجهاد ضد الاستعمار ، كان الإنجليز يرتكبون جريمتهم الكبرى فى فلسطين ، بإجلاء أهلها عنها وتحويلها إلى أرض يهودية .

وقد أفردنا لشرح تلك الكارثة الفصل الأخير من الكتاب . فما يرد فيه متمم للصورة التى رسمناها لأحوال الأمة العربية فى ذلك الوقت .

كانت هذه — إذن هى أحوال الشرق العربى فى — تلك الفترة الحاسمة من تاريخه ، بين الحربين العالميتين.

وقد كانت كلها — كما تبين — فترة جهاد ضد الاستعمار ، وفترة صبر وتحمل للآلام : ثم ظهرت فى نهايتها تباشير النصر . وإن هذا الجهاد مستمر اليوم ، حتى تتحقق كل الغايات ، وتجلى كل الجنود الأجنبية من اوطان العرب والإسلام . غير أنه إذا كانت الأمة العربية قد كسبت أكثر المعركة بالنسبة إلى الاستعمار ، فإن الذى يجب عليها اليوم ان توجه كل جهودها لكسب المعركة الباقية فى « فلسطين » ، فإن هذه هى النقطة السوداء التى يجب أن تمحى : وهذا هو الخطر الذى يجب ان نجمع جهودنا للقضاء عليه .

* *

وإذا كنا قد أشرنا — فى هذا الفصل — إلى بعض أحوال مصر فى تلك الفترة ، فإنها تحتاج إلى أن نفرد لها فصلا خاصا . لشرح جهادها وتطورها منذ الحرب العالمية الأولى وما تلا ذلك : فهذه إذن هى غاية الفصل التالى .

أو

مصر من ثورة إلى أخرى

(١٩١٩ — ١٩٥٢)

كان قيام الحرب العالمية الأولى « أغسطس ١٩١٤ » ، ثم ما تلاه من إعلان تركيا الحرب على إنجلترا وفرنسا وروسيا « الحلفاء » ، منضمة إلى جانب ألمانيا « ٣١ أكتوبر ١٩١٤ » — كان ذلك بدء حدوث تطورات جديدة وخطيرة فى حياة مصر .

فقد انتهزت إنجلترا — كدأبها — هذه الفرصة ، وقررت أن تحدد مصير مصر ومركزها الدولى، بنفسها ، دون رجوع لإرادة الشعب. وكانت قد مهدت السبيل لذلك بكبت الحركة الوطنية فى سنوات ما قبل الحرب ، ثم بإيقاف « الجمعية التشريعية » عند بدئها . ففى يوم ٢ نوفمبر ١٩١٤ أعلنت « الأحكام العرفية » — وهذه معناها « الأحكام العسكرية » . أو الحكم العسكرى المطلق . الذى يبطل القوانين

التى تضمن الحرية والعدالة — وفرضت الرقابة على الصحف ، وحرمت الاجتماعات . ثم اتخذت قرارها الخطير : وهو أن أعلنت « الحماية البريطانية » على مصر . أو وضعتها تحت « الحماية » ، وذلك فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ . وكان مغزى ذلك أنها قطعت صلة مصر نهائياً بالدولة العثمانية . وغيرت صفة الاحتلال ، فبعد أن كان مؤقتا أصبح دائما : وبالجملة أرادت بهذا القرار أن تحول مصر إلى « مستعمرة » تابعة لبريطانيا ، لا تنفصم عنها . وفى اليوم التالى : (١٩ ديسمبر) أعلنت خلع الخديوى عباس عن عرش مصر — وكان غائبا فى تركيا — وعينت بدلا منه أحد أفراد الأسرة ، وهو الأمير « حسين كامل » ومنحته لقب « سلطان » : لكنها لم ترد — وهو بحكم تعيينه لم يكن — إلا مجرد أداة فى يدها ، وكذلك لم تكن حكومته (التى كان يرأسها حسين رشدى) إلا منفذة لرغباتها . أما الحاكم الحقيق فكان هو « المعتمد» البريطانى فى مصر ، ومن حوله من القادة العسكريين .

هكذا أصبحت مصر تحكم حكما مباشراً بالسلطة العسكرية الإنجليزية . وكانت هذه الإجراءات صدمات متتالية للشعور الوطنى فى مصر . الذى نما وتأجج منذ بداية القرن ، نتيجة جهود الزعيم « مصطفى كامل »، ثم خليفته « محمد فريد » ، ومؤيديهما من الوطنيين الأحرار . كما أن هذا التحول القهرى كان معارضا لاتجاه التطور

والتاريخ ، إذ على حين أن الشعب كان يجاهد من أجل الجلاء ، ويتطلع لتنفيذ إرادته بواسطة الدستور ، إذا به يرد — فى هذه النكسة الخطيرة — إلى الوضع الذى كان فيه قبل عشرين عاما : فأدى هذا إلى تجمع شعور السخط فى قلوب أهل البلاد .

ثم على مدى الحرب ، تمادت السلطة البريطانية فى غيها وعسفها ، فقامت بأعمال عنيفة من القمع والاضطهاد ، جعلت شعور السخط يقوى ويحتدم . فقد عطلت الصحف ، واعتقلت الوطنيين ونفت بعضهم ، ونهبت أموال البلاد وخيراتها .وجعلت مصر قاعدة حربية لمختلف أنواع جنودها من المستعمرات ، وجندت العمال بالقوة ، وصادرت محاصيل الفلاح ودوابه ، وترتب على ذلك حدوث الغلاء ونقص الأقوات ، فكانت البلاد فى أسوأ حال : لكنها لم تكن تملك إلا أن تكظم غيظها فى أثناء الحرب .

وحين توفى السلطان حسين كامل فى ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ ، عينت الحكومة البريطانية بدلا منه أخاه الأمير « أحمد فؤاد » ، ومنحته أيضا لقب السلطان .

وقد كان نص الخطاب الذى أرسله إليه « المعتمد البريطانى » كما يلى :

« بأمر جناب وزير الخارجية لحكومة صاحب الجلالة البريطانية . .

إنى مكلف . . أن أحيط علم عظمتكم . . أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض على عظمتكم تبوء هذا العرش السامى . على أن يكون لورثتكم من بعدكم ، حسب النظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بين حكومة صاحب الجلالة البريطانية وبين عظمتكم . »

« وإن حكومة صاحب الجلالة مقتنعة بأن فى استطاعتها أن تعتمد فى العمل مع عظمتكم على تلك الصداقة، التى كانت شعاراً لحكم السلطان المرحوم .. إلخ » .

وجاء فى الخطاب الذى وجهه الأمير فؤاد إلى رئيس الوزارة « حسين رشدى » معلنا قبوله لهذا العرض :

« عزيزى . . نعلم رعايانا أنه بسبب وفاة سلفنا . .

قد توليت — بالاتفاق مع الدولة الحامية — عرش السلطنة المصرية » !

وحيث كان تعيين السلطان أحمد فؤاد ، هكذا ، بأمر من قوة

الاحتلال ، وفى ظل الحماية البريطانية ، كان نتيجة طبيعية ولازمة إذن أن يظل السلطان صديقاً لدولة الاحتلال الغاصبة ، منفذاً لإرادتها ، معتمداً عليها ، شاكراً لها منتها .

ثم لاح بريق من الأمل فى سماء الأفق الدولى ، إذ أعلن الرئيس «ولسن» — رئيس الو[illegible] [illegible]حدة الأمريكية — فى يناير عام ١٩١٨ مبادئه الأربعة [illegible] [illegible] كان يقصد أن تكون قاعدة التسويات التى تقرر فى مؤتمر الصلح عقب الحرب : وكان فى مقدمة هذه المبادىء أن « لكل شعب الحق فى تقرير مصيره » ، وأن العلاقات بين الدول تقوم على التراضى والتفاهم لا القوة والقهر . فأخذت الشعوب المظلومة — ومن بينها مصر — تتطلع إلى أن تحين لها ساعة الخلاص ، وتستطيع أن تقرر مصيرها ، وتفك عن نفسها هذه الأغلال ، التى كبلتها بها السلطة الأجنبية المعتدية الغاشمة .

وكان العرب فى الأقطار الشقيقة المجاورة قد قاموا بث[illegible] [illegible]ضد الدولة العثمانية : وأسفرت الحرب عن هزيمة حكام تلك [illegible]لة « الاتحاديين » ، فآذنت تلك الدولة بالانتهاء وأصبحت [illegible] [illegible]ات موضوع : وقدم زعماء العرب مذكرة إلى الحلفاء ، يطالبون فيها بتحقيق آمالهم فى الاستقلال والحرية . فأصدر الحلفاء وثيقتهم فى ٨ نوفمبر ١٩١٨ ، التى أعلنوا فيها أن الغرض من هذه الحرب إنما كان لتحرير الشعوب العربية ، وإقامة حكومات وطنية منتخبة .

وفى ١١ نوفمبر ١٩١٨ عقدت الهدنة ، فانتهت الحرب العالمية الأولى .

* * *

وكانت مصر على الأهبة تترقب . ففى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ تقدم « سعد زغلول » — الذى كان وكيل « الجمعية التشريعية » المنتخب — ومعه زميلان — إلى « المعتمد البريطانى » يطالب بوجوب رفع الحماية عن مصر ، والسماح لوفد من مصر أن يتوجه إلى أوربا لعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح .

وفى نفس اليوم ، ألف « سعد » الوفد المصرى من سبعة أعضاء : منه رئيساً ، ومن : على شعراوى وعبد العزيز فهمى وعبد اللطيف المكباتى ومحمد على علوبة ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد . ثم نشط الوفد فى جمع التوكيلات من الأمة ليكون نائباً عنها فى تولى قضيتها ، فاستجابت الأمة بحماس ، وكانت صيغة التوكيل أو المبايعة هى : « أن يسعى الوفد إلى تحقيق استقلال مصر استقلالا تاما ، حيثما وجد للسعى سبيلا » .

بذا بدأ الجهاد الوطنى فى دوره الجديد عقب الحرب العالمية الأولى . وكانت الأسباب قد تهيأت — كما وصفنا — لدفع هذا الجهاد ومواصلته .

وكان الشعور عاماوقوياً بوجوب رفع هذه النقمة التى أنزلتها بريطانيا على مصر ، وإنهاء هذه الحماية وعارها ، وإعلان مصر دولة مستقلة حرة ذات سيادة : وفى نفس الوقت كان قد وجد الزعيم الذى تجتمع فيه الصفات الممتازة المطلوبة . التى تجعله أهلا لقيادة الأمة فى هذا الجهاد ، وهو « سـ كان شخصية قوية لها ماضيها ومكانتها ، ويتمتع بصفات الوطنية الصادقة والشجاعة والإرادة القوية والخبرة السياسية الطويلة .

وإزاء ذلك لم تدرك السلطة البريطانية حقيقة الموقف ، ولم تقدر قوة الشعور الوطنى ، فرفضت مطالب الوفد ولم تسمح له بالسفر خارج البلاد. فأدى هذا التعنت والعناد إلى ازدياد المقاومة والنشاط. وفى ديسمبر ، وجه الوفد نداء إلى معتمدى الدول الأجنبية فى مصر ، مبينا أهداف الوفد وحقوق الشعب . ولخصها فى أنها « الحصـ على الاستقلال التام ، وإقامة حكومة وطنية دستورية » .

وفى ١٣ يناير ١٩١٩ عقد الوفد اجتماعا هاما ألقى فيه سعد خطبة وطنية قوية ، أكد فيها الاحتجاج على موقف الإنجليز ، وطالب بحقوق البلاد. فكان لها أثر كبير فى تعبئة الشعور العام ، وتوالت الاجتماعات ومظاهر الاحتجاج ، وأصبحت الأمة إرادة واحدة . حتى الوزارة التى عاونت الإنجليز فى أثناء الحرب تضامنت مع الأمة

فقدم رئيسها « رشدى » استقالته : فوجدت أزمة وزارية ، حيث لم يوجد أحد يقبل أن يتولى الوزارة وسط موجة الغضب والاستياء .

ولم يجد الإنجليز أمامهم إلا أن يتمادوا فى الطغيان . فلجأوا إلى استعمال القوة : وفى ٦ مارس استدعوا زعماء الوفد فأنذروهم بوجوب الكف عن نشاطهم ، محملينهم مسئولية ما حدث ، فرفض الوفد الإنذار ، ولم يأبه بالتهديد متحديا القوة الغاشمة . فما كان من الإنجليز إلا أن ألقوا القبض فى يوم ٨ مارس ١٩١٩ على سعد زغلول وبعض زملائه ، وقرروا نفيهم إلى « مالطة » .

فكانت هذه هى الشرارة التى أوقدت مستودع البارود : وانفجرت الثورة منذ اليوم التالى (٩ مارس) على الاستعمار والطغيان ، وهى الثورة التى عرفت باسم « ثورة ١٩١٩ » .

* * *

كانت هذه الثورة نتيجة محتومة للأحداث السابقة ، وتعبيراً طبيعياً عن الشعور العام . وقد اشتركت فيها جميع طبقات الأمة . من كبار ملاك وتجار ومحامين وطلاب وعمال وموظفين ، حتى أمراء الأسرة الحاكمة ، وسارت المرأة فى مظاهرات لأول مرة . فقد كانت ثورة قومية عامة ، وكانت أهدافها سياسية واضحة محددة : وهى تحقيق الاستقلال التام ، بما يقتضى من إلغاء الحماية وإزالة الاحتلال . ثم إقامة حكومة وطنية دستورية .

استمرت الثورة في عنفوانها، ممتدة إلى الأقاليم : وعبر الشعب عن نفسه بصور عديدة : من مظاهرات، وقطع وسائل المواصلات، وإضراب عام، وتكوين الجمعيات الفدائية السرية، وغير ذلك : ولا غرو، فقد كان شعور السخط قوياً، وارتكب جنود الاستعمار مذابح وفظائع في أنحاء متفرقة من البلاد .

ولما أفلت الزمام، لم يجد الانجليز بداً من التراجع . فبعد شهر من قيام الثورة، اضطروا إلى تقرير الإفراج عن سعد وصحبه . فغادروا « مالطه » ووصلوا إلى باريس، وإن كان الإنجليز قد أوصدوا الباب، ومنعوا الوفد من المثول في المؤتمر، وتمكنوا من أن يحملوا هذا المؤتمر — الذي كان خاضعاً لنفوذهم — على أن يقر الوضع الاستعماري القائم، ويوافق على بقاء الحماية، حتى الرئيس « ولسن » صاحب المبادىء المشهورة اشترك في هذه الموافقة . لكن كل هذا لم يثبط من عزيمة الوفد والشعب، فاستمر الجهاد في الخارج والداخل، مما اضطر الحكومة البريطانية أن ترسل لجنة رسمية، على رأسها « اللورد ملنر » أحد كبار وزرائها، للبحث في أسباب الثورة، ومحاولة التوصل إلى حل . فوصلت اللجنة إلى مصر في ديسمبر عام ١٩١٩، لكن الأمة قررت مقاطعتها، إلا أن تعود للتفاوض مع الوفد الذي يمثل الأمة .

فعادت اللجنة فى العام التالى : وأرسلت تدعو الوفد من باريس للتفاوض معه فى لندن بشأن مطالب مصر . فتوجه الوفد ، وجرت المفاوضات الأولى — من سلسلة المفاوضات ، التى كانت ستحدث بعد ذلك — وهى مفاوضات « سعد — ملنر » فى صيف عام ١٩٢٠ ، فلم تنته المفاوضات إلى اتفاق . وفى العام التالى ١٩٢١ ألف « عدلى يكن » الذى كان يرأس الوزارة وفداً آخر — بعد أن حدث الشقاق بينه وبين سعد — وسافر إلى لندن للتفاوض ، فجرت المفاوضات الثانية : وهى مفاوضات « عدلى — كيرزون » : وانتهت أيضاً بالفشل . وكان سعد قد عاد إلى الوطن ، ودعا إلى استئناف الجهاد بقوة ، والاتحاد فى وجه المستعمر : فقبضت السلطة العسكرية — للمرة الثانية — عليه وعلى بعض أعضاء الوفد فى ديسمبر ١٩٢١ ، ونفتهم إلى جزيرة « سيشل » وبعد ذلك نقلتهم إلى « جبل طارق » .

أصبح الموقف فى غاية الخطورة : وتوالت أحداث الاغتيالات وقرر الوفد مقاطعة البضائع الإنجليزية ، ولم يقبل أحد تأليف الوزارة بعد استقالة « عدلى » : فاضطر الإنجليز حينئذ إلى الرضوخ للحركة الوطنية ، وإعادة النظر فى موقفهم : وبتأثير « ثروت » وحزب الساسة المعتدلين ، أصدرت الحكومة البريطانية التصريح التاريخى ، وهو تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، الذى بدأ به تطور

جديد فى العلاقات بين مصر وانجلترا ، وفى الحالة السياسية الداخلية .

* * *

وخلاصة هذا التصريح أن بريطانيا اعترفت باستقلال مصر وأنها دولة ذات سيادة ، وأعلنت إلغاء الحماية البريطانية . لكنها قرنت ذلك بأن نصت على الاحتفاظ بأربع مسائل، حتى يتم الاتفاق عليها فى مباحثات مقبلة .

وهذه المسائل هى :

(١) تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .

(٢) الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبى .

(٣) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .

(٤) السودان .

هذا التصريح كان تراجعاً من بريطانيا عن موقفها الأول : وكان نصرا للثورة من الوجهة القانونية أوالنظرية : لكن من الوجهة الفعلية بقى الاحتلال — إلا أنه كان نصراً على كل حال ، وبدءا لعهد جديد ولا سيما لما اقترن به من الاتفاق على اقامة حكومة دستورية وطنية . فبناء على هذا الاتفاق ألف « ثروت» وزارته الأولى،فى أول مارس ١٩٢٢ : وأعلن فى برنامج وزارته العمل على وضع دستور للبلاد .

كان هذا — ولا شك — بدءاً لعهد جديد ؛ وكان نتيجة للثورة التى قامت فى عام ١٩١٩ ، وإن كان الوفد — الذى يمثل الأغلبية — قد أعلن رفضه لهذا التصريح ، لأنه كان استقلالا ناقصاً أو مشروطاً . لكن الخطوات التى تلت جلبت مكاسب للبلاد ، وبدأت سلطتها الداخلية تتوطد وشخصيتها الدولية تظهر . فأنشئت وزارة الخارجية المصرية ، وأبلغت الدول بإعلان استقلال مصر ، وباتخاذ السلطان لقب الملكية : إذ كان السلطان فؤاد أول من بادر إلى جنى ثمار هذا التطور ، على الرغم من أن موقفه كان ، طوال الحركة الوطنية ، مناوئا للأمة ، ومعاديا لزعمائها ، ومتعاونا مع السلطة البريطانية الغاصبة .

وصدر قرار الوزارة فى ٣ أبريل بتأليف لجنة من ثلاثين عضواً يرأسها « حسين رشدى » ، لوضع الدستور . فظلت اللجنة تعمل وفى ٣١ أكتوبر قدمت مشروعها ، وكان يحتوى على مبادىء ديمقراطية لكن « الملك » فؤاد كان غير راض فى قلبه عن هذا التطور الدستورى ، حيث كان رجعياً إقطاعياً ، ويريد أن يحكم حكما مطلقاً ، فإن كان لابد من دستور فليكن صورة أو قناعا زائفا . فاعترض على بعض مواد الدستور ، ومنها النص على أن « الأمة مصدر السلطات » . وأخذ يحرج الوزارة حتى أسقطها فى ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢ — دون أن تتم عملها . وعهد بالوزارة إلى « توفيق نسيم » ، وهو أحد صنائعه ، فعمد

هذا إلى إرضاء سيده بتعديل المشروع وفق هواه ، وبإرضاء الإنجليز أيضا بحذف النص الخاص بالسودان . لكن هذه المحاولة قوبلت بمعارضة قوية : فسقطت الوزارة . وألف « يحيي إبراهيم » الوزارة التالية فى ١٥ مارس ١٩٢٣ . وأخيراً صدر الدستور فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ : وهو الدستور الذى حدد نظام الحكم ، وظل معمولا به سنين عديدة حتى الثورة الأخيرة .

وهذا الدستور — وإن كان احتوى على مبادىء طيبة تضمن الحريات والحقوق — إلا أنه أبقى امتيازات خطيرة للملك ، كان يستطيع بمقتضاها — إذا وجد الأدوات والظروف الملائمة — أن يجعل إرادته هى السائدة ، ويكون الدستور حبراً على ورق . لكن الدستور صدر إذ ذاك وسط موجة من التفاؤل ، وترك هو الأمور تسير على سجيتها ، إذ لم يكن من الممكن أن يعارض التيار فى قوته .

* * *

وبدىء فى تنفيذ الدستور ، وإجراء الانتخابات . وكان سعد قد أفرج عنه ، وعاد من المنفى ، فاستقبلته البلاد أعظم استقبال . وقرر الوفد الاشتراك فى الانتخابات ، التى كان آخرها يوم ١٢ يناير ١٩٢٤ ، وكانت انتخابات نزيهة . وظهرت النتيجة ، فكان فوز الوفد بالأغلبية الساحقة ، حيث حصل على تسعين فى المائة من مقاعد مجلس النواب .

فاستقالت الوزارة القائمة . وطبقا للدستور، دعى سعد لتأليف الوزارة فألفها فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ .

كانت هذه أول انتخابات دستورية تجرى فى البلاد : وهذه أول وزارة شعبية تعتلى مناصب الحكم بإرادة الأمة . كانت صورة ديمقراطية رائعة . وكانت هذه هى القمة التى وصلت إليها جهود الثورة التى بدأت فى عام ١٩١٩ ، ونصراً للأمة لاشك فيه . لذا كان فرح الأمة عظيما بهذه الوزارة، إذ لم تشهد البلاد مثيلا لها منذ وزارة محمود سامى البارودى وأحمد عرابى . وهكذا وصل زعيم الثورة ، الذى بدأ الجهاد الوطنى منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، إلى رياسة الدولة أو الحكومة

لكن هذه النتيجة لم يكن ليرضى بها « الملك » ، إذ كان يريد أن يملك ويحكم ، ويعتبر الدستور منحة منه ، والأمة رعية يجب أن تظل خاضعة له : فأخذ يناوىء الوزارة ويضع العقبات فى طريقها ، وحدث صدام بينه وبينها فى عدة مسائل .

كما أن « سعدا » كان يتحدى الإنجليز ، ويتصرف كأنه رئيس دولة مستقلة ليس بها جيش احتلال . وفى صيف ذاك العام ، ذهب إلى لندن ليفاوض رئيس الحكومة الإنجليزية « ماكدونالد » زعيم حزب العمال ، فانتهت المفاوضة بالإخفاق ، وعاد، وقد ازدادت

العلاقات بينه وبين الإنجليز سوءاً . فهنا التقت رغبة الملك مع رغبة أعداء البلاد : ووجد الملك فى ذلك الفرصة للقضاء على هذا النصر الذى أحرزته الأمة ، والتخلص من سعد . وكان الطريق إلى ذلك أن دبرت مؤامرة لاغتيال أحد كبار الإنجليز ، وهو السير «لى ستاك» سردار الجيش فى السودان ، فجرى اغتياله فى أحد شوارع القاهرة فى يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ . فقامت حينئذ قيامة الإنجليز ، وتوجه «اللورد» اللنبى » على رأس قوة مسلحة ، فسلم سعدا إنذاراً من الحكومة البريطانية . كان هذا الإنذار يقضى بأن تدفع الحكومة المصرية غرامة قدرها خمسمائة ألف جنيه مصرى ، وبالاعتذار ، والبحث عن الجناة وبأن تأمر الجيش المصرى بإخلاء السودان . فبعد أن أجابت الحكومة الطلبات الأولى ، قدم سعد استقالة وزارته فى ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ فقبلت الاستقالة فى اليوم التالى . وبذا انتهت أول وزارة شعبية بعد عشرة شهور فقط .

وعهد الملك بالوزارة إلى « زيور » — وهو موظف عادى لم يكن له أى نشاط سياسى . ولم يكن له أى سند من برلمان أو هيئة — فقام بسحب الجيش المصرى من السودان ، وأجل البرلمان شهراً تمهيداً لحله . وأخذ ينفذ تماما رغبات الملك والإنجليز . وأصبح الملك فؤاد — بواسطة رئيس ديوانه « نشأت » — هو الحاكم المسيطر .

* * *

كانت هذه نكسة للثورة ، وإجراء قصد به إذلال الأمة ، وضربة موجهة للدستور . وظهر أن الأمة لا يمكن أن تثبت إرادتها مادامت « الملكية » قائمة ، وهي مستندة إلى قوة الاحتلال . فقد استطاع الملك أن يتحدى الأمة ، ويقيل زعيمها ، وهو حائز على الأغلبية ، ومؤيد من البرلمان . ولذا صار واجباً على الأمة أن تتجه للجهاد ضد الاستبداد ، والدكتاتورية ، الممثلة فى القصر — إلى جانب جهادها من أجل استكمال الاستقلال . صارت الأمة تحارب فى جبهتين : وأصبحت المعركة مزدوجة : ضد الاستعمار وضد الاستبداد .

حكم القصر — بواسطة «زيور» فى الظاهر ، و«نشأت» فى الحقيقة — حكما مطلقا ، طوال سنة ١٩٢٥ ، بدون برلمان . فبعد حل البرلمان الشرعى ، حاولوا أن يأتوا ببرلمان آخر : فأجروا انتخابات تدخلت فيها الإدارة ، واستعملت وسائل غير قانونية . ومع ذلك فحين ظهر أن الانتخاب جاء بأغلبية وفدية ، صدر مرسوم بحل البرلمان ، فى مساء نفس اليوم الذى انعقد فيه . كان هذا العام — وما حدث فيه من إجراءات — التجربة الأولى للمحاولات التى تعددت وتشابهت ، منذ ذلك العام وإلى أكثر من ربع قرن بعده ، وصارت السياسة المصرية تسير على هذه الوتيرة ، منذ ذلك الوقت . وما حدث فى ذلك العام كان هو الاعتداء على الدستور ، والتدخل فى الانتخابات وتزويرها

وفرض سلطان السراى أو الاحتلال ، وتجميع الأعوان من المستوزرين والرجعيين والممالئين للاستعمار وأصحاب المصالح ، الذين يعلنون الولاء للقصر ، ويقفون ضد القوة الشعبية وحقوقها الدستورية .. لذلك ليس من المجدى ذكر تفاصيل هذه المحاولات المتشابهة : ويمكن الإشارة إليها بإجمال ، وإعطاء صورة عامة عن الأحداث التالية ، لأنها كلها تكون فترة واحدة .

أما كيف انتهت التجربة « الزيوريه » فإن الحكومة البريطانية لما رأت أن الملك أصبح هو سيد الموقف ، وأن مندوبها السامى فى مصر قد جاوز — فى التشفى والانتقام من سعد والشعب الثائر — حده ، وأن الأحوال عادت إلى الاضطراب ، وجدت أن الوقت قد حان لكى تضع حداً لطغيان الملك . فغيرت مندوبها « اللورد اللنبى » وعينت بدلا منه « لورد جورج لويد » : فجاء وصمم على عزل « نشأت » وإبعاده من مصر . وكان الأحرار الدستوريون ، بعد أن استقالوا ، من الوزارة ، انضموا إلى الوفد فى جهده لإعادة الحياة الدستورية الطبيعية إلى البلاد . وقرر المتحدون أن ينعقد البرلمان فى السبت الثالث من نوفمبر ، كما ينص الدستور . وفى ذلك السبت عقدوا الاجتماع فى فندق « الكونتننتال » ، وأصدروا قرارا بعدم الثقة بالوزارة . ثم تكون الائتلاف : من حزبى الوفد والأحرار فى فبراير ١٩٢٦ : وتقدموا بطلب واحد ، وهو إجراء انتخابات دستورية مباشرة ..

لتأليف وزارة تحوز ثقة البلاد. فتمت الانتخابات — بعد أن وزعت الدوائر بالتراضي — وجاءت الأغلبية في صالح الوفد، ثم يليهم الأحرار. فاستقالت الوزارة الزيورية. وألفت الوزارة الائتلافية الأولى، برياسة «عدلي» في ٧ يونية ١٩٢٦. وانتخب «سعد» رئيساً لمجلس النواب. فكان هذا تصحيحاً للوضع، وإنقاذاً للحياة الدستورية بعد أن تدهورت الحال في العام السابق، وعلت إرادة الأمة من جديد. والواقع أن عهد الائتلاف — وقد دام نحو عامين (١٩٢٦ — ١٩٢٨) وألف الوزارة فيه «عدلي»، ثم ثروت منذ أبريل ١٩٢٧ — كان عهد استقرار وأمن وطمأنينة، نجحت فيه التجربة الدستورية، وحصل فيه تقدم كبير، إذ نفذت فيه مشروعات إصلاحية، في مختلف نواحي الحياة العامة. وكان «ثروت» قد دخل في مفاوضة مع «تشمبرلين» وزير خارجية بريطانيا، انتهت بمشروع معاهدة. وتوفى «سعد» في أثناء ذلك: في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧؛ فانتهى بوفاته عهد في حياة البلاد، وفقدت قوة كان لها أثر كبير في توجيه السياسة وجهاد الأمة.

* * *

ولم يعش الائتلاف طويلا بعد ذهاب سعد: فاستقالت وزارة «ثروت» في مارس ١٩٢٨، بسبب عدم الموافقة على مشروع معاهدة

« تشمبرلين » . وألف الوزارة « مصطفى النحاس »، الذى خلف سعدا فى رياسة الوفد، فما لبث أن تصدع الائتلاف واستقال بعض الوزراء . والواقع أنه كانت هناك مؤامرة مدبرة بين القصر والاحتلال ، إذ قصدا أن يوجها ضربة إلى الوفد والدستور . فأقيلت وزارة النحاس فى يونيه من نفس العام ، وأسندت الوزارة إلى محمد محمود ، وهو زعيم حزب أقلية : فأجل البرلمان ، ثم استصدر مرسوما بتعطيل الدستور لمدة ثلاث سنوات ، قابلة للتجديد . وهكذا تكررت التجربة الأولى بالاعتداء على الدستور . وحكم الرئيس الجديد حكما دكتاتوريا — بيد حديدية ، كما قال — مع أنه كان زعيم حزب الدستوريين ، وأكثر من الاعتداء على الحريات ، وعرفت البلاد الصراع الحزبى المرير . فظلت هذه الوزارة فى الحكم حتى ٢ أكتوبر ١٩٢٩ ، فاستقالت ، لأن حكومة المحافظين فى إنجلترا كانت قد تغيرت . وتولى الحكم وزارة العمال على إثر انتخابات عامة : فعزلت ممثل إنجلترا « جورج لويد » الذى كان صديقاً لرئيس الوزارة المصرية : وأرادت أن يعرض مشروع المعاهدة — الذى وضعه وزير خارجيتها « هندرسون » — على برلمان منتخب يمثل الشعب .

فأسندت الوزارة إلى « عدلى » — على أنها وزارة انتقال — فأجرت انتخابات محايدة : وأسفرت النتيجة عن فوز الوفد بالأغلبية الساحقة .

فألف « النحاس » وزارته الثانية فى يناير ١٩٣٠ ، وتوجه بعد قليل على رأس وفد إلى لندن لمفاوضة « هندرسون » ، وزير خارجية العمال ، وكادت المفاوضات أن تنجح،لولا أنها فشلت فى آخر مرحلة بسبب النص المتعلق بالسودان . وكان هذا الفشل خسارة كبيرة على الأمة ، لأن هذه كانت فرصة طيبة لإنهاء العلاقة المتوترة مع بريطانيا ، وتحديد وضع البلاد ، لتتجه إلى إصلاح شئونها الداخلية : فضاعت الفرصة ؛ ولم تكن هذه حكمة سياسية .

وكانت العاقبة خطيرة : فقد اتفقت رغبة الملك مع الإنجليز فى الانتقام من ممثلى الشعب ، وتوجيه ضربة جديدة ، أقوى من الضربات التى سبقت ، إلى الدستور والحقوق التى كسبتها الأمة . وعلى ذلك أقيلت وزارة « النحاس » فى يونيه من نفس العام (١٩٣٠) ؛ وعين إسماعيل صدقى رئيساً للوزارة الجديدة . فكان أداة للحكم المطلق ، واعتداؤه على حقوق الأمة أشد ، إذ لم يكتف بتعديل الدستور أو تعطيله ، بل ألغى الدستور كلية — دستور ١٩٢٣ — ووضع من عنده دستورا جديداً ، يعطى الملك حقوقا أكثر ؛ وعلى الرغم من معارضة الأمة ، أجرى انتخابات تدخلت فيها الإدارة بالتزوير ، وكون برلماناً من الأتباع .وظل يحكم البلاد هكذا ،حتى سبتمبر ١٩٣٣ .فعين بدلا منه « عبد الفتاح يحيى » — أحد رجال المال — فواصل نفس السياسة

بصورة أخف : إلى أن ساءت الحال واشتد السخط،وتدخل الإنجليز أنفسهم لتغيير الوضع، عملا بسياستهم وهى حفظ التوازن إذا زاد طغيان القصر عن حده ، ولظهور عوامل فى الموقف الدولى تنذر بقرب الحرب . فألفت وزارة جديدة برياسة «توفيق نسيم » ، وألغى الدستور الجديد فى نوفمبر ١٩٣٤ .

لكن بقيت البلاد عاما بدون دستور . إلى أن ثار الرأى العام ، ووجد أنه لم ينل لا دستورا محترما ولا استقلالا جدياً . فقام شباب الجامعة بثورة فى نوفمبر ١٩٣٥ ، اشترك فيها بعض هيئات الأمة ، وسقط عدد من الشهداء . ثم وحد الطلبة كلمتهم ، وقرروا أن يطلبوا من زعماء الأحزاب تأليف « جبهة وطنية » متحدة ، تسعى لإعادة دستور ١٩٢٣ وتنفيذه ، ولعقد معاهدة مع بريطانيا تنهى بها المسألة المعلقة . فأمام الوحدة الوطنية ، لم يسع الملك إلا أن يصدر الأمر فى ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ بإعادة دستور ١٩٢٣ . وتألفت وزارة جديدة فى أول فبراير ١٩٣٦ ، برياسة على ماهر . وألف وفد للمفاوضة فى ١٣ فبراير ، ضم ممثلى الأحزاب . ثم أجريت انتخابات حرة ، واجتمع البرلمان الجديد بأغلبية وفدية — كالعادة — فى ٨ مايو ١٩٣٦ .

* * *

وكان الملك فؤاد قد توفى فى ٢٨ أبريل ١٩٣٦ . فخلفه ابنه فاروق

وكان لم يبلغ سن الرشد بعد : فلم يتول سلطته الدستورية إلا بعد ذلك بعام وأشهر . وطبقا لمواد الدستور ألف « مصطفى النحاس » الوزارة فى ١٠ مايو ١٩٣٦ : وكان هو رئيس وفد المفاوضات التى جرت فى القاهرة مع ممثل بريطانيا « لامبسون » ، فانتهت إلى عقد معاهدة وقع عليها جميع زعماء الأحزاب ، ماعدا الحزب الوطنى : وهى معاهدة ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ .

لم تكن هذه المعاهدة فى الحقيقة أكثر من تفصيل وتحديد لتصريح فبراير ١٩٢٢ ، مع تعديل قليل فى صالح مصر . فقد أكدت المعاهدة مبدأ استقلال مصر : لكنها نصت على وجوب وجود قاعدة حربية لبريطانيا فى قناة السويس ، تحتلها قوة كبيرة : وفى وقت الحرب، لها الحق أن تحتل كل المرافق فى البلاد. ومن ناحية السودان ، أبقت الوضع على ماهو عليه ، كما فى اتفاقية ١٨٩٩. أما المزايا فلم تكن أكثر من تأكيد الاستقلال القانونى ، والتمهيد لإلغاء الامتيازات الأجنبية ، وتمثيل مصر فى عصبة الأمم . وقد ألغيت الامتيازات — فعلا — بالاتفاق مع الدول ، فى مؤتمر « مونترو » سنة ١٩٣٧ ، ودخلت مصر عصبة الأمم .

وفى ٢٩ يوليو ١٩٣٧ تولى الملك فاروق سلطته الدستورية .

وكان المتوقع أنه بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ يبدأ عهد من الاستقرار في حياة مصر ، ولا سيما أن « فاروق » كان لا يزال حدثا قليل التجارب ، ولكن المناورات السياسية انطلقت على أشدها ، منذ تولى سلطته الدستورية ، طمعاً فى تولى الوزارة ومناصب الحكم . وقد لقن فاروق منذ حداثته الكراهية للوفد وللدستور وحقوق الشعب. فبدأ عهده — تحت تأثير حاشيته ورئيس ديوانه « على ماهر » — بإقالة وزارة النحاس — وهى وزارة الأغلبية — إقالة مهينة فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ ، وإن كانت الوزارة ارتكبت فعلا بعض الأخطاء ، واتبعت سياسة حزبية ، لكن لم يكن هذا هو الطريق للإصلاح .

فإن الوزارات التى تلتها لم تظهر أحسن منها من حيث المغالاة فى السلوك الحزبى: فأصبح النزاع الحزبى هو طابع الحياة السياسية . وشجع فاروق ذلك إذ كان يؤيد أحزاب الأقلية : وهذه الأحزاب كانت تصل إلى الحكم عن طريق مخالفة الدستور ، وإجراء انتخابات موجهة ، واصطناع برلمانات لا تمثل الأمة تمثيلا صحيحا .

لذا كان عهد فاروق كله عهد اعتداء على الدستور — مثل عهد أبيه — بل أكثر . فلم يتول الوفد — حزب الأغلبية — فى عهده الحكم إلا مرتين : مرة حين أرغمه الإنجليز على ذلك فى وقت الحرب عام ١٩٤٢ ، لحاجتهم إلى حكومة شعبية : ثم فى عام

١٩٥٠ حين اضطرته العوامل الخارجية والداخلية إلى ذلك : وفى الحالتين أسرع — حينما حانت الفرصة — لإقالة الوزارتين . لذا ليست هناك فائدة من ذكر التفاصيل عن الوزارات العديدة التى تولت الحكم : فكلها من نوع واحد ، طابعها المشترك الخضوع للملك وسلطة السراى ، والولاء للعرش ، وغلبة التعصب الحزبى . وتكفى الإشارة إذن إلى هذه الوزارات . فقد تولى محمد محمود الحكم من عام ١٩٣٨ إلى عام ١٩٣٩ ، نخلفه على ماهر ، قرب نشوب الحرب العالمية ١٩٣٩ ، ثم استقال — تحت ضغط من الإنجليز — فى عام ١٩٤٠ : فحسن صبرى فحسين سرى ، إلى فبراير ١٩٤٢ — ولم يكونا إلا مجرد أداتين للملك ؛ ثم جاء الوفد — لظروف الحرب — فبقيت وزارته إلى أكتوبر ١٩٤٤ . ثم تعاقبت وزارة أحمد ماهر ، الذى اغتيل عام ١٩٤٥ ، فالنقراشى — وكانا زعيمين للحزب السعدى ، الذى انفصل من الوفد منذ سنة ١٩٣٧ — فإسماعيل صدقى مرة أخرى ١٩٤٦ ، فالنقراشى ثانية ، وعند اغتياله — لاصطدامه مع الإخوان المسلمين — فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ ، أسندت الوزارة إلى إبراهيم عبد الهادى من زملائه .

ثم جاءت وزارة « سرى » — ١٩٤٩ كانتقال لإجراء انتخابات ، وعودة الوفد . فأجريت الانتخابات فى مطلع عام ١٩٥٠ ، وحاز الوفد أغلبية ساحقة : فدعى رئيسه « النحاس » لتأليف الوزارة

فى ١٠ يناير ١٩٥٠ . فبقى إلى يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ ، حيث أقاله فاروق بعد إعلان الأحكام العرفية ، إثر حريق القاهرة المدبر فى اليوم السابق : وكانت هذه الإقالة إجابة لطلب الإنجليز ، لإنهاء حركة القنال . فتوالت فى ستة أشهر أربع وزارات على ماهر فنجيب الهلالى ، فحسين سرى — وذلك من غير برلمان ولا انتخاب — وأخيراً الهلالى ، لمدة يوم واحد ، حيث قامت ثورة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

* * *

فهذه هى سيرة الحكم فى مصر من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٥٢ . ويمكن أن يوضع لهذه الفترة كلها عنوان واحد ، هو « ديكتاتورية » الملك أو طغيانه — سواء فى ذلك الملك فؤاد ، أو ابنه الملك فاروق — متخذاً (أى الطغيان) صورة سطحية ، أو قناعا ، من دستور أو برلمان ، أو بدون ذلك فى بعض الأحيان . ومستعملا أدوات من الوزاريين ، الذين يتهافتون ويتنافسون على مقاعد الحكم ، غير مكترثين بإقامة نظام دستورى ثابت ، وتوطيد أركانه وتدعيم تقاليده ، حتى يكون فى مصر حكم ديمقراطى صحيح ، وتستطيع الأمة أن تثبت إرادتها وتكون كلمتها هى العليا .

على أنه — من ناحية أخرى — يجب أن نعطى هذه الوزارات الوطنية حقها من الإنصاف : فقد كانت « وطنية » على كل حال

ونفذت عدداً من المشاريع والأعمال الإصلاحية ، فى مختلف نواحى حياة البلاد: فى التعليم ، والصحة ، والمجالات الاقتصادية ، والإدارة ، والقضاء ، ورفع مستوى المعيشة ، وتحسين أحوال العمال والموظفين ، وغير ذلك ، بحيث يمكن القول أن البلاد مرت بفترة نهضة لا بأس بها فى تاريخها ، نقلتها إلى عهد أكثر تقدما ورقيا مما كانت قبل ثورة ١٩١٩ : أى فى عهد الاحتلال. فقد وجد، منذ هذه الثورة، وعى سياسى واقتصادى ، واجتماعى : وانتشرت الثقافة ، وتمتع الفكر بحرية ليست قليلة ؛ وكان التنافس بين الأحزاب يؤدى إلى تسابق فى أعمال الإصلاح ، ونشاط سياسى يقوى روح الأمة وإرادتها . ومن هنا تعد ثورة ١٩١٩ فاصلا بين عهدين ؛ وإن مصر فى عام ١٩٥١ — بنظمها السياسية والإدارية ، والاقتصادية والتعليمية — غيرها فى عام ١٩١٨ . ولولا استبداد « الملكية » بها ، ومحاربتها لإرادتها ، وشغلها بهذه المعارك ، لبلغت من التقدم والرقى درجة أعلى بكثير مما بلغته .

على أن آفة هذا العهد كله أنه كان عهداً إقطاعياً ، وكان هناك سوء توزيع للملكية والثروة . فكان هناك طبقة من الرأسماليين ، فى مجال الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، وصلوا إلى حد كبير من الثراء الفاحش ، واحتكروا الثروة . وتمتعوا بكل وسائل الرفاهية — ذلك إلى جانب السواد الأعظم من أغلبية الشعب، الفقراء والمعدمين: والأدهى أن كثيرا من الرأسماليين كانوا من الأجانب . وفوق هذه الطبقة كلها

كان يقف « الملك » — رأس الإقطاع وعميد الرأسمالية — مع أسرته المالكة لأجود الأراضى الزراعية ، والذين كانوا يعيشون عيشة الترف والإسراف . وأما فاروق — وكانت تحيط به حاشية فاسدة — فإن الأمر تطور به إلى أن أصبح مثال الانحلال والفساد . كما كسرت أسرته التقاليد المرعية . فانتهى عهده بسخط الناس جميعاً عليه .

٭

وفى أواخر عهده ، منيت مصر والشرق العربى بكارثة ؛ كان وسيكون لها أخطر النتائج ، بالنسبة لحياة الوطن والعالم العربى كله ؛ وهى احتلال الصهيونيين لفلسطين ، وإقامتهم دولة لهم على حدود مصر .

وقد كان سوء سياسة فاروق ، والحكومات التى عينها فى عهده ، من أسباب وجود هذه الكارثة : فلم يحسنوا توجيه العوامل الدولية أو الانتفاع بها . واشتركوا فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ بدون استعداد أو خطة ، بل اتخذها الملك والحاشية فرصة للاتجار بالأسلحة الفاسدة وجمع المال : فخوصر الجيش المصرى ، وعقدت الهدنة فى رودس ١٩٤٩ ، وقامت دولة « إسرائيل » فى فلسطين ، أول جار على حدود مصر . وكان لهذه الكارثة أسوأ الأثر فى الشعب وعلى نفوس رجال الجيش .

أما العلاقات بين مصر وإنجلترا فى عهد فاروق ، فإن معاهدة سنة ١٩٣٦ لم تمنع السفير البريطانى من التدخل فى شئون مصر ، وزاد هذا بدرجة خطيرة فى أثناء الحرب العالمية الثانية . فغدا واضحاً أمام

الشعب أنه لايمكن أن يكون هناك استقلال حقيق ما دام يوجد جيش احتلال . فما أن انتهت الحرب ، حتى قامت حركة تطالب بالجلاء . وقدمت حكومة النقراشى فى عام ١٩٤٥ مذكرة تطالب فيها بالجلاء ، فلم تصل إلى نتيجة . ودخل إسماعيل صدقى فى مفاوضات ، فى القاهرة ولندن ١٩٤٦ ، ولكن المشروع الذى قدمه قوبل بالرفض . فتوجه النقراشى فى وزارته الثانية ، صيف عام ١٩٤٧ ، إلى أمريكا ، وقدم شكوى مصر أمام « هيئة الأمم » ضد بريطانيا ، فلم تصنع تلك الهيئة شيئاً . ولما جاءت وزارة الوفد ، دخلت فى مفاوضات طويلة ، وحاولت أن تصل إلى اتفاق ، فلم تجد أى استجابة . وأخيرا ، اضطرت حكومة الوفد إلى أن تتخذ الخطوة الحازمة ، فأعلن رئيسها « النحاس » فى البرلمان يوم ٨ أكتوبر سنة ١٩٥١ إلغاء المعاهدة — معاهدة ١٩٣٦ — التى كان أبرمها . ومنذ تلك اللحظة ، نشبت شبه حرب فعلية بين المصريين والإنجليز فى منطقة القنال : فقاطعهم العمال ، وجاهدهم الفدائيون : من طلاب الجامعة والجيش : وقاموا هم بهجمات عدوانية على الأهالى وجنود الشرطة . لكن فاروق خان الحركة وعاون الإنجليز ، وحاول أن يخمد أنفاس الأمة . وظلت العلاقات مع الأعداء فى غاية التوتر إلى حين قيام الثورة فى يوليو ١٩٥٢ .

فهكذا وصلت الأمور كلها فى عهد فاروق إلى مآس ومخاطر وأزمات : وكانت المشاكل قائمة ، والأحوال تحتاج إلى إصلاح .

والرأى العام كله ساخط ينتظر التغيير . لذا لا عجب ، أنه حين قام الجيش بثورته أيدها الرأى العام ، ونجحت دون عناء: فكان هناك واجبات وقضايا كثيرة لابد أن تعمل لمواجهتها .

* * *

والخلاصة أنه — بعد استعراض أحوال مصر ، من الحرب العالمية الأولى ، وثورة ١٩١٩ التى أعقبتها ، إلى عام ١٩٥٢ الذى حدثت فيه الثورة الأخيرة — تتضح النتيجة ويتحدد الحكم العام : وهو أنه إذا كانت ثورة سنة ١٩١٩ طبيعتها سياسية ، ونجحت فى أن أوجدت بعدها نهضة وطنية ، إلا أن هذه النهضة كانت محدودة ، وكانت مصر بحاجة إلى ثورة أخرى ، تكمل ما بدأته تلك الثورة السابقة : فتظفر بالجلاء ، وتحقق الاستقلال التام ، وتقضى على الاستبداد السياسى ، وتقيم حكم الدستور ، و تطيح بالملكية ، وتحطم الوضع الإقطاعى، وتحرر الاقتصاد من النفوذ الأجنبى، وتوجه مصر لآفاق أوسع فى المحيطين العربى والدولى ، وتتوج هذا كله بمواجهة الكارثة التى أوجدتها الصهيونية : فتحرر فلسطين ، وتزيل هذا الخطر عن مصر والأمة العربية ؛ وبالجملة توجد نهضة وطنية وعربية شاملة . ومن أجل هذه الغايات ، قام الجيش بثورته فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، منفذا لإرادة الأمة .

وفى الفصل التالى ، سنبين حقيقة هذه الكارثة التى حاقت بفلسطين، وتطورها ونتائجها .

مؤامرة الاستعمار الكبرى

او

كارثة فلسطين

بل — فى الواقع — هذه أكبر من « مؤامرة »، وأكبر من أن توصف بأنها استعمارية فقط ، إنها جريمة كبرى ضد الإنسانية والعدالة والقانون . وقد نتج عنها أكبر خطر على الشرق العربى فى العصر الحديث . والواجب على كل مواطن أن يدرس حقيقة هذه الجريمة وأدوارها ، حتى يمكن أن تقدر نتائجها ، ويمكن أن يتضح السبيل لمقاومة هذا الخطر ثم القضاء عليه .

إن قلم المؤرخ ليرتجف وهو يحاول أن يخط أسطراً من أنباء هذه المأساة ، بل الكارثة ، بل الفاجعة !

فقلما يعرف المؤرخ فى سجل المآسى الإنسانية التى تعيها ذاكرته وما اقترنت به من آلام وأحزان، وفيما دوّن من أعمال القهر والظلم والعدوان والأحقاد العنصرية والمؤامرات الدولية — مايضارع هذه الكارثة فى هولها أو فى فداحة نتائجها . ولكن التاريخ — بعد كل ذلك —

لا ينبغى له أن يتأثر بما يدون من أحداث : وأولى له أن يلتزم مهمته الأصلية ، وهى أن يسجل الحقائق مجردة كما هى ، ويقدم عنها صورة صحيحة كما حدثت فى دائرة الواقع .

* * *

فى القرن الماضى :

كان اليهود ، فى القرن الماضى ،فى فلسطين لا يزيد عددهم عن عدد أفراد أية جالية أجنبية ، تعيش فى أى قطر من أقطار الشرق ، وقد قدر عددهم حينذاك بنحو ثمانية آلاف .

وبينما كان اليهود مشردين مضطهدين فى كل مكان من أنحاء أوروبا — ولاسيما فى روسيا القيصرية وبولندة والنمسا — وما كانت أوروبا ، شعوبا وحكومات ، تعاملهم أبداً طوال العصور إلا بمنتهى القسوة ، وتسومهم ألوان العذاب والذلة — كانوا يعيشون فى فلسطين وفى غيرها من أقطار العالم الإسلامى آمنين مطمئنين ، يتمتعون بكافة الحقوق المدنية والدينية ، كما لا يزالون يعيشون فى هذه الأقطار إلى اليوم .

ولكن ما كان يجول بخاطر أحد ، وما كان يحسب أحد أنه يكون فى حدود التصور المعقول ،أن هذه الأقلية الدينية الغريبة عن الديار ، والتى تركت تعيش فى فلسطين فى كنف المسلمين ، وبفضل تسامحهم

وكرمهم ، واتخذت من موطنهم ملجأ تلوذ به من اضطهاد الأوربيين وعسفهم ومطاردتهم — أن هذه الفئة ستصبح فى يوم من الأيام مصدر خطر على أهل البلاد أنفسهم ، ويزداد شأنها حتى يكون لها كيان سياسى : ثم تستطيع أن تتحدى السكان الأصليين ، بل تمشق فى وجوههم الحسام ، وتعلن نفسها « دولة » فى قلب البلاد ، بعد أن تكون قد أخرجت أهلها إلى حيث يعيشون فى القفر والعراء ، عيشة البدائيين فى أسوأ الحالات ، يموتون بالآلاف ، ويهدد من بقى منهم بالفناء ! ولكن هكذا شاء الاستعمار : وشاءت إرادة الدول المتعصبة الكارهة للإسلام ، التى تحاربه أبد الدهر ولا تريد به وبأهله إلا شراً — وإن كان هؤلاء غير شاعرين تماما بما يراد بهم ، وغير مدركين مدى الخطر المحدق بهم . فما شأن هذا الخطب ، وما أصل ذاك البلاء ؟ وكيف وقعت تلك الكارثة التى تعد أكبر كارثة فى تاريخ الشرق الأوسط فى العصر الحديث ؟

البحث عن ملجأ آمن :

إن أبعد آمال اليهود ، التى كانوا يطمعون فى تحقيقها عمليا — حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر — كانت هى أن يجدوا ملجأ آمنا ، يأوون إليه من اضطهاد أوربا المسيحية لهم : ويستطيعون أن يضموا فيه شتات أبناء طائفتهم المبعثرين ، فى كل صقع على وجه الأرض :

ويتلقون من يفد إليهم كلما طافت بأوروبا موجة من الاضطهاد . وذلك كله تحت رعاية وفى كنف أية دولة ، تكون مستعدة لأن تؤويهم ، وتعترف لهم بهذه الحقوق المحلية . وتبسط سلطان حمايتها لهم . هذا ، وإن كانت أنظارهم تتطلع إلى فلسطين فى المقام الأول حيث أن أحلامهم كانت تقودهم إلى أن يتصوروا أنه يمكنهم أن يرجعوا التاريخ ، إلى ماقبل نحو ثلاثة آلاف عام : أى قبل أن يستولى عليهم ويسبيهم وينفيهم الأشوريون والبابليون ، وقبل أن يدمرهم ويقضى عليهم نهائياً ، ويشردهم — كل مشرد فى الأرض — الرومان .. !

هرتزل و « الصهيونية » :

لكن فكرتهم لم تصر محددة ، ولم يبدأ الدور الإيجابى لحركتهم ، وتتبلور عقيدة « الصهيونية » : — وهى المطالبة بالرجوع إلى « صهيون » — اسم القدس فى العهد القديم : — أرض الميعاد ، لتأسيس وطن قومى — إلا حين قام « تيودورهرتزل » ، الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للصهيونية ، يدعو إلى هذه الفكرة بحماس ، ويضع نظاما عملياً لتحقيقها . فألف كتابه : « الوطن اليهودى » فى عام ١٨٩٥ ، الذى حدد فيه أهداف الفكرة واستحث أبناء طائفته أن يسعوا لتنفيذها : وحاول أن يؤيدها بما أمكن أن يعثر عليه من حجج وأدلة .

حينئذ بدأ النشاط وتوالى عقد المؤتمرات : ففيما بين عامى : ١٨٩٧ و ١٩١١ عقدت عشرة مؤتمرات . كان المؤتمر الأول منها فى « بازل » بسويسرا : وكان من بين القرارات التى اتخذت فيه : تشجيع حركة الاستعمار فى فلسطين فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة ، وتنظيم عناصر اليهود وتوثيق الروابط بينهم بإنشاء المؤسسات المحلية والدولية : وإحياء الشعور القومى وتعليم اللغة العبرية وإنشاء المدارس : وإيجاد صندوق توفير يهودى وجمع الأموال والمنح لتنفيذ المشاريع : وقد حدد الغرض من الحركة الصهيونية « حينذاك ، بأنه «السعى لإيجاد وطن قومى لليهود فى فلسطين على أن يكون مضمونا من الدول ويعترف به اعترافا دولياً » .

مساعى « هرتزل » :

ظل « هرتزل » يواصل جهوده فى سبيل دعوته — وكان كثير من اليهود لا يؤمنون بها بل يتوجسون منها خيفة ، لاعتقادهم أنها تضر مصالح الطوائف المتوطنة فى بلاد الشرق — فطفق يعمل لتأسيس الجمعيات ، وجمع التبرعات وفتح المصارف لتمويل الحركة . حتى كان من بين جهوده أنه توجه إلى السلطان « عبد الحميد » . وسعى لديه أن يمنح اليهود أراضى فى فلسطين ، ويفتح أبوابها لوفود المهاجرين ، فى مقابل منافع مادية وسياسية عرضها عليه . ولكن

الصفقة لم تتم : إما لأن السلطان — وقد كان ، على استبداده ، ذكيا بعيد النظر — فأدرك خطورة الحركة : وهذه إذن تعد من الحسنات التى ينبغى أن يسجلها له التاريخ : وإما لأن الثمن الذى اشترطه السلطان كان باهظا ، فلم يستطع اليهود الوفاء به .

وفى تلك الأثناء ، أظهرت انجلترا عطفها على المشروع : فعرض اللورد « كرومر » على اليهود أن يستعمروا شبه جزيرة « سيناء » . وذهبت بعثة بالفعل سنة ١٩٠٣ اترتاد الأرض، ولكن صعوبات مادية من بينها قلة المياه ، قامت دون تحقيق الفكرة . فعرض عليهم ثانية وزير المستعمرات الإنجليزى : «جوزيف تشمبرلن» فى نفس العام أن يقطعهم مساحات واسعة فى شرق إفريقية : فرحب كثير من اليهود بهذا العرض ، وعدوه على كل حال دليلا على صداقة إنجلترا وعطفها على قضيتهم — وهى الصداقة التى استمرت إلى ما بعد ذلك — ولكنهم انقسموا حياله . فحين وضع الاقتراح أمام المؤتمر الصهيونى الذى انعقد فى عام ١٩٠٥ قررت الأغلبية رفضه ، لأن شرق إفريقية ليس « صهيون » .

وكان « هرتزل » قد مات فى عام ١٩٠٤ ، خائب الأمل : غير متجاوز الرابعة والأربعين من عمره : وهو يشعر أنه — على وفرة نشاطه وكثرة الجمعيات التى ألفها — لم تكن آماله تبدو قريبة التحقيق . ثم مرت الحركة فى دور جمود بعده ، وكثر الشاكون فيها ، حتى من

بين صفوف اليهود ، وباتت تظهر فى أعين الساسة على أنها حماقة أو وهم وخيال ، كما صرح بذلك المستر « أسكوث » نفسه ، الذى كان رئيس وزراء انجلترا قبيل الحرب وفى أوائلها .

* * *

فى الحرب العالمية الأولى :

فهكذا يتبين أنه ، حتى وقت نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، كانت « الصهيونية » تبدو وكأنها ليست أكثر من مشروع نظرى أو فكرة خيالية : ولم تكن تعدو أن تكون أملا يداعب خيال بعض المتعصبين : إذ لم تكن الوسائل لإنشاء الوطن القومى — فضلا عن الدولة — موجودة : وما كان يمكن أن توجد .

لكن هؤلاء المتعصبين المتحمسين لم يفقدوا الأمل؛ فبعدأن كاد اليأس يدب إلى قلوبهم إذا به يحيا من جديد ؛ نتيجة لأعمال غيرهم ذلك لأن رجال جمعية «الاتحاد والترقى» أخذوا منذ مدة يعملون بهمة لتقويض الوحدة الإسلامية ، متبعين سياسة « التتريك » أو التعصب القومى : فبذلك كانوا يهدمون بناء دولتهم بأيديهم . وكان اليهود يحسون بقرب تفكك الدولة ، وهم يعلمون نيات الدول الاستعمارية نحوها ونحو أملاكها . ثم حانت لهم الفرصة النادرة التى لا يسمح بمثلها الدهر ، حين اندفع رجال الاتحاد فى جهالة وغرور وتهور ، فاشتركوا فى الحرب الأوروبية سنة ١٩١٤ ؛ وأعلنو انضمامهم إلى

جانب ألمانيا : إذ أنهم بذلك العمل الطائش قد زجوا بالعالم الإسلامى كله فى أتون الحرب ، ويسروا السبل أمام مطامع الاستعمار ، وأعادوا فتح باب « المسألة الشرقية » على مصراعيه : فحل إذن دور التصفية .

وكانت هذه الطامة الكبرى ، التى لم تود فقط برجال الاتحاد والترقى بل كان على أمم الشرق العربى أن تدفع هى ثمن جهالاتهم ، وأخطائهم وحماقاتهم .

«وايزمان» والمؤامرات الاستعمارية :

أسرعت إنجلترا وفرنسا والصهيونية ، فعقدوا فيما بينهم حلفا على تقسيم الولايات التابعة للدولة العثمانية والتهامها . وكانت حركة الآمال الجديدة قد أظهرت زعيما آخر ، هو الدكتور « حاييم وايزمان » — ولم يكن هذا الرجل مشهوراً من قبل ، بل كان أستاذاً فى جامعة «مانشستر» وعاون الحلفاء فى صناعات الكيمياء والمفرقعات — فنهض يعمل لتحقيق الفكرة الصهيونية . وأخذت بيوت الأموال اليهودية تساوم ، وتعرض إغراءاتها : وصار « وايزمان » — ومن ورائه رجال الأعمال : من أمثال « روتشلد » يؤيدونه — يقابل كبار الساسة والزعماء . حتى ظفر بأن حصل على التأييد الكامل من انجلترا لمشروع « الصهيونية » . وكانت انجلترا فى نفس الوقت تساوم « شريف مكة » وغيره من زعماء العرب : ونجحت فى أن حملته على أن يدخل فى الحرب ويساعدها بكل قواته ، دون أن يأخذ منها موثقا صريحا ، ومكتفيا

بالخطابات السرية . وغير شاعر أيضاً بخطورة أغراض الاستعمار أو اليهود . ولم تكن إنجلترا تنوى غير الغدر بالعرب ، ولم يكن لها من قصد إلا استغلال قواهم وجهودهم ، حتى يتيسر لها النصر . أما « وايزمان » فقد ظفر بتصريح خطير ، أعلنه وزير خارجية إنجلترا بنفسه على العالم سنة ١٩١٧ : وفيه لم يدع الإنجليز شكا فى أنهم قد احتضنوا القضية الصهيونية : وأنهم عاملون وسيعملون على تأييدها ورعاية الوطن القومى اليهودى منذ نشأته حتى يبلغ مرحلة نضجه .

حينئذ دخلت الصهيونية فى دورها الجديد : دورها الخطير الإيجابى ، الذى كانت له أكبر الآثار فى تاريخ الشرق .

(٣)

ازدياد الهجرة :

أخذ الشعور بخطر «الصهيونية» يزداد، بتزايد أعداد المهاجرين إلى «فلسطين»: وذلك على إثر استيلاء رجال «الحزب الوطني الاشتراكي» على مقاليد الحكم فى ألمانيا عام ١٩٣٣ ، وقيامهم بتطهير وطنهم من اليهود ، لما ظهر منهم من الغدر والخيانة فى أثناء الحرب العالمية الأولى . فبينما كان عدد المهاجرين عام ١٩٣١ ٢٥٠٠ فقط إذا به يرتفع فى الأعوام التالية : فيصير فى سنة ١٩٣٢ ٩٥٥٠ ، ثم فى سنة ١٩٣٣ ٣٠,٣٢٧ ، ثم يثب سنة ١٩٣٤ فيصير ٤٢,٣٥٩ ، وفى سنة ١٩٣٥ يبلغ ٦١,٧٢٤ . ورحبت الدول الأوروبية ، ومن بينها انجلترا ، بتحويل العدد الأكبر من النازحين إلى الشرق الأوسط . لأنها فى نفس الوقت الذى تتظاهر فيه بالعطف عليهم تريد أن تتخلص منهم من بلادها ، ولا تقصد أن تنصفهم إلا على حساب غيرها : أى العرب ، ذوى الحمى المستباح !

ثورة العرب سنة ١٩٣٦ :

لم يكن بد إذن ، وسكان فلسطين يرون أنهم قد أغرقوا ويغرقون بأمواج المهاجرين المتتابعة ، من أن يقوموا بثورة عارمة

أرادوا بها الإعلان عن حقهم والذود عن كيانهم ، ومحاولة إيقاظ ضمير العالم الميت الذى خنقته المطامع والشهوات والأحقاد ، الناشئة عن التعصب القومى والدينى والإغراق فى عبادة المادة ، والأثرة الموبقة : تلك الصفات التى تتجلى فى نفوس الأوربيين والأمريكيين من مسيحيين ويهود . فكانت إذن ثورة العرب الكبرى فى عام ١٩٣٦ التى استمر فيها إضرابهم ستة أشهر كاملة ، وخرج أبطالهم يقاتلون فى الجبال والوديان ، فكانت الطائرات الإنجليزية تدك معاقلهم وقراهم بالقنابل دكا ! وهكذا أصبحت فلسطين — الأرض المقدسة — فى حالة حرب . وكان أول أثر لذلك هبوط نسبة الهجرة فى السنوات القليلة التالية ، كما أن هذه كانت أول مرة شعر فيها الإنجليز بقوة العرب .

ولم تجد إنجلترا بدا من معالجة الحالة — بطريقتها الخاصة — فأرسلت لجنة للتحقيق رأسها لورد « بيل » — نائب الملك السابق فى الهند — فأخذت تحقق وتستجوب ، وكان العرب قد قاطعوها فى بداية الأمر ثم اتصلوا بها بعد ذلك ، وأخيراً أصدرت تقريرها فى يوليه ١٩٣٧ .

لجنة « بيل » وتقريرها :

اعترف تقرير هذه « اللجنة » ببعض الحقائق :

فقرر أن أسباب الثورة راجعة إلى رغبة العرب فى الحصول على

عليه فيما بعد — غير التمويه والتغرير ، تخديراً لشعوب العرب ليستكينوا لما يراد بهم : فكانت بقية الخطاب :

[على أنه مفهوم بوضوح أنه لن يعمل شيء يمس الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية ، التي توجد الآن في فلسطين] .

— هكذا كان التعبير المقصود به الإشارة إلى العرب —

[ولا الحقوق والمزايا السياسية ، التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر .

وأكون معترفاً بالشكر إذا تفضلت بأن تبلغ هذا التصريح إلى الاتحاد الصهيوني] .

من أغراض الاستعمار :

هكذا قررت إنجلترا بنفسها مصير فلسطين، واعترفت بـ « الوطن القومي » — هذا التعبير الغامض الدولي — قبل وجوده ، متجاهلة إرادة الشعب الفلسطيني ، ومتصرفة في أرض غيرها ، كأنها مالكتها الأصيلة . تمنحها لمن تشاء حتى لقوم غرباء لم يفدوا بعد .

فإذا بحثنا عن الدوافع التي دفعت الإنجليز إلى عقد هذا التحالف الوثيق مع « الصهيونية » ، وجدناها مختلفة : فقد كان هناك الغرض

الاقتصادى : وهو سعيهم إلى الحصول على أموال اليهود لتساعدهم فى إبان الحرب وبعدها ، ورغبتهم كذلك فى تأمين طريق «البترول» إلى حيفا ؛ والغرض السياسى : وهو إيجاد قاعدة لهم فى قلب الشرق الأوسط يتركز عليها نفوذهم : والغرض « الاستراتيجى » وهو تكوين منطقة حراسة ، تؤمن احتلالهم لقناة السويس ، وسيطرتهم على شرق البحر الأبيض . ولكن إلى جانب هذا كله ، كان هناك الغرض الدائم أو الأعم ، وهو الغرض المتصل بتطور الأحداث التاريخية بين الغرب والشرق ؛ والذى يحدد طبيعة العلائق بينهما : وهو إرضاء ما هو مستقر فى نفوس الإنجليز وغيرهم ، من الدول الأوربية المستعمرة ،من غريزة الكراهية ونازعة الحقد على الإسلام وأهله : حقد دفين ناتج عن تعصب وروح « صليبية » موروثة تدفع الغربيين إلى أن يعملوا دائماً على توهين قوته وتبديد شمل أهله ، حتى يسهل عليهم إما القضاء على شعوبه ، أو إبقاؤهم يرسفون فى قيود الاستعباد قروناً ، وهم يتصرفون فى أمورهم كما يشاءون !

موافقة الدول الأوربية وأمريكا :

وإذا كانت « إنجلترا » هى التى بدأت بحمل هذا الوزر ، وهى المسئولة أولا عن خلق تلك المأساة المفجعة ، التى قل أن كان لها نظير فى تاريخ الإنسانية :وهى التى ينظر إليها التاريخ إذن على أنها الأم التى ألقت إلى العالم بهذا المولود غير الشرعى ، الذى يحمل فى وجهه كل

علائم القبح وسمات الشذوذ — فإن الدول الغربية الأخرى كانت موافقة على مسلكها الآثم، وبادرت بالاعتراف بهذا المولود غير الشرعي. فصادقت فرنسا على « التصريح »، وتبعتها إيطاليا، في خلال عام ١٩١٨، كما أن الرئيس « ولسن » — رئيس الولايات المتحدة — وهو الذي نادى بمبادىء تقرير المصير وحقوق الشعوب، وما إلى ذلك، أعلن اغتباطه بصدور التصريح. وما كاد مؤتمر الصلح ينعقد عقب الحرب — وهو المؤتمر الذي منع وفد مصر من أن يتقدم إليه — حتى أذنت تلك الدول لوفد « صهيوني » أن يمثل أمامه ويقدم مطالبه : فتم ذلك في فبراير سنة ١٩١٩. ثم قرر «مجلس الحلفاء» الذي انعقد في « سان ريمو » في إبريل سنة ١٩٢٠ انتداب إنجلترا على فلسطين، وأن تكون هي المسئولة عن تنفيذ « التصريح » بإقامة الوطن القومي لليهود.

« عصبة الأمم » و « الكونجرس » :

فلما تكونت « عصبة الأمم » وافق مجلسها في إجتماعه المنعقد في « لندن» في ٢٤ يوليو ١٩٢٣ على وثيقة « الانتداب » وشروطه التفصيلية. وكان وعد « بلفور » على رأس تلك الوثيقة. والقارىء لشروطها يراها تنطق نطقاً صريحاً بأنها وثيقة صهيونية محضة، كتبها أو أملاها اليهود أنفسهم : ثم صدقت عليها إنجلترا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا وبقية الدول. فقد صدر بها الوعد كأنه قرار دولي :

واعترفت المادة الرابعة منها بـ « الوكالة اليهودية » ، ونصت على أن الغرض منها أن تنصح وتعاون الإدارة بفلسطين ، فى كل ما له علاقة بإنشاء الوطن القومى لليهود : وقررت أن واجب الإدارة فى فلسطين أن تيسر هجرة اليهود إليها ، إلى غير ذلك مما يحقق الأهداف الصهيونية تحقيقاً تاماً .

وفى نفس العام ١٩٢٢ ، وافق الكونجرس الأمريكى — بمجلسيه — على « التصريح » . وكانت الهيئات اليهودية الأمريكية تتعاون تعاوناً وثيقاً مع الصهيونيين فى فلسطين ، وفى كل مكان .

* * *

انجلترا والصهيونية :

بدأ تنفيذ « الانتداب » — وهو ليس إلا كلمة أخرى للاحتلال المسلح العدوانى — بعد مصادقة « عصبة الأمم » عليه ، منذ سنة ١٩٢٣ .

ولكن إنجلترا — بالاشتراك مع الصهيونية — كانت قد بدأته منذ دخول جيشها أراضى فلسطين عام ١٩١٨ : هذا الجيش نفسه الذى كان متحالفاً مع العرب ، وأمكن له الظفر بمساعدة « الفيلق العربى » . الذى كان يقوده « فيصل » و « عبد الله » ابنا « الحسين » ، والذى مهدت له الطريق سواعد العمال العرب : وكانت مصر قاعدته

للتموين والعمليات الحربية . وكان رمز هذا التنفيذ — أولا — تاسيس «الجامعة العبرية» بالقدس فى عام ١٩١٨ — التى كان سيحضر «بلفور» بنفسه فيما بعد لافتتاحها : ثم أخذت «حكومة الاحتلال» منذ الساعة الأولى تعمل بهمة ونشاط ، وتتخذ الوسائل لإنجـــاز المشروع الصهيونى : وذلك بإرشاد اليهود ، إذ كانت «الوكالة الصهيونية» قد قدمت فلسطين على إثر الاحتلال ، كما تبعتها جماعات أخرى عديدة من تلك التى عرفت بشدة التعصب .

وسائل التنفيذ :

وكانت الوسائل الرئيسية الكبرى لتحقيق أهدافهم ثلاثة :

١ — الهجرة .

٢ — شراء الأراضى .

٣ — تأسيس المستعمرات الزراعية والصناعية .

الهجرة اليهود :

أما الهجرة فكانت غايتهم أن يغرقوا فلسطين بالوفود المهاجرة . حتى تكون لهم الكثرة العددية . وكان هذا هو الخطر الأكبر على أهل البلاد ، إذ أن به يتم تهويد أرضهم : ولذا كان المشكلة الرئيسية.

فتحت الإدارة الإنجليزية الباب على مصراعيه ، وشجعت الوكالة

اليهودية ، والهيئات التابعة لها فى أوربا ، الهجرة بكافة الوسائل : وكان هناك الرصيد الدائم من الأموال ييسر للنازحين الطرق : فلولا مقاومة الأهلين على قدر ما كان فى استطاعتهم ؛ ولولا ارتباط الهجرة بمدى التقدم الاقتصادى ، لبلغت نسبتها درجة أضخم وأخطر مما كانت . ومع ذلك ، فإن نسبتها كانت عالية جاوزت كل حد متوقع . فلقد كان تعداد اليهود فى فلسطين عقب نهاية الحرب العالمية الأولى لا يزيد على خمسين ألفاً إلا قليلا ، فإذا به فى عام ١٩٢٢ يبلغ ٨٤ ألفاً ثم فى عام ١٩٢٥ يصل إلى ١٠٨ ألف ، ثم زاد حتى بلغ فى عام ١٩٢٧ ١٥٩ ألف . فكان عدد المهاجرين فى أقل من عشر سنوات إذن مائة ألف يهودى : منهم ٣٣٫٨٠٠ ألف فى سنة ١٩٢٥ فقط . ثم تضاعفت نسبة المهاجرين بعد عام ١٩٣٣ ، فى أثناء حكم النازيين لألمانيا . وكان أكثر المهاجرين من بولنده ، ثم من ألمانيا وروسيا ورومانيا . حتى إن عدد المهاجرين من بولندة وحدها بين سنتى ١٩١٩ و ١٩٣٧ كان ٢٤٩ر ١٣١ ألف . وذلك كله بتعضيد وترحيب الإدارة البريطانية .

شراء الأراضى :

سارت حركة شراء الأراضى جنباً إلى جنب مع حركة الهجرة . وكانت خطورتها البالغة من الناحيتين : القانونية والاقتصادية . وساعدت الظروف السيئة التى كان يعيش فيها أهالى فلسطين على نشاط

هذه الحركة: كما أن الأموال لم تكن تعوز اليهود، فقد هاجر كثير منهم برءوس أموال كبيرة، كما كانت هناك الأرصدة التى خصصت لهذا الغرض.

المستعمرات:

بذل الصهيونيون أعظم النشاط، واستخدموا خبراتهم ومعارفهم الفنية إلى أقصى حد، لتأسيس المستعمرات الزراعية والصناعية حتى كثر عددها وأحرزت قدراً من النجاح. وكانت حكومتا الاحتلال فالانتداب متحيزة لهم دائماً — وهذه هى الحقيقة التى يسجلها التاريخ — تحابيهم وتؤثرهم بكل شىء: ولا غرو فهى ما وجدت إلا لخدمتهم. فمما أعطتهم — مثلا — : امتياز «الكهرباء» — وهو مورد اقتصادى هائل — واستخراج البوتاسيوم من البحر الميت، وماعدا ذلك. وهكذا استمرت المؤامرة الصهيونية الإنجليزية ضد أهالى فلسطين فى طريقها:

* * *

بيع شعب فلسطين:

هذه هى أعمال «انجلترا» فى فلسطين من عام ١٩١٨؛ وهى تثبت بكل وضوح وجلاء أن الانتداب الذى أعطتها أياه جمعية

المستعمرين التى كانت تسمى « عصبة الأمم » لم يكن إلا ستاراً لإنفاذ أبشع صفقة عرفها التاريخ : هى صفقة بيع شعب بأسره لشراذم من وافدين غرباء، نظير رشاوى من أموال وامتيازات سياسية ونحو ذلك : ولقد نفذت باسم ما أسموه « القانون الدولى » !! .

وفى أول الأمر لم يتبين شعب فلسطين حقيقة المؤامرة التى حيكت له ، ولم يدرك خطورة الأهداف التى ترمى إليها : وكانت الأمة العربية أيضاً فى ذلك الوقت مشغولة برد العدوان الأوروبى الذى داهمها أو شدد قبضته عليها عقب الحرب: ثم إذ أخذت الحقيقة تتكشف رويداً رويداً ، ورأى أهل البلاد وفود المهاجرين وسيول الأموال تتدفق على أرضهم ، فأيقنوا أن وطنهم فى خطر ، هبوا للدفاع عن كيانهم ! كان سخط الفلسطينيين وحنقهم مستمراً ، فقاموا بثورات متعاقبة: فى أعوام ١٩٢٠ و ١٩٢٥ و ١٩٢٩ و ١٩٣١ ، قابلها الإنجليز بمنتهى العنف والقسوة: بالسيف والنار! ثم لم يجدوا بعد ذلك بداً من القيام بثورتهم الكبرى فى عام ١٩٣٦ .

وكان الوعى العربى فى ذلك الحين قد أخذ ينمو وينتشر، فأدركت شعوب العرب أن المؤامرة تشملهم جميعاً، وأن الخطر على الأبواب؛ وأن ضياع فلسطين هو ضياع للوطن العربى بأكمله ، وأن المؤامرة ليست ضد العرب فقط ، بل ضد الإسلام والشرق . فأصبحت قضية فلسطين هى قضية الأمة العربية بأسرها ، بل قضية الإسلام .

(٢)

وعد « بلفور » ١٩١٧ :

أشرنا فى الفصل السابق إلى أن الفكرة الصهيونية كانت تبدو فى نظر كثير من الساسة على أنها وهم أو حماقة ؛ وهى كانت كذلك حتى فى نظر كثير من اليهود أنفسهم . ولكن هذه الفكرة قد تغيرت وانقلبت إلى حقيقة كبيرة ، وأخذت صورة مشروع عملى يوضع موضع التنفيذ والتطبيق : وذلك على أثر — وبسبب — التصريح الخطير الذى أعلنه وزير خارجية إنجلترا : « لورد بلفور » ، فى مجلس العموم يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ — وهو يوم ينبغى ألا ينسى فى تاريخ الشرق العربى الحديث — فإن مؤدى ذلك التصريح كان هو أن إنجلترا قد أعلنت انضمامها إلى اليهود ؛ وقد أخذت على نفسها العهد بأن تسعى وتجتهد — ما وسعها الجهد — فى أن تحقق لهم آمالهم غير المشروعة فى « فلسطين » على حساب العرب سكانها الأصليين .

* *

كانت إنجلترا فى ذلك الوقت قد أوشكت أن تخرج من الحرب ظافرة ، وهى معتمدة بقوة حلفائها ، وقادرة على أن تملى شروطها . وقد أعلنت هذا التصريح قبيل دخول الجنرال « أللنبى » القدس بمدة

قصيرة ؛ فكان ملخصاً للسياسة التي ستتبعها عند احتلال «فلسطين».
وكان هو الذروة التي انتهت إليها المؤامرة التي ظل اليهود والمستعمرون يدبرونها ويحكون خيوطها طوال سني الحرب ، يقصدون من ورائها تمزيق وحدة العـالم الإسلامي وتقسيم شعوبه وأوطانه ، بين المستعمرين والمشردين الأفاقين ...

كان صدور ذلك « التصريح » في صورة خطاب ، وجهه الوزير البريطاني — الذي كان على اتصال دائم بزعماء اليهود والرأسماليين في أمريكا وأوربا — وجهه إلى لورد « روتشيلد » زعيم الصهيونيين الإنجليز ؛ وقد كان نصه كالآتي :

[عزيزي اللورد روتشيلد :

يسرني سروراً كثيراً أن أنهي إليك — نيابة عن حكومة جلالته — التصريح الآتي ، الذي يعلن العطف على المطامح اليهودية. وقد عرض هذا التصريح على الحكومة البريطانية ، فوافقت عليه :

إن حكومة « جلالته » تنظر — بعين الرضا والتأييد — إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي . وستبذل أعظم جهودها لتسهيل تحقيق هذا المشروع] .

ثم أضيف إلى ذلك قيد، لم يكن يقصد به — كما برهنت الحوادث

استقلال بلادهم ، ومعارضتهم للوطن القومى اليهودى ؛ وبالتالى خوفهم من سيطرة اليهود . كما سجل أن العرب يأخذون على حكومة الانتداب تحيزها للصهيونية ، وأنها لم تحقق ما نصت عليه وثيقة انتدابها من العمل لإقامة الحكم الذاتى فى البلاد ، خشيـــة إغضاب الصهيونيين الذين كانوا لا يزالون أقلية : فبينما تهمل بريطانيا تنفيذ البنود التى تخدم مصالح فلسطين والعرب ، تعنى بتنفيذ تلك التى تحقق مطالب اليهود : مثل تيسير الهجرة ، وشراء الأراضى من العرب ، وما إلى ذلك . وتضمن التقرير عدة توصيات ، بعضها جاء بعد فوات الوقت ، وأتى بعضها مناقضاً للبعض الآخر . ولكن أهم ما جاء به وهو العلاج النهائى الذى قدمه لحل المشكلة ، أنه اقترح تجزئة أو « تقسيم » فلسطين إلى ثلاثة أقسام . وكان هذا أول ظهور لفكرة التقسيم فى ثوب رسمى . وهى فكرة وردت من إنجلترا ! . فاقترح أن يكون القسم الساحلى مع ما يليه من سهول خصبة لليهود : والقسم الداخلى الذى يكون مع شرق الأردن كتلة واحدة يكون للعرب . وبينهما دولة الانتداب التى تفصل بينهما : وتشمل رقعتها القدس وبيت لحم والناصرة ، وتشرف على كليهما بمقتضى معاهدتين تبرمهما مع كل منهما على حدة .

ولما كانت هذه « التجزئة » لوطن واحد محدود المساحة معناها اقتطاع الجزء الأكبر من الوطن العربى فى فلسطين للانجليز واليهود ،

مع الاعتراف بشرعية وجود الأخيرين الذين ما هم غير مغتصبين ، واستمرار خضوع البلاد لنفوذ الاحتلال دون أن تنال استقلالها كان طبيعياً أن يكون نصيبها الرفض . وكانت على كل حال اقتراحاً غير عملي لم يرض به أي طرف . ولم يجد العرب حينئذ أمامهم إلا أن يستأنفوا الجهاد ، فعادت الأمور كما كانت إلى الاضطراب . وقابلت الحكومة البريطانية هذا السعى المشروع نحو الاستقلال ودفاع أهل فلسطين عن وطنهم بكل قسوة وعنف ! فخربت القرى ، وسجنت الأحرار ، وأقامت المحاكم العسكرية فى كل ناحية : ثم حلت اللجنة العربية العليا واعتقلت أعضاءها فنفتهم إلى « سيشل » ، وإن كان « المفتى » استطاع أن ينجو إلى بيروت ثم إلى العراق . هذا بينما تنعم « الوكالة اليهودية » فى أحضان حكومة الانتداب آمنة ، تنظم شئونها وتدبر خططها للمستقبل فى طمأنينة ورضا !

* *

أزمة « الانتداب » :

وهكذا وجدت « إنجلترا » نفسها وجهاً لوجه أمام أزمة ، عجزت أساليبها الدبلوماسية الخداعة أو العسكرية الصارمة عن حلها : وظهر فشل « انتدابها » أمام العالم فشلا ذريعاً ، بعد مضى عشرين عاماً على وعد « بلفورها » الشهير . فلم يكن لأعمالها من نتيجة إلا أن

حولت أرض فلسطين المقدسة — أرض السلام — إلى ميدان حرب ، وخضبتها بأنهار من دماء !

أرغمت تلك الأحداث وغيرها إنجلترا على أن تفكر فى موقفها وتدرك خطورة النتائج التى أوصلتها إليها أعمالها ، فكان لا بد لها أن تتراجع ، ولو قليلا ، وتأخذ فى تعديل سياستها ، ولاسيما والسحب المنذرة بالشر ، الموعدة بقرب هبوب حرب عالمية ثانية، كانت تتجمع وتتكاثف فى أفق العلاقات الدولية ، وكانت قوة «الفاشستية» تبدو خطراً لا يمكن تجاهله على نفوذ بريطانيا فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

تضامن العرب :

وحوالى ذلك الوقت ظهرت قوة جديدة كان على إنجلترا أن تحسب لها حسابها ؛ فكان لظهورها أثر كبير فى مؤازرة قضية العروبة فى فلسطين: تلك هى قوة الشعور العام المشترك بين الشعوب العربية بالوحدة فى الأهداف والمصير ، والتجاوب لما يصيب أياً منها من خير أو شر .

فإنه فى ذلك التاريخ تمكنت تلك الشعوب من أن تختتم مرحلة فى حياتها ، كانت كل منها فى خلالها مشغولة بشئونها الداخلية وما يقتضيه واجب كسب معركتها ضد قوى العدوان والرجعية

منذ أن داهمها الاستعمار فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وفور انهيار الدولة العثمانية : فكانت تلك الفترة ما بين عامى ١٩١٨ — ١٩٣٦ الفرصة الثمينة التى اغتنمها الاستعمار والصهيونية لتنفيذ مؤامرتهما فى فلسطين ، ولكن منذ سنة ١٩٣٦ بدأت مرحلة جديدة من حياة شعوب الشرق العربى ؛ فإن سوريا ولبنان تمكنتا من عقد معاهدة مع فرنسا ١٩٣٦ اعترفت فيها الأخيرة لهما بالاستقلال والسيادة مع بعض القيود ، كما تمكنت مصر من عقد معاهدة مع إنجلترا فى نفس العام ، كانت على كل حال خطوة كبيرة نحو تحقيق أهـــدافها التامة فى الاستقلال والسيادة . وبرزت شخصيتا هاتين الدولتين العربيتين على مسرح السياسة العالمية . وكان العراق قد أخذ يتمخض عن ثورات عنيفة ضد الاستعمار ؛ تحت زعامة مليكه الفتى « غازى » ويتوثب حيوية على قضية العروبة . وكان قد أصبح لشرق الأردن صوت مسموع فى تقرير مصير السياسة الدولية ، فيما يختص بالشرق الأوسط ؛ كما أن الحجاز كان قد انتهى من تثبيت دعائم دولته التى بدأت منذ سنة ١٩٢٦ ، حين انتهى عهد أسرة « الأشراف » من مكة ، وعقد صلحه مع اليمن عام ١٩٣٥ ، واعترفت مصر بحكومته فى عام ١٩٣٦ . وأخذت الدولة السعودية الجديدة ، الغنية بثروتها البترولية الطائلة التى اكتشفت حديثاً ، تظهر عاملا قوياً فى محيط السياسة العربية .

لجنة « وودهد » :

كل هذه الأحداث والتطورات — مع خوف إنجلترا على مصيرها فى أثناء الحرب العالمية ، التى كانت ستهب قريباً — أرغمت إنجلترا ، بعد يئست من أن تحل القضية بتقارير لجانها التى ألفتها (فإنها كانت قد حولت تقرير « بيل » إلى لجنة الانتدابات بعصبة الأمم ؛ وهذه بدورها طلبت موافاتها ببيانات عن طريقة تنفيذ المقترحات .

فاضطرت الحكومة الإنجليزية إلى تأليف لجنة أخرى برئاسة « وود هد » التى قدمت تقريراً آخر فى نوفمبر ١٩٣٨ اقترحت فيه مشروعات أخرى للتقسيم . ثم قررت إنجلترا أنها كلها مشروعات غير قابلة للتنفيذ ، وأعلنت إعراضها عما ورد بالتقارير) — أرغمت تلك التطورات إنجلترا على أن تشرع فى خطة جديدة ، وأن تعترف بقوة الرأى العام للعالم العربى ، الذى أخذ يعلن استنكاره — بكل قوة — لسياسة بريطانيا الجائرة ، والذى اعتبر قضية فلسطين قضية الشعوب العربية جميعاً .

* * *

مؤتمر المائدة المستديرة :

فحيث استمرت الاضطرابات عبر سنتى ١٩٣٧ — ١٩٣٨، قررت إنجلترا أن تدعو إلى عقد « مؤتمر المائدة المستديرة » فى لنــــدن فى أوائل عام ١٩٣٩ ؛ الذى دعت إليه زعماء وممثلى الدول العربية جميعها . وتظاهرت بأن غرضها السعى للتوفيق بين العرب واليهود فدعت إليه ممثلى اليهود أيضاً ، تبحث الأمر مع كل فريق على حدة . عقد « المؤتمر » فى سان جيمس بلندن (يناير — مارس ١٩٣٩) . وكان اجتماع مندوبى الدول العربية : مصر ، العراق ، سورية ، لبنان ، شرق الأردن ، الحجاز ، اليمن ، وفلسطين — النموذج الأول لاجتماع « الجامعة العربية » التى كانت ستنشأ بعد بضع سنوات — وكان اجتماعاً رائعاً — كما أنه كان فى دعوة إنجلترا لهم ومفاوضة حكومتها معهم الاعتراف شبه الرسمى بقوة العالم العربى .

تدخل أمريكا :

وفى الفصل التالى الأخير ، سنبين تطور القضية منذ مؤتمر المائدة المستديرة وصدور « الكتاب الأبيض » ١٩٣٩ إلى نهاية الحرب الفلسطينية ١٩٤٩ . وفى خلال هذا الدور الأخير حدث تطور

خطير . فإن أمريكا قد حلت محل إنجلترا فى معاضدة الحركة الصهيونية : وصار اليهود يعتمدون على أمريكا بدلا من إنجلترا . فأصبحت أمريكا العامل الأول المؤثر فى سياسة الشرق الأوسط ، وأكبر خطر يتهدد أمن وحياة الشعوب العربية والإسلامية . فهى تقف منذ ذلك الوقت — بتأييدها للصهيونية ضد العرب — موقف العدو الأول للعروبة والإسلام معاً .

(٤)

نتائج المؤتمر :

لم يسفر « مؤتمر المائدة المستديرة » — الذى عقد بلندن فى أوائل سنة ١٩٣٩ عن نتيجة مرضية . وكان هـذا — على أية حال — أمراً متوقعاً ؛ إذ أنه ما كان من الممكن ولا من المعقول أن يحدث توفيق بين صاحب الشىء ومغتصبه ، أو بين المجنى عليه والمعتدى ، ما دام العدوان قائماً وعملية الاغتصاب مستمرة .

ولكن هذا « المؤتمر » ، من ناحية أخرى ، كانت له بعض نتائج ذات أهمية كبيرة : فمن ذلك أنه أعطى العرب فرصة ثمينة — كانوا من جانبهم متيقظين لها ؛ فلم يدعوها تفلت من بين أيديهم — استطاعوا فيها أن يتصلوا بالمسؤلين الإنجليز اتصالا مباشراً ، وأن يعرضوا عليهم وعلى الرأى العام البريطانى قضية « فلسطين » عرضاً وافياً ، مؤيداً بالأدلة القوية والبراهين : وكانت الاضطرابات التى حدثت فى الأرض المقدسة واحتجاجات الأمم العربية — وفى مقدمتها مصر — قد لفتت الأنظار إلى تلك القضية : فلأول مرة بدأ الرأى العام فى بريطانيا يدرك وجهة نظر العرب إدراكا صحيحاً ، ويشعر بشىء من العطف على العرب ، الذين كانوا يهاجمون فى ديارهم ؛ ولم يكن

من قبل يسمع إلا دعايات اليهود وأباطيلهم التى لم يألوا جهداً فى ترديدها ونشرها : وما كان رجـــل الشارع الإنجليزى يعرف — فى الغالب — عن « فلسطين » أكثر مما ذكر « العهد القديم » : من أنها كانت مسكناً لبنى إسرائيل ، فما داموا — هكذا يؤدى به منطقه السديد الذى لا يشوبه شائبة — قدسكنوها قبل ثلاثة آلاف أو ألفى عام ، فمن حقهم إذن أن يعود مدعو اليهودية من مختلف الأجناس إليها : أو بعبارة أخرى إن العالم ينبغى أن يعاد تقسيم خريطته وفقاً لما جاء فى « العهد القديم » الذى كتبه اليهود !!!

صدور « الكتاب الأبيض » :

نتيجة لهذا الاتصال إذن ، وأيضاً لما طرأ من تطور على الأحداث العالمية ، وحرص إنجلترا على أن يكون العرب مؤيدين لها فى أثناء نشوب حرب ، وأيضاً لشعورها بأن هذا الكائن العجيب الذى ألقت به للعالم ، عن طريق الإثم ، قد أخذ يتحول إلى مخلوق شاذ غريب التصرفات ! يخرج عن طاعتها ، ويريد أن يفلت من زمامها ، فأحست من جانبه بالخطورة ، وما أرادته إلا أن يكون خاضعاً لها — نتيجة لهذا كله ، ظهر تحول فى السياسة الإنجليزية ، أفصح عنه « الكتاب الأبيض » الذى أصدرته إنجلترا بعد انفضاض المؤتمر

(مايو ١٩٣٩) ، وناقشه البرلمان الإنجليزى فوافق عليه فى صيف ذاك العام ، بالرغم من معارضة بعض الغلاة : من أمثال « تشرشل » و « إمرى » .

وقد حددت إنجلترا فى هذا الكتاب السياسة التى قررت أن تتبعها فى حكمها لفلسطين : وهو وثيقة تاريخية لا تقل فى أهميتها عن وعد « بلفور » نفسه ، ويعتبر معدلا وموضحاً له . وكان صدوره ولا شك نصراً للعرب من بعض الوجوه ، كما كان خذلاناً للصهيونية ، التى ظلت تكسب انتصارات منذ صدور الوعد المذكور .

* * *

السياسة الجديدة :

يمكن تلخيص التغير الذى طرأ على السياسة الإنجليزية — بصفة عامة — بأن إنجلترا تحولت من التأييد المطلق لليهود ، إلى التأييد المقيد .

وقد ظهر هذا التغير فى أن « الكتاب الأبيض » قد أعلن أن إنجلترا لا تنوى إقامة « دولة يهودية » فى فلسطين — وكان هذا فى الواقع تأييداً لتصريح سبق أن أعلنته فى سنة ١٩٢٢ : وإن كانت أعمالها قد أدت إلى عكس ما كان يرمى إليه — كما نفت فى الوقت نفسه أيضاً أن وعودها على لسان معتمدها «مكماهون» فى سنة ١٩١٥

للشريف « حسين » قد تضمنت أن تكون فلسطين داخلة فى حدود الدولة العربية المستقلة ، التى وعدوه أن يملك عليها . وكان هذا تمحكا وتنصلا من الوعد — بدون شك — لأن أى دولة عربية على هذا النحو لابد أن تكون شاملة لفلسطين — التى ما هى إلا الجزء الجنوبى من قطر الشام .

وقررت إنجلترا أن هدفهـــا أنها ستعمل على تكوين حكومة مستقلة لفلسطين ، مرتبطة معها بمعاهدة ، من الجنسين : العربى واليهودى ، وذلك فى مدى عشر سنوات ، مالم يطرأ ما يضطرها إلى التأجيل . وستعمد إلى إشراك العنصرين فى إدارة الأعمـال بنصيب متزايد ، وبنسبتهما العددية . وبعد خمس سنوات يكون الأمن فيها قد استقر ، يوضع دستور للبلاد . ثم اعترفت إنجلترا — وكان هذا أهم ما احتوى عليه « الكتاب » — بأن الهجرة هى أس البلاء وسبب الاضطرابات — ولكن هذا الاعتراف جاء بعد فوات الأوان — فاعتزمت إنجلترا تقييد الهجرة : وذلك بأن قررت بأن يسمح بدخول ٧٥٫٠٠٠ مهاجر فى مدى خمس سنوات ، بمعدل ١٠٫٠٠٠ كل عام يضاف إليهم ٢٥٫٠٠٠ آخرين ، وذلك لكى تبلغ نسبة اليهود ثلث عدد سكان فلسطين كلها . ثم لا يسمح بعد ذلك بقبول مهاجرين إلا بموافقة العرب . وأوضح الكتاب أن موارد فلسطين وإمكانياتها الزراعية والصناعية لا تمكن أن تسمح بقبول أكثر من هذه النسبة ، دون أن يكون فى ذلك أكبر الخطر على السكان الأصليين .

الحرب العالمية الثانية :

فلما عرض هذا الكتاب على مجلس «عصبة الأمم» رفضه بإجماع الآراء، محتجاً بأن هذه السياسة تتعارض مع أغراض الانتداب — مما دل على أن تلك العصبة كانت خاضعة لتأثير الصهيونية خضوعاً تاماً — إلا أن قيام الحرب العالمية الثانية فى ذلك الظرف أطاح بالقرار ، كما قضى على « العصبة » . وأتى بجديد من التطورات . فكان من مقدمتها أن اشتدت وطأة « النازيين » على اليهود — إذ كانوا دائما موضع الاشتباه — فحشدوا فى معسكرات الاعتقال ، وحلت مؤسساتهم وصودرت ممتلكاتهم ، كما طوردوا فى كل بلد دخلته الجيوش الألمانية . وقد أدى ذلك إلى ازدياد عدد النازحين ، فأخذت أمريكا وإنجلترا نصيبا ، ولكنهما أرادتا أن يرسل الجزء الأعظم إلى وطن العرب ، فلسطين المنكوبة ! وبادر اليهود فأظهروا استعدادهم لمساعدة الحلفاء فى جهودهم الحربية : انتقاما من « هتلر » أولا ، واهتبالا لفرصة الحرب ليدبروا مؤامراتهم ويحكموا خططهم فى غمرتها ثانيا ، ولينالوا جزاءهم أيضا بعد النصر . ولا سيما وقد أخلد العرب إلى الهدوء بعد قيام الحرب ، ووضعوا قضيه «فلسطين» على الرف ، ولم يترددوا فى أن يضعوا كل مواردهم فى خدمة الحلفاء المستعمرين ، دون أن يأخذوا عليهم المواثيق ، ويستخلصوا

منهم الضمانات للمستقبل ، فى تلك الظروف التى كانوا أحوج ما يكونون فيها إلى مساعدة العرب ، وأكثر ما يكونون استعداداً للاتفاق معهم .

أمريكا تحتضن « الصهيونية » :

غير أن اليهود ظلوا حانقين على إنجلترا — بالرغم من أنها هى التى أنشأت لهم الوطن « المغتصب » ، وبالرغم من خدماتها الجليلة التى ظلت تقدمها لهم أكثر من عشرين عاما — وذلك لتقييدها « الهجرة » كما أعلنت فى كتابها الأبيض ، ولإصدارها قانونا أيضا فى عام ١٩٤٠ يقيد عمليات شراء الأراضى التى كانت تمولها الهيئات الصهيونية العالمية . فلما دخلت أمريكا الحرب أخذوا يولون وجوههم شطرها وقد أدركوا أن إنجلترا قد استنفذت أغراضها فيما يتعلق بخدمة قضيتهم ؛ وهم واثقون على كل حال أنها لن تتخلى عنهم برغم انصرافهم عنها ، لكراهيتها العميقة للعرب والإسلام .

ولم يكن اليهود بحاجة إلى جهد كبير ليظفروا بضم أمريكا إلى جانبهم وتأييدها لمطالبهم : فهى تعطف على الصهيونية منذ نشأتها . ولليهود فيها النفوذ القوى فى دوائر المال والصناعة : ولهم سيطرتهم على وسائل الدعاية والصحافة . كما أن أمريكا تجهل — أكثر من أختها إنجلترا — أحوال الشرق والعرب ، ولم يبق لها من مسيحيتها إلا مجموعة أفكار خاطئة عن الإسلام ، وشعور بالتعصب ضده

وهى تذكر «فلسطين» أيضا على الصورة التى وردت عنها فى «العهد القديم» ولا تعرف ما طرأ من تطورات ، فى مدى ألفى عام ، على تلك البلاد منذ ذلك العهد ، وفى طليعتها إنقاذ الإسلام للأرض المقدسة من ظلم واضطهاد البيزنطيين والرومان ، الذين استمروا فيها نحو سبعة قرون ثم بقى نوره وسماحته يشرقان عليها منذ ذلك الحين ، ثلاثة عشر قرنا أخرى

وإن انضمام « أمريكا » إلى اليهود — بهـــذا التعصب وذاك الجهل — كان أكبر تطور طرأ على القضية الفلسطينية منذ ظهورها : وهو الذى حولها من مجرد قضية .. فجعلها كارثة ، وأية كارثة ! !

(٥)

اليهود فى الحرب الثانية :

اتخذ اليهود الحرب ستاراً لإعداد قوة حربية وتكوين جيش وصاروا يجمعون الأسلحة والمؤن ويدخرونها ، ويحـــولون « مستعمراتهم » إلى معاقل .

ووجدوا فى الحرب فرصة نادرة للتدريب العسكرى . فبلغ عدد من انضم منهم إلى صفوف الحلفاء خمسة وعشرين ألفا . وألفوا الجمعيات الإرهابية . فظهرت عصابات « الهاجانا » — أى الدفاع — و « أرجون زفاى لومى » — أى الهيئة الوطنية الحربية — و « إشترن » نسبة إلى زعيمها وهو طالب شاب . وكان أحد أفراد هـذه العصبة ذاك الذى اغتال فى عام ١٩٤٥ فى القاهرة لورد « موين » أحد أقطاب المحافظين . ولما كانت انجلترا ظلت متمسكة بمبدأ تقييد الهجرة ، وكان الصهيونيون يريدون فتح الباب على مصراعيه ليغرقوا فلسطين بوفود المهاجرين ، فقد نشطت تلك العطابات لترغم الحكومة الإنجليزية — بأعمال القتل والتدمير والهمجية — على نقض قرارها . وأدت هذه الحالة إلى ازدياد الاضطراب واختلال الأمن . على أن « الوكالة اليهودية » كانت تتظاهر دائما بالولاء لحكومة الانتداب ، وتتنصل

من جرائم الإرهابيين ، مع أنها كانت تشجعهم فى الحقيقة سراً ، كما أنها تيسر الوسائل للمهاجرين ؛ فلم ينقطع ورودهم إلى فلسطين طوال الوقت ، خلسة وبمختلف الطرق .

وقد بلغ عدد اليهود فى نهاية سنة ١٩٤٤ ٥٥٤٫٠٠٠ من عدد السكان الذى كان إذ ذاك ١٫٧٦٥٫٠٠٠

* * *

أمريكا تطلب زيادة الهجرة :

وإذا كانت إنجلترا ، بعد تجارب مرة قاسية دامت نحو ربع قرن قد وصلت إلى هذه النتيجة . وهى ضرورة تقييد الهجرة والحد من المطامع الصهيونية الجامحة ، فان أمريكا — وقد أتت عقب الحرب سنة ١٩٤٥ لتمد الصهيونيين بقوة دافعة جديدة — لم تكن لها أية تجارب سابقة ، أو حنكة أو دراية . فكان تدخلها مبعثا لأكبر الشرور ، وظلما فادحا لا مثيل له ، ومحطما لأى أمل فى السلام فى فلسطين أو الشرق الأوسط . وإذا كان لهذا التدخل نتيجة واضحة فإنه قد كشف أمريكا على حقيقتها وبين أنها دولة « بروتستانتية » متعصبة ، وأنها تعمل للاستعمار واستغلال الشعوب مثل أخواتها الدول الأوربية .

سارع « ترومان » — الذى خلف « روزفلت » فى رئاســة

الولايات المتحدة — إلى الطلب من إنجلترا أن ترخص بهجرة ١٠٠٫٠٠٠ يهودى إلى فلسطين ؛ وأخذ يضغط عليها لتحقق هذا الطلب . وكانت أمريكا قد خرجت من الحرب صاحبة الكلمة الأولى فى الشئون الدولية ، وهى الدائنة لإنجلترا المنقذة لها ، فما كان من انجلترا — ولا سيما أن للصهيونية نفوذاً كبيراً فى دوائر حزب العمال — إلا أن نقضت سياستها التى كانت أعلنتها فى الكتاب الأبيض وقررت فتح باب الهجرة بنسب معينة ، وإن كانت قد ذكرت أن هذا إجراء مؤقت ، إلى أن تصدر اللجنة المشتركة التى اقترحت تكوينها قرارها فى مسائل الهجرة والإقامة وغير ذلك .

تقرير لجنة « هنشسون » :

وجاء تقرير هذه اللجنة ، التى رأسها « هنشسون » : القاضى الأمريكى — ١٩٤٦ — مؤيداً اطلب « ترومان » ؛ وداعياً لإنجلترا أن تلغى قوانين تحديد الهجرة والملكية . وإن كان لم يوافق على فكرة إقامة دولة لليهود ، ونصح بأن توضع فلسطين تحت وصاية هيئة الأمم .

ولما كانت إنجلترا لا تستطيع إلا أن تطيع أمر أمريكا ، وهى فى الوقت نفسه توازن بين المصالح المتناقضة ، فقد عادت إلى فكرة « التقسيم » ، لتوزع الغنائم بينها وبين أمريكا . وتم بينها وبين أمريكا اتفاق سرى على الخطة التى ستتبع ، والتى اعتزمتا أن تنفذ بالقوة والدهاء

تحويل المشكلة إلى « هيئة الأمم » :

أعلن مستر « بيفن » (فبراير ١٩٤٧) أن المشكلة القائمة لايمكن حلها بالمفاوضة : وأنه ليس للحكومة المنتدبة أن تعطى فلسطين لليهود أوللعرب، أو تقسمها بينهما (كذا) . فلم يبق إلا أن تعرض المشكلة للتحكيم أمام هيئة الأمم المتحدة . وقد دعيت الجمعية العمومية للهيئة للنظر فى الأمر : (أبريل ١٩٤٧) . فتقرر تأليف لجنة قيل عنها إنها ستكون محايدة ، لتحرى حقائق النزاع كأنه لم يكن معروفا بعد . وقد بدأت هذه اللجنة ، التى رأسها القاضى السويدى : « ساندستروم » عملها منذ يونيه من ذاك العام . وجالت بالأقطار العربية ، واستمعت لآراء الفريقين ، ثم قدمت تقريرها فى سبتمبر إلى الجمعية العمومية. وكانت خلاصة تقريرها الحث على التقسيم .

قرار تقسيم «فلسطين» نوفمبر ١٩٤٧ :

وتحت تأثير أمريكا والدول الاستعمارية ، وبين المؤتمرات والمناورات ، وإغراءات الصهيونية للمندوبين بالرشاوى وغيرها ، اجتمعت الجمعية العمومية، فلم تصغ إلى صوت المنطق والعدل ،وصمت آذانها عن حجج أصحاب الحق ، وقررت أن تجعل الاغتصاب أمراً مشروعاً ، وتمزيق الوطن الواحد إلى شطرين متحاربين سياسة صواباً

وإخراج الناس من ديارهم ليحل محلهم غيرهم من الغرباء عملا إنسانياً مهما استتبع من مآس وفواجع .

وهكذا أصدرت قرارها فى يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ . وهو يقضى بتقسيم « فلسطين » إلى دولتين : عربية ويهودية . ووضعت بنفسها الخرائط الموضحة لحدود التقسيم . ومعنى هذا القرار أن يكون لليهود كيان دولى فى فلسطين ، تعترف به الدول وتضفى عليه صفة الشرعية . وهو ماقام فى الأصل إلا على أساس الاغتصاب والانتهاب ولم يمكن تنفيذه إلا بالسيف والنار اللذين استخدمتهما انجلترا طوال حكمها لفلسطين ، بالقوة وعلى الرغم من إرادة أهلها . وكان هذا القرار آخر التطورات التى بدأت منذ صدور وعد « بلفور » .والثمرة التى أسفر عنها الانتداب البريطانى فى مدى ثلاثين عاماً : (١٩١٧ — ١٩٤٧) .

* * *

نتائج التقسيم :

رفض العرب القرار وماكان لهم إلا أن يرفضوا ، وبالرغم مما أثار من عاصفة سخط واحتجاج شديدين بين الشعوب العربية ، فإن أمريكا — متعاونة مع إنجلترا — صممت على تنفيذه : إذ كان لابد لها أن ترضى اليهود لتحرز أصواتهم وتنتفع بنفوذهم ، ولا بد أن تطيع قرار « مؤتمر الكنائس البروتستنتية » الأمريكية ، الذى انعقد

فى خلال الحرب : وقد طالب بأن تسلم فلسطين من المسلمين إلى اليهود ولا بد أن تقيم دولة غريبة فى قلب الشرق العربى ، تكون خاضعة لها : وبمثابة قاعدة حربية وسياسية يقوم عليها نفوذها . ولا بد أن تدق إسفينا فى جنب الأمة العربية ، يظل يهدد أمنها وحياتها ومصيرها ، حتى يستمر ضعفها وتكون فيما بعد لقمة سائغة للاستعمار ، ويسود النفوذ الأمريكى والإنجليزى فوق هذه المنطقة أبداً .

سارت الأمور إذن وفق خطة مرسومة . فكان لا بد لإنجلترا أن تعلن إنهاء الانتداب حتى يمكن قيام النظام الجديد ، ولا بد أن تنسحب من ذلك الجزء فى فلسطين الذى تقرر أن تتخلى عنه لليهود.

إنهاء الانتداب :

وقد أعلنت إنجلترا أن الانتداب سينتهى فى أغسطس سنة ١٩٤٨ ثم قدمت الميعاد فجأة فيما بعد إلى ١٥ مايو من نفس العام . وأخذ اليهود يستعدون للحرب التى كانوا يعرفون أنها قادمة لا محالة ، وهم واثقون من مناصرة الدول لهم حتى إذا هزموا . وهب عرب فلسطين يدافعون عن أنفسهم ووطنهم ، ووفدت عليهم جموع المتطوعين من البلاد العربية — وفى طليعتها مصر — فأظهر الجميع آيات البطولة والبسالة ، وجاهدوا جهاداً مشكورا .

حرب فلسطين ١٩٤٨ :

فنى يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وقد أتمت « إنجلترا » إخلاءها لفلسطين أعلن « ترومان » — رئيس الولايات المتحدة — فى نفس اليوم ، اعتراف أمريكا — وكانت أول دولة تفعل ذلك — اعترافها بدولة « إسرائيل » : أى الدولة التى لم تولد بعد — أعلن اعترافه بها قبل وجودها . فكان هذا كشفاً للمؤامرة التى دبر أمرها منذ وقت طويل . ثم تبعتها « روسيا » أيضاً فى الاعتراف . وتلتهما سائر الدول وتبين أن الجريمة « دولية » ، وأن اليهود استطاعوا أن يكتلوا العالم ضد العرب .

فكانت نتيجة الحرب التى بدأت فى يوم ١٥ مايو من ذلك العام : حين دخلت الجيوب العربية أرض فلسطين لتحول بين الصهيونيين وبين احتلالها — كانت نتيجتها معروفة مقدما . يضاف إلى ذلك أن أكثر الدول العربية نفسها التى دخلت الحرب كانت مقيدة بوحى الدول الاستعمارية ، أو مرتبطة معها فى أحلاف . لذا فإن الحرب لم تكن حربا جدية ، وكانت فى الواقع مهزلة مأساة ، فى وقت واحد !

فهناك إذن كثير من الأسرار المتعلقة بهذه الحرب ، وموقف الدول الشرقية والغربية منها .

ولا تتم الصورة أمام التاريخ للوقائع التى حدثت ، إلا إذا نشرت كل الوثائق والمذكرات المتصلة بتلك الحرب ، وما نتج عنها ، وأذيعت

كل الأسرار . فيكفى المؤرخ إذن الآن أن يشير إلى بعض هـذه الأسرار بأن يطرح هذه الأسئلة : وهى : —

لماذا جرد أهل فلسطين من سلاحهم وهم الذين كانوا يدافعون عن بلادهم مستميتين ؟ ولماذا تقرر إشراك الجيوش العربية النظامية وشل أو معارضة حركات المتطوعين ؟

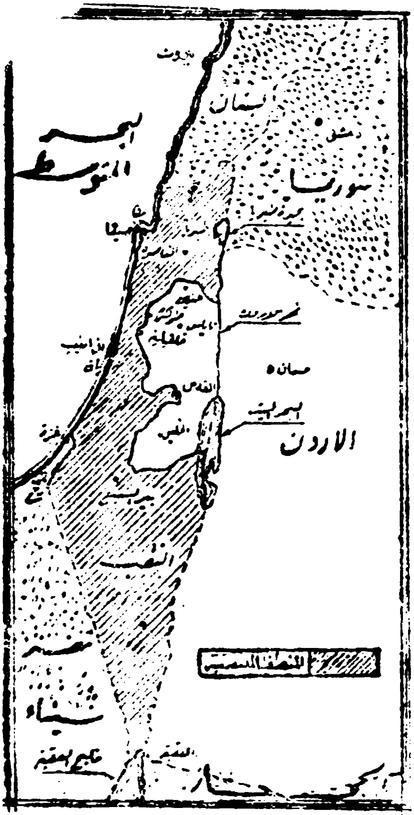
ولماذا دخلت هذه الجيوش — أو زج بها إلى الحرب — بدون استعداد ، وبأسلحة فاسدة ؛ ودون هدف محدد ؟ وقومر بحياتها وغومر بشرفها ؟ . ولماذا اشتركت فى القتال دون توحيد للقيادة ، أو اتفاق على الخطة ، أو تنسيق بين الأعمال ؟

وكيف خدع الساسة والقادة ، فإذا بإنجلترا تفاجئهم بإخلاء « حيفا » — أكبر ثغر فى فلسطين — قبيل نشوب القتال ، ليدخلها اليهود ؟ ثم تسلم لهم « اللد » أيضاً — وهى أهم نقطة مواصلات — ليحتلها اليهود فى أثناء القتال ؟ وكيف رضى رؤساء العرب أن يكون القائد الأعلى الرجل الإنجليزى الاستعمارى « جلوب باشا » ؟! وكيف صدرت الأوامر إلى الجيش العراقى — وقد كان قاب قوسين من النصر — بالتقهقر : وكشف إذ ذاك جناح الجيش المصرى ، فتعرضت بعض وحداته للحصار ؟

ومن أخطر الأسئلة التى ينبغى أن توجه أيضاً : ولماذا وافق الساسة والقادة على إعلان الهدنة الأولى — وقد كان النصر ملازماً

لهم — بعد أن سفكت الدماء وضحى بالأرواح ، فضاعت الدماء عبثاً : وأعطوا بذلك الأعداء الفرصة لكى يتموا استعدادهم ويستوردوا الأسلحة من كل الجهات ؟ ثم كيف قبلوا — أيضاً — الهدنة الثانية ؟

وهكذا : وهكذا ... إلى آخر أسئلة لا تنتهى !



إسرائيل فى الشرق العربى

هدنة « رودس » ١٩٤٩ :

ثم كانت نهاية المطاف عقد الهدنة فى رودس فى مارس ١٩٤٩ . فانتهت الحرب : وكان فى مقدمة نتائجها أن شرد أكثر من تسعمائة ألف عربى ، تركوا يهيمون على وجوههم يقابلون الجوع والفناء ! وخرجت دولة اليهود وهى دولة مترامية الأطراف : تمتد حدودها من سوريا وبحيرة طبرية فى الشمال . إلى ميناء « أيلة » على « خليج العقبة » فى الجنوب . وتضم أهم مدن فلسطين وموانيها . وتشمل

أيضا منطقة النقب ، والقسم الأكبر من القدس .

فها هي ذى الآن دولة قائمة ، فى قلب الشرق العربى الإسلامى — لم تعد مزعومة كما كان يقال عنها — : هى الجار الأول الملاصق، لكل من الأقطار العربية : مصر ، والأردن ، وسوريا ،ولبنان، والحجاز. تعترض بين هذه الدول كلها: وتقطع المواصلات بينها:وتقوم خطراً ملموساً كبيراً على كل منها . ثم هى — بعد هذه الجولة الأولى — تستعد ليوم آخر أو أيام ، تتمنى أن تحقق فيها مابقى من مطامعها — ومطامعها ، كما لا يخفى أبناؤها — أن يمدوا حدود دولتهم — كما يقولون — من الفرات إلى النيل !

فهذا هو الخطر الذى يجابه الشعوب العربية الآن . بل إنه أكبر خطر تعرض له الشرق العربى منذ عهد الحروب الصليبية .

التصريح الثلاثى ١٩٥٠ :

وإن « إسرائيل » فى ذاتها ما كانت لتكون لها هذه الأهمية ، لولا أنها هى يد أمريكا وإنجلترا : وهى قاعدة الاستعمار لهما ، وهى أداتهما لتنفيذ العدوان . وقد اتفقت أمريكا وإنجلترا وفرنسا ، فأصدرت إعلانها فى مايو سنة ١٩٥٠ : وفيـــه تضمن هذه الدول بقاء حدود إسرائيل على ما هى عليه : أى أن الدول الثلاث ضمنت أو تعهدت بالمحافظة على إسرائيل ، حتى لا تقدر أية دولة عربية على أن تسترد أى حق لفلسطين . فهذه الدول ، ومعها غيرها ، تقف

مساندة لإسرائيل منذ ذلك الوقت ، تؤيدها فى عدوانها ، وتمدها دائماً بالأسلحة إلى هذا اليوم : وقد ازدادت هذه المساندة بعد ذلك حين أخذت القومية العربية فى الظهور .

(وبعد) فهذه هى قصة الكارثة التى حاقت بفلسطين العربية : هذه هى قصة دولة « إسرائيل » ، وقصة المؤامرة الاستعمارية الكبرى ، أو الجريمة الدولية .

وهكذا قامت « إسرائيل » — تؤيدها دول الاستعمار — تتحدى العرب وأمة العرب وتاريخ العرب ! وأوجدت بينها وبين العرب معركة الحياة أو الموت .

أما ماذا سيكون جواب العرب على هذا التحدى ؟ وكيف سيعملون — أوهم قد بدأوا العمل بالفعل — ليردوا هذا العدوان ، ويدافعوا عن بلادهم وأوطانهم ؟ وكيف سيعيدون للوطن العربى وحدته ، ويؤكدوا استقلاله ؟ ويطهروه من المعتدى الغاصب ؟

وكيف سيخرجون ظافرين منتصرين ، فيثبتوا وجودهم ، ويستأنفوا رسالتهم ؟

فأما هذه الأسئلة وأمثالها — فإن الذى سيجيب عنها إنما هو المستقبل : وهو المستقبل القريب ، الظافر المشرق ، بعون الله .

كلمة أخـــيرة

تتبعنا تاريخ الشرق الأوسط ، أو العربى بصفة خاصة ، حتى منتصف القرن العشرين أو بعده بقليل : وقد كان تاريخا حافلا بالأحداث والتطورات ، التى كونت أساساً لحاضر هذا الشرق ومستقبله . فإذا أردنا أن نلقى نظرة عامة على وضع الأمة العربية فى ذلك الوقت : أى عند النقطة التى انتهى إليها هذا التطور الذى وصفناه فى الكتاب — نجد أن الأمة العربية قد أوشكت إذ ذاك أن تصل إلى نهاية الشوط فى كفاحها الممتد العنيف ضد الاستعمار ، ليحقق كثير من شعوبها أهدافه فى الحرية والاستقلال ؛ لكن فى نفس هذا الوقت الذى بدأت تجنى فيه ثمار النصر ، نجد أنه قد تكون فى داخلها مصدر لخطر كبير ، قد يفوق فى درجة خطورته كل ما تعرض له الشرق العربى قبل ذلك من أخطار الاستعمار : وهو قيام دولة «الصهيونية» أو ما تسمى بدولة « إسرائيل » ، فى « فلسطين » ، وهى قطعة من قلب الشرق العربى . فهذا يقلل من الشعور بقيمة النصر النهائى ، ويبين أنه إذا كان الاستعمار قد أرغمه الجهاد على أن يولى ظهره وينصرف من الباب ، فإنه قد استدار ، واستطاع أن يعاون معتديا باغيا ، حليفاً له سفاكا أثيما ، على أن يتسلل من النافذة ، ويتمكن من أن يحتل قلب الدار : فيحتم هذا إذن ضرورة استمرار المعركة والكفاح ضد هذا

العدوان الجديد: ويجب أن يكون هذا الكفاح مشتركاً بين شعوب الأمة العربية جمعاء ، لكي تذود عن نفسها الخطر . وتؤمن كيانها ومستقبلها .

فهذا إذن هو الهدف الأول والأكبر أمام الشعوب العربية في المرحلة الحاضرة والقادمة : وينبغي أن تكون له الأسبقية على كل هدف آخر . فيجب إذن — لكي تصل الشعوب إلى إدراك هذا الهدف ، وتحقق النصر النهائي — أن تحافظ الأمة العربية على روح التضامن والتآزر بينها ، وتوحد سياستها وخططها ووسائلها ، دون أن تسمح لأي اختلاف مذهبي في مجال السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع ، أو مشاعر فردية ، أو الرغبة في بلوغ مجد شخصي . أن يؤذي شعور الوحدة بينها ، أو يعوق تضامنها في مكافحة الخطر ، حتى لا يكون هذا عاملا من عوامل الفرقة والانقسام ، التي هي أكبر ما يهدد مصير الشعوب ، ويقضي على مكانتها وقوتها .

كما أنه — إذا أردنا أن نفيد من دروس التاريخ — يلزم أن نأخذ الحذر من أن نقترف مثل الخطأ الذي وقع فيه بعض الأقوام من قبل: فلا يرتكب العرب — مثلا — ما ارتكبه الأتراك « الاتحاديون » . حين قرر زعماؤهم أن ينحازوا لمعسكر معين . واشتركوا في الحرب العالمية الأولى في هذا الجانب، ضد الدول المقابلة: فأدى هذا إلى ضياع دولتهم . فهذه الحروب إنما هي حروب أوروبية أمريكية . من أجل

التنافس الاستعمارى أو الاقتصادى . أما نحن فيجب أن نركز اهتمامنا على أهدافنا ، ونوجه جهودنا إلى تحقيق مصالحنا ،فنحن شعوب تبنى نفسها ،ولا تريد إلا الحرية والاستقلال ، وتملى علينا طبيعة ثقافتنا أن لا يكون نشاطنا الدولى إلا إنسانيا عاما . فبذا لا نعرض أمتنا العربية لأخطار الحروب ونتائجها ، ولا نعطى لعدونا الفرصة لكى يؤلب علينا دولا قوية معادية .

وهناك شرط أساسى هام لضمان النجاح وتحقيق النصر — وهو الذى تتوقف عليه الشروط السابقة — وهو أن الشعوب العربية يجب أن تملك أمورها، وتحقق إرادتها، وأن تشعر شعوراً حقيقياً بحريتها. يجب أن تكون — فعلا — هى صاحبة السيادة ، وكلمتها هى العليا. لقد جاهدت طويلا ضد المستعمرين من أجل حريتها : وينبغى أن لا تكون النتيجة أن تكون تخلصت من استبداد خارجى لتجد نفسها خاضعة لاستبداد داخلى. إن الاستبداد شر فى كل حال ،وهو يقتل روح الأمة ويشل حركتها . أما الحرية فتظهر ذاتيتها، وتعلى روحها ، وتضاعف قوتها . يجب أن يقوم الحكم إذن على مبدأ الشورى والاختيار ، ويعلن حكم الدستور فى كل الأقطار العربية ،كما تضعها الشعوب وتقررها . فهذا هو الذى يضمن لها التوفيق لأرشد المناهج ،والنجاح فى أعمالها : وهو الذى يجعلها تستطيع أن تضع كل قواتها وطاقاتها فى المعركة ، لتصل إلى النصر المحقق والفوز المبين .؟

الفهرس